مولانا الآسك

الحكاية الأولى

رواية

مولانا الآسك

رواية

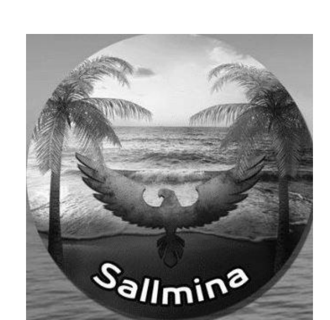
وليد الديب

رقم الإيداع: ٢٠٢٢/٤٥٥٤

تدمك: ٩٧٨-٩٧٧-٦٧٩٨-٦٨-٧

الطبعة الأولى: يناير ٢٠٢٢

الفؤاد للنشر والتوزيع



الفؤاد للنشر والتوزيع

برج سانت فاتيما - أمام جنينة مول - مدينة نصر

Alfouad_Publishing@hotmail.com

facebook.com/fouadpublishing

شكر خاص.. **صالون سالمينا الثقافي**

مولانا الآسك

الحكاية الأولى

رواية

وليد الديب

الفؤاد للنشـــر والتـــوزيـــع

إهداء:

إلى الشيطان..

أقْفرتْ من شمائلي الأقرانُ

سَفهًا لَمَّا عُيِّنتْ أقرانُ

عَظُمَ الناسُ لو شَهِدْنَ غِيابي

قبل أنْ نمَّ عن حضوري هَوانُ

ما استكانَ الأحزانُ إلا بصدري

هل تشفَّتْ عن روحيَ الأشجانُ؟

لانَ قلبي قبل الطوارقِ مِن غَمْـ

ـمٍّ توشَّى بالفرحِ لي الغثيانُ

جدّدَ الحاسدون منِّي ربيْعًا

قد بلَى عند غيريَ الإحسانُ

هأنذا يا حاسدين بِداعٍ

لكمُ؛ لا يَؤوبكمْ خُسرانُ

يَزْدهي من لُعابِ أعينهمْ حَصْـ

ـدُ خرابٍ فانظرْ إليَّ العِيَانُ

بيَ داءٌ من دائهِ ليس إلا

مَلِكٌ عن رَبِّي له ترجمانُ

أبو المُنذر

١

غَلْغَلَ سيفَه الزاهقَ ما لم يُحصر بعد من الأرواح؛ بين ثنايا حطامٍ قابعٍ على حافة الحريق الكبير، يلوحُ منه دخانٌ خائرٌ متراقصٌ بأذرعٍ هُزالٍ كرعشة شبحٍ قبيل زوالٍ؛ أصلهُ نيرانٌ قد أُشعلتْ باديَ الليل.

وصوتٌ في الآذان كالنفير مَبْعثهُ صدرُ كُمَيْتٍ، ومن أنفِه يفوحُ الهواء مُشبَّعًا ببخار الصقيع، الذي ترعرع بمزرعةٍ لأعتق الخيل أعراقًا في الجزيرة العربية، تقع في الجنوب الشرقي اليماني بين مقاطعة تابعة للإمام، وقد أرسلوا منها مؤخرًا ثمانية عشر فرسًا، هم من أشرف الخيول طرًّا في ذاك الزمان.

فوق تلك البقعة الواقعة على الحدود السورية الشمالية القديمة، في ذلك الوقت من الشتاء، ينهمر الثلج كقطع القطن، بياضه كحور عينٍ لم يَطْمِثْها إنسٌ ولا جان. ومع هذا البرد؛ لقد وصف الشيخُ العجوز تلك البقعة ورجالها: «كان المعسكرُ عجيبَ الدفءِ غريبًا؛ يحضن دِفْئُهُ الخدودَ مِن دِفْءِ قلوبِ ساكنيه، وطبَقَ فوقه صمتٌ داكنٌ غير مُوحشٍ من بركاتِ أرواحٍ مرضيّةٍ علمتْ مَن راق بها. إن هؤلاء الرجال يَتباشرُ بِغبار خيلهم الكَلِيمُ، بَداهة ما يُقرأ في صفائح وجوههم الكريمة:

لَا يَسْأَلُونَ أَخَاهُمْ حينَ يَنْدُبُهُمْ ... في النَّائِبَاتِ عَلَى مَا قَالَ بُرْهَانَا

لا ينتظرون شرًّا يُبدي إليهم ناجذيه؛ إذ طاروا لبواطنه زرافاتٍ ووحدانًا، هم بنو مازنٍ لِمَن ليس له مازن من قبل أن يُنادي المستغيثُ، ردّوا على صرخات

الدنيا؛ بأن ملؤوها قرعَ الظنابيبِ. ضرَّابون في حَوْمةِ الوغى. لقد عدّلوا ميلَ الأرض».

يرتدي الفارس صاحب السيف المتغلغل أفخرَ أنواع الجلود آنذاك، وهو جلد النمر، بعد ما نقصت الجلودُ في العالم كله بعد الأحداث الأخيرة، التي قال عنها الشيخ: «هي أحداث كوصف الشاعر القديم: **فَقَدْ لاقَيْتَنَا فَرَأَيْتَ حَرْبًا ... عَوَانًا تَمْنَعُ الشَّيْخَ الشَّرَابَا**... إذ هذا الإمام هو روح كُنْ... إن النساءَ لترتحلُ معهم أينما حلّوا، ليس كما في القديم حين يأخذ الجاهليون نساءهم في الحروب، تحثّهم على القتال، وألّا يتركوهم فارّين من النزال، وإنما هؤلاء ما عرفوا إلا النصر، والنساء معهم في نزهة بديعة شيقة. كانت تسلية بحق لهنَّ. وكُنَّ يُزيّنَّ الأخدار... يكفي الحديث عن نسائهم؛ فهؤلاء القوم أغير الخلائق، وقد يخرج علينا من تحت الحروف شُهبٌ هيّجتها نيرانُ غَيرَتِهم.

والماء يا لها من ماء في تلك الآونة الفريدة المباركة، ليس كمثلها ماء جرت في العصور الهوالك، قد تبدَّدت خصائصها كليةً، لعل اللهَ جعلها كذلك؛ لزوال آثار دماء الهلكى من فوق جلود الفوارس؛ حتى لا يمسسهم أيٌّ من نجاستها، على أنها تلئم جروح الفوارس سريعًا؛ لكأنها مسُّ نبيٍّ. فتلك العُصبة من الرجال لديها الكثير من المهام الجسام. أما الشمس، فكأنها لم تطلع من قبل، خُدع الذين من قبلهم بأن الذي يخرج عليهم في السماء شمسٌ».

هذا الجلد الذي يكسو صاحب السيف لا يكون إلا لفرسان الحفيظة؛ وهم الموكَّلون عن الحماية، وإن كانت حدود العدو تبعد عنهم ألفي فرسخ، فهؤلاء الفرسان لا ينامون في خَفارتهم الليلية كما هي العادة.

فأخرج الكتابَ من بين ثنايا الحطام؛ على رأس سيفه. الكتاب الذي عاند الحريق، أو لأنه تم نبذه من الكُتب الأخرى حتى وهُم في الحريق، أو لأنه لم يكن في جوفها بين إخوته من الكتب من تلك النوعية التي كُتبت في تلك الفترة، والتي أمر الإمام بحرقها جميعًا عند دخولهم أيَّ مدينة.

ثم رجع وجلس على أريكةٍ فوق مقعدٍ بجوار النار المعلقة فوق عمود الإنارة، وتصفّح بعض الكلمات الموجودة بداخله، فقال له الفارس المضّجع على جانبه، يُدير بيده اليُمنى الأرنب البرّي على عودٍ من حديدٍ:

ـ ألم ينهنا الإمام عن قراءة تلك الكُتب والأوراق التي كُتبت في العصور الخبيثة؟

ـ كنتُ أراقب الحريق منذ فترة، وهذا الكتاب يأبى الانغماسَ في الحريق.

ـ كأنَّك لم تكن معنا قط في اليوم الأسبوعي (يقظة الرِّعاء).

ـ لا تُبالغ في الأمر، أنت تعلم جيدًا، ما عاد لهذه الأمور تأثير فينا، بل لم يكن لها تأثير علينا في يوم من الأيام.

ثم ذهب الفارس الطاهي، بعينيه إلى أرنبه على النار، وكأنْ لم يحدث شيءٌ، ومع أنَّ هذا الفارس يعلمُ جيدًا قائده؛ إذ تشعر حيال هؤلاء الفوارس كلهم أنهم

من صُلب أبٍ واحدٍ، وقد شربوا من جوف حوض السكينة، التي تخفي وراءها ما يُحاك في صدورهم المتشابه أيضًا، غير أنه ما سأله إلا من باب قول الشاعر:

أخذنا بأطرافِ الأحاديث بيننا

وبعد أن تصفح قائد الحفيظة بضع ورقاتٍ بالكتاب مكتوبة بالفصحى الركيكة، وجد بعض الألفاظ باللهجات القديمة بينها، فتأفَّف لهذا، وظهر على وجهه بعد أن طوى الكتاب (فلقد بُدِّل لسان ومنطق هذا الجيل -في يوم وليلة- وصار يقارب اللسان الأمويّ عصر الفتوحات). رأى هذا التأفف الفارسُ الآتي بحوزته جرّتان من فخارٍ ينضحُ منهما الماءُ، وسأل القائد عن ذلك:

ـ ما الذي دعاكَ لهذا يا سيدي؟

هذا الفارس صاحب البشرة التي تكاد تكون جرداء، عدا بعض الشعيرات القليلة في وجهه التي تشبه جميع أهل بلده، ولكنه شخصٌ مرحٌ خفيف على القلب لأبعد ما يكون، ومع ذلك يُحب قائدَه كوالده الذي تُوفِّي في الفتن الطاحنة في شمال أفريقيا منذ ثلاثين عامًا.

قبل وفاة والده بفترة وجيزة، قد قصَّ عليه تاريخ تلك البلدة القيروانية، وما جرى فيها من أهوال؛ إذ كان والده حينها قد جاوز السبعين، وكان هذا الفارس أصغر إخوته. فردَّ عليه قائد الحفيظة:

ـ هذه الكلمات عن اللهجات السابقة التي تخلَّفت عن التقاطها من العجائز.

ـ ولماذا تبتئس إذن؟ أنا أدُلُّك على مَن يقرؤها.

ـ مَن؟

ـ هناك رجلٌ في القرية التي تجاورنا، سمعتُ أنه تجاوز المائة والعشرين، يعيش وحده، يمكنه أن يقرأها لنا. وقد أصررتُ على أن يشهد على زواجي الثالث من هذه القرية، فهو رجلٌ مبارك.

ـ اذهب وائتني به، وخذ معك عربة الحفيظة للنساء؛ حتى تكون رحلته غير شاقة، وخذ معك بعضًا من لِباس فرسان الحفيظة؛ ليدّثّر به من البرد.

قعقعةُ عجلات عربة الحفيظة اقتربت من الحدود الجنوبية للمعسكر، بعد أن اجتازت ممرات قليلة التعرجات، والتي قد مُهِّدَتْ بين مزارع التفاح المحيطة بالمعسكر من كل اتجاه.

في ذلك الوقت، كان قائد الحفيظة يُقلِّب في الكتاب، ويظهر عليه شدة الفضول أن يتم فهمه، بعد تفسير الكلمات القديمة، وكان نائبه ما زال يشوي أرنب الإفطار على النار.

ثم ألقى السلامَ (يونس) على الجند المرصوص كطودٍ تارةً ووتدٍ. إن الناظر إليهم يغتاله اليقين بأنْ لم يُخلق الحزم إلا لهؤلاء. في تلك الناحية وهو جالس بجوار سائق العربة، ولا بد للعربة أن تأخذ نصف دائرة حتى تصل إلى مدخل المعسكر الجالس أمامه قائد الحفيظة ونائبه طاهي الأرنب. وبعد أن رآه قال له:

ـ لم تتأخر يومًا من الأيام عني يا (يونس)، تُنجز الأعمال سريعًا وكأنَّك تمحي الزمن.

ـ يا سيدي، أنت سيدي وكوالدي.

قالها (يونس) بعد أن نزل من أمام العربة، والتفَّ ليفتح الباب الجانبي في العربة.

كانوا لا يصنعون أبواب عربات الحفيظة للنساء من الخلف، ولم يكن باب العربة في محاذاة جدار العربة من الناحية التي هو فيها، بل كان يدخل في الجدار بمقدار نصف متر، وعلى جانبيه كرسيان لحارسين آخرين، غير أن الداخل من هذا الباب يرى في الجدار المقابل للعربة سهامًا منتصبة في وجهه، مُعدَّة للإطلاق بطريقة ابتكرها فارسٌ من بلاد نجد، إذا سُحب أحد المكابح المتوارية تحت كلٍّ من الأريكتين فوق الكنبتين المتقابلتين؛ يجعل من مقتحِم الباب مرمًى للصيد، حيث تنفذ منه السهام إلى الذي خلفه حتى ثلاثة رجال.

فتح (يونس) باب العربة، ودخل ليحمل العجوز بين يديه، وقد لفّه صيانةً؛ بجلد النمر الخاص بهم، وبرفقٍ شديد نزل به درجات العربة التي يُسمَعُ صوتها الخفيف من خشخشة الحديد، وهو يطأ عليها بحذائه الطويل المصنوع من الجلد خصيصًا للأقدام في بلاد القوقاز، وتحديدًا بلد قائد الحفيظة، ثم أجلسه على أريكةٍ بجوار الفارس الطاهي، بعد أن اعتدل الأخير في جلسته تبجيلًا لهذا العجوز، كان ينظر إليه قائدُ الحفيظة بإمعانٍ شديد، كأنَّه أراد الذهاب لتلك العصور التي عاشها هذا العجوز. ثم قال وهو ما زال غارقًا في ملامحه:

ـ معذرةً يا أبتِ، جئنا بكَ في هذا الصقيع.

ـ لا تعتذر يا بُني، فأنا أُريد هذا.

قال الشيخ كلمته، مع خروج البخار الأقل بياضًا من لحيته.

نظر الفارس الطاهي بتعجب على كلام الشيخ العجوز، الذي غطت لحيته منتصف صدره، والتي كادت تُضيء الليل بجوار شُعلة النار الوهّاجة من بياضها، كان ذا أنفٍ دقيقٍ يكاد يندرس بين التجاعيد، واستولت لحيته على منتصف خدِّهِ، وتبعثر الشعر الأبيض لحاجبيه، ومن تحتهما عينان شديدٌ غورُها، وقد اعتمرتْ رأسُه عمامةً خضراءَ البهاءِ، قائلًا:

ـ وماذا تُريد يا شيخنا؟

فأجاب الشيخ العجوز بابتسامة حانية رقيقة كرقَّةِ عظمه:

ـ أخبرني فتاكم (يونس) ما قد جئتموني لأجله.

فقال الفارس الطاهي موجِّهًا الكلام إلى (يونس):

ـ ماذا قلتَ له يا (يونس)؟

فقال العجوز قبل أن ينطق (يونس):

ـ أتريد أن تعاقبه لأنه أخبرني لماذا جاء بي؟

الفارس الطاهي:

ـ لا يا أبتِ، كان سؤالًا عابرًا.

ثم قال العجوز موجِّهًا كلامه للفارس الطاهي:

ـ غير لون وجهك، فمن لهجتك يمكنني أن أعرف من أين أنت.

ـ من أين أنا يا أبتِ؟

ـ أنتَ من قبيل الحبشة.

ـ نعم، صدقت حفظك الله.

ثم قال العجوز له:

ـ ولتعلم أن مخابرة (يونس) إياي؛ لمَ جئتُ إليكم كانت فائدة كبيرة.

ـ كيف يا أبتِ؟

ـ لقد جئتُ ومعي نظارتي القديمة، هي عينٌ واحدة، ولكن بدونها لا أرى الكلام.

فقال قائد الحفيظة:

ـ حمدًا لله لهذا الخبر.

ثم قال العجوز وهو ينظر إلى بقايا الحريق الذي أمامه، غير موجِّهٍ كلامه لأحد:

ـ لماذا يا بُنيَّ هذه السهام في العربة؟

فقال قائد الحفيظة:

ـ هذه العربة للنساء.

فقال العجوز:

ـ ولكن يا بُنيَّ، إن أقرب عدوٍّ لنا على بُعْدِ ألفي فرسخ.

ـ يا أبتِ لا يُقاس لدينا بُعد العدو بالفراسخ.

ـ بارك اللهُ الأرضَ بكم.

ـ ولتعلم يا أبتِ، في هذه العربة سمٌّ؟

ـ كيف يا بُنيَّ؟

ـ لمّا كانت قائدةُ التدريب تُخبر نساءَ المعسكر كيف يستخدمنَ تلك السهام، أرسلتْ مع زوجها برأيٍ من بعضهنَّ بوضع سُمٍّ يشربنه إذا نفدت تلك السهام وكثر العدو.

فقال العجوز وهو يحكُّ لحيته:

ـ لا يمكن لي أن أُخمِّن من أين تلك النسوة كما فعلتَ مع...

فأطرقَ العجوز يتأمل فرسًا كُمَيْتًا، وينظر لفارسه القوقازي، وسمعَ من خاطره: (لَعَقَرتِ العربُ خيْلَها لو أنها على خيالها قد خطرَ أنْ سوف يأتي زمانٌ ينجّس متونَ خيْلِها المباركات مخنثون رُكوبًا بها مُتباهين أمام ربات الحجال.

هل لو علم الذي قال:

وللخيلِ أيَّامٌ فمنْ يَصْطَبِرْ لها ... وَيَعْرِفْ لَهَا أَيَّامَهَا الخيرَ تُعْقِبِ

هل لو علمَ الخُنَّثَ في زماني، أكان سيقول عن الخيل ما قال؟

ولكني على يقينٍ أنه سيشفي غليلَ صدره ويواسيه عوضًا؛ رؤيةُ هؤلاء الفرسان... لقد جاءت. أيامها الخير. يا عربي.

وسيتذكر قوله الآخر لمّا يرى تلك الوجوه الكريمة التي تلتفُّ حول إمامِها:

تَبِيْتُ كَعِقْبَانِ الشُّرَيْفِ رِجَالُهُ ... إذا ما نَوَوا إِحْدَاثَ أَمْرٍ مُعَطَّبِ

كان يصفهم قبل تمام ألفي عامٍ).

ثمَّ توجه إلى طاهي الأرنب وقال له:

ـ لمْ تقل لي اسمك يا ابن النيل؟

ـ أنا (معاذ) يا أبتِ.

فقال قائد الحفيظة:

ـ إنّهنَّ قُرشياتٌ وشاميَّاتٌ.

ثم استكمل سائلًا:

ـ ولماذا يا أبتِ كنتَ تُريد أن تأتي في هذا الصقيع، ولم تضجر لطلبنا؟

ـ يا بُنيّ، لقد علمتُ أن الله رَضِيَ عني، وبارك في عمري برؤياكم.

ـ كيف يا أبتِ؟ بارك الله في عمرك بنا أو بغيرنا.

فقال العجوز:

ـ يا بُنيّ، إنِّي وما تجرعتُ في تلك الفترة من أهوالٍ؛ لسعيدٌ غاية السعادة أنْ أقصَّها عليكم ألف مرة.

ثم قال (معاذ) عَجِبًا:

ـ فلماذا يا شيخنا هذه السعادة في ذكر الأهوال؟

ـ يا بُنيَّ، أنا أقصُّها عليكم، وكأنِّي أُعذِّبها كل مرة بكم.

ثم نظر القائدُ لـ (يونس)، الذي ما زال واقفًا، نظرةَ خاطفٍ، وقال للشيخ:

ـ معذرةً يا أبتِ على تأخيرنا في تقديم الإفطار لكَ، يا (يونس) اقطع بعضًا من الأرنب، وائتنا بعصير التين والعسل.

فقال الشيخ:

ـ يا بُنيّ، أعفني من لحم الأرنب.

ـ إن كنتَ يا أبتِ لا ترغب في لحم الأرنب الذي نفضله أنا و(معاذ)، فلدينا حظيرة بجوار المعسكر فيها الخراف والماعز، فاخترْ ما شئتَ؛ تراه في الحال على النار.

ـ يا بُنيّ، أنا منذ سنين طوال لا آكل اللحم، وأقتاتُ التمر واللبن.

فقال القائد:

ـ لقد علمنا أنك تعيش وحدَكَ، فدعنا نقوم ببعض شرف خدمتك.

فقال العجوز:

ـ غير أن لا أحدَ يعيشُ معي يقوم على خدمتي، إلا أنَّ الجيران يتبادلون عليها أكثر ما إذا كان يعيش معي أحد، والناس الآن يضعون أشهى الأطعمة أمام منازلهم للمارَّة. ولا تُغلق الأبواب وهم نائمون. فلا بابَ موصدٌ في عهدكم.

ثم أمر القائدُ (يونس) بأن يُؤتَى بالتمر واللبن، ويوضعان أمام الشيخ، وقال:

ـ هل تأذن لنا يا شيخنا أن نقرأ عليك كلمات فيها من اللهجات القديمة، فتفسرِّها لنا؟

ـ تفضَّل يا بُنيّ.

٢

بدأ قائد الحفيظة يقرأ. يُسمع العجوز، ولم يكن في الورقة الأولى إلا سطر واحد:

يخِيْبُ رجا تدْري بهِ مَكْرَ مُعْتدي

إذا كُنْتَ مخْدوعًا، بِمَنْ أَنْتَ تهْتدي

ولكن سمع العجوز صوتًا آخر ما هو بالُمضجر، ولكنه يشبه مزمارًا من مزامير داود، ولسنا بعارفين ما مزامير داود. وإذ نرنو لذاك السحر يومًا. فإذا ما طربتْ شجًى أنفسُنا، قُلنا: هو ذاك. ولكنَّ هؤلاء النفر -كبقيَّتهم- يعلمون مزامير داود، ويعلمون خبر الأوَّلين وخبر الآخِرين، فكأنَّ قد تبدَّى لهم الغيبُ. فقال للقائد؛ مستفهمًا:

ـ ما هذا الصوت؟

ـ هم فوارس الطليعة يا أبتِ.

كان الصوت قد صدر من ساحة مستطيلة أشبه بملاعب الكرة الخماسية، تقع على يسار المعسكر في مدخله، وخلف هؤلاء الجلوس. صدر من عشرة فوارس يمارسون تدريباتهم الشاقة الصباحية، التي أصبحت عادة غير شاقة، ومن نعم الدنيا بعد صلاة الفجر بقليل.

والناظر إليهم يكاد يحسبهم رجلًا واحدًا، من تماثل حركاتهم، الذي وصل حد الالتئام، وفوق السور الُمحيط بهذه الساحة وقفت طيورٌ لا تظهر هويتها، تشبه

العقبان، وأنواع مختلفة من الجوارح، كأنها تُمتّع النظر بهم، وتُمتع الأذنَ بصيحاتِهم. تَرْقبُ بفوارغ الصبر ما يقدِّمه هؤلاء الفوارس طعامًا لها... إذا ما ركبوا تَنادى الطيرُ: هلمّ فاليومَ شُبَّعُ. إذ تطيرُ حيث كانوا، بل ودَّت لو تعرف وجهتهم لتسبقهم؛ إذ هم إذا ما جروا أَوَّبتْ معهم الجبال والطير. وخبط سنابك خيولهم على الأرض، كأنّه نبشٌ عن أيِّ دفينٍ من خبثٍ ماضٍ يفتكونه، حتى كأنَّ دوابَّ الأرض تمنّتْ وقعَ السنابك عليها من أجل ميتةٍ شريفةٍ.

ثم تابع القائد قراءته، وقرأ بعض اللهجات القديمة، وقاطعه العجوز قائلًا:

ـ هذه اللهجة سمعتها في مصر، ولقد ولدتُ بها.

هنا انتبه (معاذ) طاهي الأرنب، و(يونس) لكلام الشيخ، وسأله (معاذ):

ـ أولدتَ في مصر حقًّا يا أبتِ؟

ـ نعم، يا بُنيّ.

فقال (يونس) الفتى:

ـ اعذرني يا أبتِ، لقد ظننتُ، على عمرك هذا، أنك لم تبرح الشام قط.

ـ لقد هاجر أبي إلى مصر، في عصرٍ لم يكن لمثلكم وجود، كانت هجرة من أحداثٍ دامية، ولكنها لا تشبه دموية الأحداث الأخيرة بشيءٍ، والتي قمتم بها من أجلنا، وبعد السنة الأولى من هجرة أبي ولدتُ هناك، ثم رجعتُ إلى الشام أنا وأسرتي بعد ثمانية عشر عامًا.

ثم قال القائد مستبشرًا:

ـ وهذا خبرٌ جميلٌ يا أبتِ، أن تكون عشتَ بين أهل هذه اللهجة، وأيضًا تخبرنا عن بعض حياتهم.

ـ لقد عشتُ بينهم، ولكنَّ تربيتنا الشامية تمنعنا من التلاشي في أيِّ مجتمع آخر. وعلى كلٍّ، فقد عرفتُ عنهم الكثير، وذلك من صديق والدي المصري الذي كان حانقًا على جميع أهل بلده، حتى ظننتُ أنه غير مصري، سمعته مرة يقول لوالدي: (لقد فتحوا غُرف النوم في الطرقات، بل وصل الأمر إلى أن الزوج هو الذي يفتح للناس غرفة نومه). وعندما نهاه والدي عن سِباب الناس ولعنتهم، قال له: (لقد تركتُ لهم شيئًا في انتقادي).

فقال القائد:

ـ وهل كانوا أهل ترفٍ؟

، لماذا يا بُنيّ تقول هذا؟

ـ إذ لم يبقَ لهم إلا هذه الأفعال.

، لا يا بُنيّ، كانوا في كلِّ شيءٍ مُذلٍّ.

تبسّم (يونس) للقادِمَينِ أمامه؛ القُرشي والبصري، اللذين كانا منذ قليل يطوفان بعربة الإفطار على الحرّاس المحيطين بالمعسكر، فوق كتف أحدهما الأيسر تُرى كنانة السهام العالية، والتي يُشتهر صاحبها بأنه قادرٌ على قنص الذباب بسهامه من براعة تصويبه. كأنَّ على رأسِ سهمِهِ عينُ زرقاء اليمامة. فألقى صاحب الكنانة (سامر) على الجمع السلام. وعرفا كلاهما أمرَ الشيخ.

ولكنَّ الشيخَ ظل ناظرًا إلى الآخر، إلى (أوس)، فقال له:

ـ يُعجبني سمت حيائك يا ولدي.

فأجاب الشيخَ (سامرٌ) قائلًا:

ـ ولكنك لن تعرفه في حومة الوغى.

إن أهل المعسكر جميعًا يعرّفون (سامر) و(أوس) بالقرينَين. فاستكمل (سامر):

ـ لا يغرَّنّك رقته، إنه في الحروب حُمًّى أصابتْ وطيسَها، شَبّهَهُ الرَّاؤونَ بجناحِ ملكٍ يُصيبُ، يُفرِغُ من أمامه الطريقَ تاركًا أعلامًا من أشلائهم، تدلُّ عليهم، ثم يرجع من طريق آخر، وكلها طرق غير مُعبّدة، قد عبّدها بأجساد العِدَى... على أنه هو القائل: فما انسدلتْ يومًا عليه ملاءةٌ.

قال الشيخ تعليقًا على كلمة (أعلام):

ـ في صدر شبابي، كان لا يرفع علمَ بلاده في الشرفة، أو فوق سيارته في أيِّ بلد من بلاد الدنيا إلا صنفان؛ مَن يعبدُ مصلحتَه ونفسَه، أما الصنف الآخر فهم المغفَّلون الرعاع حطب المكائد.

ثم يتابع كلامه كأنَّ ما يستشعره بين هؤلاء الرجال من انمحاق الزيف هو الذي دفعه ليقول لهم:

ـ لقد عاصرتُ ما لم تعاصروه، في الحضارات المزعومة التي كانت تُساقط من ضعفاء الأنفس أنفسًا. والتي قلعتم أواخر رواسيها. لقد رأيتُ أن أيَّ مسلمٍ جاهلٍ عاميٍّ، هو أذكى عقلًا وأرمى رأيًا؛ ممَّن هو أشد ثقافة فيهم. قد كانوا

يقطعون أيَّ صلة بالإنسان منذ مولده بفطرته، ثم يعيدون تشكيل هذا الإنسان حسب ما كتبه غيرهم، وليس العيب في أن يعيد الإنسان تشكيل نفسه حسب كتاب كُتِبَ قبل مولده، وإنما الخطيئة الكبرى، أن الذي كتبَ الكتابَ قد فُعل معه مثل هذا المولود؛ أي: إنها أجيالٌ مبتورة الصلة بينها وبين فطرتها، تكتب لِمَنْ بُترت صلته بفطرته حديثًا: {لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ} . فتجد الإنسان يقتنع بشيءٍ معينٍ {وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا} .

فالكتب تكتظ بها المكتبات، ويراها الناس بأعين الحسرة أن فاتهم علمٌ كثيرٌ، وكانت نعمة أن فاتهم ما يزعمون، والأمثال لا حصر لها.

قال أحدهم مقالةً؛ إن من الأضرار على الطفل المولود أن يتم استحمامه بالماء في عامه الأول، ثم بعد سنين اكتشف هذا الذي زعم، أنه كان مُخطئًا، ومما لا ريب فيه؛ بين كل اكتشاف وبين اكتشاف خطأ هذا الاكتشاف؛ يُضل الألوف من الناس مشيًا وراء هذا الاستنتاج أو الاكتشاف الأوَّل.

أما المولود عندنا؛ فمجرد حديث يسمعه عن السابقين، حديث واحد؛ يلئم الروابط الكثيرة بين نفسه وبين فطرته، مجرَّد خطبة جُمعة وهو لم يقرأ كتابًا واحدًا، فإن الذي سمعه في الجُمعة يربطه بفطرته، ما من حرف إلا ويجمعه بفطرته، فكان الجاهل المجهول الذي يمشي في طرقنا هو أذكى عقلًا وقلبًا من صاحب مكتبة كبيرة يعيش في بلاد الحضارات؛ لأن كلَّ هذه المكتبة تقطِّع كلَّ ما يوصله خبرٌ واحدٌ في نفس الجاهل الأمي؛ بفطرته.

هم يبنون بنيانهم على الإنسان المولود على جزيرة مجهولة، ولكن البنيان عندنا تامٌّ من قبل النزول على الأرض، وما نسمعه من خبر الأولين إلا ليذكرنا بهذا التمام... كان الجميع من الغرب والشرق، يُقنِعونَ العربَ أنهم أمةٌ لا تقرأ، حتى المسلمون يردِّدون فيما بينهم هذا الزعم.

ولكن الحقيقة أنَّ هذا فيه من الخبث ما فيه؛ أن تقرأ ما يكتشفه الإنسان عن الإنسان، ولا تعي وتفهم ما قاله مَن خلقَ الإنسانَ عن الإنسان... كانوا كلما صعدوا بعلومهم اقتربوا من فوائد غشاء نواة التمر؛ اقتربوا من موضع بدايتنا...

إن خير دليل كان على هذا الكلام، أن العرب -وخاصة المسلمين- عاشوا أزمنة ما تركهم الغرب يفيقون إلى أنفسهم طرفة عين، ومع ذلك، تجدهم سريعي التحصيل لأيِّ علمٍ أو عملٍ إذا أُتِيحت لهم الظروف المهيَّأة، وتجد الغربيّ يعجب من العربيِّ في إدراكه لأشياء كثيرة مترابطة إذا اجتمع معه في عملٍ أو علمٍ. هو -أي الغربي- لا يعي أو يقوم إلا بشيءٍ واحدٍ فقط في بلاده الغربية من هذه الأشياء الكثيرة... كل هذا لا يتم إلا بربط الأواصر ببعضها... كان الأمر أشبه بسباق كبير مُقامٍ في بلاد الغرب، فتأهَّب العدّاؤون من جميع البلدان، وجاؤوا عند عدَّائي العرب، فوضعوا لهم مادَّةً تذهل العقل في مشربهم ومأكلهم، وأشواكًا في الطرقات، ثم طلبوا منهم أن يعدوا، ولكنهم غاصوا في ذهول عقولهم، والتُقِطت الصور تخلّد ذكرى فائزي الغرب؛ لتُميتَ جمهور

العرب كمدًا على ضعف قدرتهم...

أذكر تعليق صديق والدي المصريِّ على وباءٍ من الأوبئة التي اجتاحت العالم: (اضطرهم إلى نزع أجهزة التنفس الصناعي عن أفواه العجائز؛ لينقذوا قطةً انزلقتْ على قدمها اليسرى في كوكب عطارد)... لا أدري يا ولدي؛ ولكني مدركٌ أنكم من أصلاب... بل يُخيَّل لي أنكم سقطتم من السماء، كأنَّ كلكم روحُ رجلٍ واحدٍ، إني أراكم ذاك الفسطاط الذي لا نفاقَ فيه. أما هذه الأجيال السابقة، فقد قال صديق والدي عنهم: (إذا أردتَ أن تضلَّ الناسَ، فاطبعْ لهم كتابًا). كانوا إذا ما قرؤوا طُمستْ فطرتهم؛ فكانت النتائج أن خطابهم كان مُخنَّثًا، حتى لو كان كل الخطاب عن الرجولة والفحولة والمروءة والغيرة... إن الذي يُعوِّل على إدراك القرَّاء -فيما يقرؤونه- لم تكتمل فيه أركان أيّ موهبة؛ إنَّ الموهوبين لا يكتبون إلا لبعضهم. لقد ظنَّتِ الأجيال المغبونة أنَّ الصفوف تمايزت في عهدهم. هيهات هيهات. وقد جهلوا أن رؤية تمايز الصفوف تحتاج لقلوبٍ زكيةٍ...

كانوا يستمعون إلى الشيخ بنوع من الأسى والحسرة على أجدادهم (والله وحده يعلم أكانوا فعلًا أجدادهم، أم أن هؤلاء الرجال جاؤوا من الغيب؟).

فقال (سامر) لـ(أوس): اسمح لي أن أقول لهم ما أنشدتنيه أمس من الشعر. رغبةً منه أن يخفِّفَ ما شاب جلستهم من ذكريات كالحة. ولم ينتظر جوابًا من (أوس) حتى قال:

أوانسُ من حلمِ الحليمِ فناءُ

ويبْلِيْنَ ما كل البلاءِ بلاءُ

لعوبٌ مُراقٌ لرّدى من بشاشةٍ

وغنجٌ مساءً والصباحُ مساءُ

تداعى بضرّاءِ الشقيّ سماعُها

يزلُّ بأعناق الكروب غِناءُ

وكلُّ مريضٍ كاذبٌ عند طرْفِها

وليس صحيحًا لمْ يصبه شقاءُ

أرى رغدًا فوق البنان كأنَّه

يصبُّ على عقم الزمان رخاءُ

وأحْسبُ سقْمًا إذ تلوَّتْ بمشيِها

دعوتُ بجهلٍ أيَّ جهلٍ شفاءُ

يموجُ بعجْزٍ لِيْنُه فكأنّما

يموجُ بأطراف الوشاح هواءُ

يكادُ يُنسّيْها مُرادَ قيامِها

وتَسْأمُ، كلّا ما لذاك خفاءُ

فما انْسدلتْ يومًا عليه ملاءةٌ

كما، فوقه، عقَّ الخلودَ فناءُ

وبُهْتًا إذا ما تبصرُ العينُ ظلَّهُ

أَنوفًا كما ظِلُّ السّنامِ إباءُ

ولكني أُفضّل بيته:

إذا وَجَبَتْ رجَاحتهُ لأمْرٍ

فَأيْقظْهُ بِناعسةٍ لدُعْجِ

٣

لا يمكن الجزم بأنَّ عقل وخيال الشيخ قد اضطربا، لكن يمكن لنا القول بأنَّ إدارة الخواطر داخله كانت متداخلة ومتفكِّكة في آنٍ واحدٍ، فلا هو يعي أيعيش الحاضر أم يخاطب الماضي، ويمكن أن نُرجِع ذلك، غير عمره الكبير، إلى جلوسه فترات طويلة وحيدًا، نسى فيها أن الأرض يسكنها غيره؛ متعته الوحيدة التي ينتشي منها؛ يذلُّ الماضي على مشانق الحاضر.

كل ذلك في صرح خياله الذي هو والواقع سيان؛ إذ كأنه يرى الآن (عليّ) يلهو في ذات المربع الأخضر الذي يتدرب فيه الفرسان كأنه ملعب للكرة، ويرى (سامر) بقوسه يمرُّ خلال الناس التي كانت تعيش هنا في العصر القديم، ولكنه إذا حاول مد يده أو رفع قوسه، يتأكد أنه مجرد شبح قد أقحمه الشيخُ في خياله وأدخله الماضي.

حتى الذين التقاهم الشيخ في ماضيه وماتوا وفنوا، يتخيلهم يجلسون بين هؤلاء الفرسان الآن، وكأنه رأى شبحَ أحدهم من الذين فنوا؛ أبى أن تغيب ريح روحه عن الأرض إلا بعد أن تطوف بين هؤلاء الفرسان، يُذكّره هذا الشبحُ بما قاله قائد الحفيظة: **يخيْبُ رجا تدْري بهِ مَكْرَ مُعْتدي**...

الذي استدعى بدوره خواطرَ جمةً، كأنه كتاب مفتوح أمام عين الشيخ، قد قرأه قبل ذلك الوقت، ويعرفه معرفةً جيدةً...

«جهلوا عنّي كلَّ شيءٍ؛ جهلوا عنّي الوازعَ والباعثَ داخل نفسي تجاه كل شيء. واتهموني في كل شيءٍ... كيف يحيا الذي مع كلِّ موقف في حياته، كلّ حياته، هو مرمًى للدمار؟ كلُّ حدثٍ حتى لو كان حقيرًا؛ هو مواجهة حقيقية مع الانهيار.

وكلها مواقف، هي عند غيري كأنه يبصق في الطريق. كل موقف، الخروج منه سليمًا هو خلقٌ وانبعاثٌ جديدٌ كامل للحياة. ما أنا كمريضٍ علّته تسهل على قليل العلم فأعبدُه، إنما أنا أُبلَى بعللِ الغيبِ، تُعلِّقني أبدًا بباب؛ قُطعت الأسبابُ. فانظر أين وضعت من عللٍ...

واتهموني بضيق الأفق، وقلة الصبر على السماع، وإنِّي لَمِنْ خيرة السَّمّاعين...

راجعتُ نفسي مرارًا أُفتِّشُ فيها مُحاولًا الوصول إلى ماذا أنا أريدُ؟ وأفتِّشُ متى أوَّل مرة سألتُ نفسي هذا السؤال؟ فأيقنتُ أني ما سألتُ، وأيقنتُ أني ما حلمتُ أن أكون شيئًا في يوم من الأيام، أنا أحلم أن أكون أبعدَ نقطة في نفسي حتى قبل مماتي بثوانٍ.

وليس لمعنًى في الوجود أن يطرقَ -طارئًا- خاطري، وإنما حياتي كلها ودقيق تفاصيلها، هي الطارئة على المعنى الحاضر في ذهني، تنتزعُني وما أنا بِمُنْتزعٍ.

إنني قد علمتُ سرًّا في نفسي عن خروج الفكرة من روحي. هل رأيتَ مشهدَ الحجيج عند رميهم إبليس بالجمرات؟ لو تأملتهم عند دخولك في المرة الأولى، لأيقنتَ أنك غير واصلٍ إلى مرمى الملعون، ولكن من تدافعهم العشوائي الدائم

بعضهم بعضًا؛ تنفرج الفراغات اتساعًا بينهم، وأمامك أيضًا، حتى تجد نفسك في مواجهة مع المرجوم بلا عائقٍ. كذلك هي الأفكار والمعاني في نفسي، تتدافع فيما بينها، حتى ينفرج لواحدٍ سعيدٍ منها... علمتُ أن المعنى ينسلخ مني عند الاضطراب. وإذا كان هو مُعقّدًا فلأنه قد احتكَّ بإخوته من معانٍ قبل المواجهة.

عشتُ داخل نفسي وحدها فترات يصعب عليها التأقلم بعد ذلك على أيِّ وضع في الحياة. حتى ظن الكثير أنني متُّ، أو سافرتُ لأرض يعزُّ منها الإيابُ. فإذا ما عصفتْ بها أمور الدنيا، فلا تلين بل تنكسر، وتُجبر بعدها في لحظتها، فأنا أبدًا مكسورٌ مجبورٌ، كلاهما في طرفة عين.

ولم تجد الدنيا مداخلَ لها عندي، فكأني جسمٌ صلبٌ غُمِرَ في الماء، يبلله ولا يتغلغله. ولا بدَّ للحياة من حولي أن تتَّخذَ هي الأشكال والمنحنيات البارزة من شخصيتي حتى نتأقلم معًا، وإلا فسنظل في صراعات مع أدق الأمور خفية عن جميع الناس...

حتى أصبح كلامي وكلامهم، كأننا لا نسمع بعضنا، أو كأننا نتحدث من خلف زجاج يشوِّش تلك الكلمات، أو كأنِّي أتحدث من عالَم وهم في عالَم آخر، وبين هذين العالمين فُقِدَ الترجمان. كل هذا لأن الحاكم الأول والأخير في رؤيتي لهذه الحياة قد تكوَّن بمعزل عن الحياة.

أَبى الشيءُ المبتورُ عليَّ امتلاكَه إلا على مَرْكَبٍ وَعْرٍ؛ لا أحصل على الشيء

البسيط الذي أريده، إلا بعد أن أغرق في ابتسامة جبروت البائع الخطأ، أو الذي لا يفهم ما الذي أريده تحديدًا. أو بعد اتصالات منّي بذوي الخبرة في هذا الشيء، فيخبروني ما أسهل الحصول عمّا سألتهم عنه، بعد عجبهم من سؤالي عن مثل هذا التافه، ظانِّين أني شربتُ ما أفقدني وعيي لأسألهم عن هذا، أو أن الشيء لم يعد يُنتَج بعد الآن، أو أن البائع الفريد الذي كان يملكه أفلس. أو أن الشيء أصبح بمكونات مختلفة عمّا اشتراه أهل الأرض جميعًا.

فلو قمتُ باختبارات ميدانية بعمل إعلان من كل نوع عرفه الإنسان: ابحث معي يا إنسان لأخيك الإنسان. فسألقى سخرية كسخرية تقع على مَن هو لا يعرف استخدام الحمام. ولكني أجده في النهاية فرحًا بعد شراء الأشياء المشابهة العديدة من مواضع شتى تقل عنه...

فأبدأ أستمتع بشيءٍ قد استمتع به أهل الأرض جميعًا منذ عشر سنوات، ولم يعلموا أن في هذا الشيء البسيط متعة لا يضاهيها متع الدنيا كلها عند إنسان يبحث عنه، وهو في كل مكان عدا خطواته المعدودة. والذي يقسمون عليه أنه إنسان غير طموح؛ إذ يستمتع بمثل هذا الشيء الحقير...

كان يحتاج إلى واسطة ليتقرَّبَ إليَّ، وما هذا بِتكَبُّرٍ منّي، ولكنَّ انغلاقي الشديد قد خيَّل لهم الأوهامَ. فلمَّا فاز بواسطته، كان كعبدٍ لي في طوع سيدِه، ولقد ضجرتُ من العبيد، ولم تنفعني كثرة عِصِيي، إنما حاجتي المستميتة إلى الأنداد. وأنَّى هُم؟

قد يحاول المرء التطبُّعَ بطباعٍ غريبةٍ عنه، وكلٌّ على قدر نارِ دافعِه في الاستمرار، ولكن جميعهم عند حدثٍ ما؛ كزواجٍ، أو امتلاء فراغِه النفسي بالمال، أو عمل عالٍ له من الوجاهة نصيبٌ، أو عند مرحلة عمرية؛ لا محالةَ، الكل راجعٌ إلى أصل طبائعه دون خداع... يظل ذو البطن يخفي حجم بطنه حتى يصل لذروته التحمُّليّة، فيطلق لكرشه البراح مواجهًا العَالَمَ...

كذلك كان (كامل) معي. حدثتْ له الأحداث. فانقلبَ على عَقِبيْهِ، وأصبح يذمُّ الذي كان يمدحه. أصبح يذمُّ كلَّ ما كان يمجِّده؛ لأني أحبه أو أميل إليه. حتى لو كانت أغنية، أو محل ملابس، أو حتى طريقة إلقاء كلمة. كل شيءٍ قلبَهُ لذمٍّ بعد مديحٍ. كان يمدح الشيءَ، ليس لذاته، وإنما لسببين حسب ما أوهمه عقله: رأى في هذا الشيء المثل الكامل لنوعه؛ لأنه المفضل لي، والثاني: هو عين التقرّب مني... ثم هو يريد أن يمحي كل الماضي؛ لأنه ظنَّ أن حاضره أكسبه ما قد يوازيني، أو أعطاه بعضًا من نفسٍ.

عارٌ أن يغبّرَ الماضي صفاءَ الحاضرِ الجديدِ لدى العديد والعديد. على أني لا أملك شيئًا ممّا هو عنده. ولا أنا يومًا كنتُ في حاجةٍ لأحدٍ أن يمجّدَ شيئًا أحبُّه. أو يرد إليَّ بضاعتي... إنَّ الذي يفرح بالنُّسخِ المنسوخةِ منه، لهو نسخةٌ لا أصلَ لها.

خلال الليلة الواحدة، كتلك الليلة التي أنا فيها، يدور في نفسي ملايين الأفكار والمعاني، ولكن دائمًا يكون معنى أساسي طرَّاقًا كل حينٍ، يقطع تسلسل سيل

المعاني، وينتفض له حنايا صدري انتفاضًا. هذا ما يشغلني وينكِّد عليَّ الليالي كلها في تلك الفترة، بل فترة طويلة من عمري؛ الأذى من دون دليلٍ على الأذى. لديه فنٌّ فريدٌ في إيذائي؛ ومن أدوات التأذي بلا دليلٍ؛ إيماءةٌ خاطفةٌ، أو نظرةُ حقدٍ لا يراها غيري، أو كلمةٌ خبيثةٌ لا يفهم مرادها غيري إلا ناطقها الذي يقصدني...

لا ينفكُّ (كامل) عن نثْرِ الترابِ في دمي، أعيش الماضي كله مرة أخرى عند رؤيته، والغلبة للآلام وليس للأوقات السعيدة. ما أكثر الأيام التي قطعتُ فيها ليالي السَّمر فُجاءةً، وتركتُ أصحابي لائذًا إلى حجرتي حاد الاكتئاب، تحرقني مشاعر مُبهمة لا أدري كُنهها، وعَجبَ الأصحابُ مني؛ لأني أتركهم وأنا عَكِرُ المزاج بغير سببٍ، وأظل الليل نكدًا حزنًا محروق الفؤاد دون سببٍ أعرفه، ثم يتضح لي في اليوم الذي يليه أو في غده، أنها إشارةٌ أو كلمةٌ قد قِيلت من (كامل) كنَى بها عمَّا يضمره ضميره. أهذا الذي كان عبدي وأنِفْتُ له عِبادته إيايَ، فإنَّا سيّان، وقهرتُ جهدي كله في تحريره، فاستعصى؟ أفهمتَ أن التحرر هو تمردك على معبودك؟

لطالما شاركته في سفاهته، أذودُ عنه لوم اللائمِ. لو كان غباؤُه مالًا أو جاهًا؛ ما كنتُ قد سعيتُ إليهما كما سعيتُ في السقوط معه؛ لأرفعَ عنه الخجل بالجهل أمامي، وأمام غيري. لقد كنتُ معه كما قال القائل:

أُشـاركُــهُ فـي جَـهْـلِـهِ ذاهـبًا معًا ... إلـى حَـرجٍ لـم يـدْرِ طـبْـعَ تَـوَدُّدي
فليس الذي تلقى إليكَ تواضعًا ... طويتُ الذي حِرْصًا متى يُبْدَ تُحْدَدِ

لم أجد أضعف من الذين إذا اعتقدوا شيئًا، سواء كان الشيء ثم نقيضه، لا يفتر لهم دأبٌ، ولا يطرف لهم جفنٌ في إرغام الناس أن الذي يعتقدونه؛ هو الشيء الأمثل على الإطلاق. ولكن إذا ما أبصرنا قليلًا، وجدتهم لا يعنيهم أن الناس ترى أن هذا الشيء هو الأمثل، إنما الذي يعنيهم أبدًا هو أنفسهم أولًا وأخيرًا؛ إذ إن محاولة إقناع الناس بالشيء ثم نقيضه؛ هو أشبه بتغيير أوزان مكاييل الميزان ذاته، وليس مقدار الشيء الذي يُوزن.

تغيير القواعد كلها من أجل توافقها مع رغبة واحدة. تغيير أشياء داخل نفوس آلاف البشر؛ لتتلاءم مع التغيير الحاصل داخل نفس واحدة. إنها نفسٌ لا شيءَ في الدنيا كلها تخشاه كما تخشى الانتقاد، بل إنها لا تقبل الانتقاد حتى من الوحي. فما الحل؟ إذا كان نقيض الشر هو الخير؟ إذن لا غبار عند إقناع الناس بالخير. لكن ليست المسألة هنا بهذا الشكل لهذه النفس، وإنما هي نفسٌ مستقرةٌ ثابتةٌ على مبدأٍ واحدٍ: (ما أنا سأكون عليه فهو الخير، حتى لو كان للخير عشرة وجوه، فأنا على الوجه الأشد خيرًا عن غيري من الوجوه، إن لم تكن الوجوه الأخرى خيرًا زائفًا).

إن النفوس التي ليست على شيءٍ؛ هي أوْهن من بيوت العنكبوت عند سماع وَهمِ -أو صدى، أو اشتباه- انتقاد... {يحسبون كل صيحة عليهم}.

ولكن ما يدرون عني أن قلبي يقلّبُ جنبات نفسي كلها في كل لفظةٍ تسمعها أذني؛ إذ يجلب كل ما يتعلق بتلك اللفظة من أشخاصٍ ومعانٍ. بل وكل المشاعر المتباينة، وحالاتي النفسية المختلفة مع هذا التباين لتلك المشاعر حين مرَّت عليَّ في سماع تلك اللفظة في كل ما مر من عمري. اتهموني بقلة الصبر الذي هو عندي طوى الزمن طيًّا بحدثانه وما يدرون. وأيُّ صبرٍ مثل هذا الصبر على تلك التهلكة؟ وأيُّ أُفقٍ رحْب ساخت فيه الآفاق؟ وكان جَلَدِي وبالًا يرونه عدمَ ابتلاء.

ما لعقلي المجنون؛ يشعر في الصخب والضوضاء كأنه في رحلةٍ بعد طول انطواء، والذين يلتقون بي حينها ممن يعرفوني يتعجبون من شعوري هذا؛ إذ هم لا يعرفون العيش إلا في تلك الضوضاء، مع أنهم يتزمَّرون منها، وهم لا يقدرون على البعد عنها ساعة واحدة؛ إذ سيكونون في مواجهة مع أنفسهم. أما أنا ونفسي؛ كأنَّنَا طالنَا بعض الملل، فأرْمي بي وبها في تلك الضوضاء، وسرعان ما يُعشي رؤيتي السأمُ، ويُغبّر صفاءَ رحلتي عَجاجُ المللِ، فيشتعل الاشتياق واللهفة للانفراد بنفسي مرة أخرى؛ اللذان يؤذنان باجتماعٍ كبيرٍ قد يطول كثيرًا بعيدًا عن تلك الضوضاء.

فتلك الفترة التي أكون فيها بين خضم الصخب هي فترة دلال؛ أتدلّلُ على نفسي مثلما تتدلَّل عليَّ في مواعدة عاشقين؛ لنرجع معًا نتشكّى الهجران وآلامه.

ما ألذّ شكوى الهجران لدى الأخلَّة، فتذكُّر آلامه بعد الوصال هو نوع من التخدير. إن كل صوتٍ ولفتةٍ وإشارةٍ ووجهٍ أسمعه أو أراه في الطريق ينفذ مخترقًا كل الحواجز إلى روحي؛ فأصِلُ إلى ظنٍّ؛ هو أن الذين في طريقي يؤدون مسرحية، والكل يتقن دوره ببلادة المشاعر المتكررة داخل الأدوار المحفوظة. حتى سقوط ورقة من أحدهم. وأنا غافلٌ مررتُ بينهم بروح بِكْرٍ، ولم يخبروني لما رأوني، واستمروا في أنفسهم ساخرين، وليختبروا مدى قدرتي وتحملي لينفجروا ضاحكين.

كل نزول لي إلى الشارع هو أشبه برحلة، وممَّن صادفت في رحلتي الأخيرة منذ ساعات سيدة المغامرة...

كان ما يميز سيدة البلوزة الزرقاء والجيبة الفضفاضة السوداء والطرحة باللون الأصفر الحمصي المشجر، الملفوفة مرارًا حول الرأس بدون التصاق، والتي ظهرت كطبقات فوق بعضها يتحامى فيها وجهها؛ مشيتها البطيئة الهادئة؛ التي كادت تكون متهالكة من جهد مضنٍ، على قدمين لا تلامس أصابعهما الأرض. أما الكعبان، فكأن لمستهما الأرض قُبلةُ طفلٍ رقيقٍ. هي تمشي فقط بأخمص القدمين، لا أدري كيف؟ غير أن ليونتها تنبذ قوانين الطبيعة. لكني على بصيرةٍ أنها لم تبذل جهدًا مضنيًا لتمشي تلك المشية، هذه إذا ما مشتْ فترة قصيرة من الزمن في الطريق، تداعتْ ليونتها، وسئمتْ ادِّعاء تماسكها. كفتاةٍ في الجامعة

مرتْ بيومٍ عصيبٍ طويلٍ، وإذا بها وهي في طريقها للمنزل كادتْ تفترش الطريق وتنام. غير أن الصخب المبثوث في الطرقات يؤرِّق رقتَها.

والشيءُ الثاني الذي أشعرني أنني أرى أنثى حقيقية، قلَّما أراه، وقفتْ على جانب الطريق تنتظر -بسذاجة مُنعشة- وقوفَ السيارات التي لم تكن سريعة. (كطفلٍ أمه على الجانب الآخر، يشتاق لها، وهي تقوم بتدريبه على الوثوب الأول في حياته بعد الزحف، وفي قرارة نفس الطفل تناقض يمزقه؛ بين أن يدفن نفسه في حضنها، يلوذ به من أنين الضجيج إلى الأبد، وبين أنه يريد أن يقول لأمه بعد المحاولات اليائسة السابقة: الآن يا أمي سأفعلها)، بل تلك السرعة هي التي فيها يجبر المارة السيارات على الوقوف، أو المرور بصورة عادية. أنثى بحق؛ هي التي تنزعج من أي شيءٍ في الطريق. كأنها أول مرة تمر على اختبار مرور الطريق عبر السيارات، هذا الاختبار الذي تستشعره كل يومٍ كأنّه اختبار غير السابق. أشعرتني بحق أنها في حياتها السابقة كلها كانت تسمع عن المرور -عبر الطرقات- في الروايات فقط، وزجّوا بها رغمًا عنها في المغامرة، لأول مرة. سيدة المغامرة.

وحيرني هذا السر؛ هذا الفرق بين الرجال والنساء، ومع أني على يقين أن ليس هناك فرق بين الرجال والنساء. أي أن كلمة (فرق) خطأ؛ هذا كائنٌ وذاك آخر، ليس هناك بينهما تشابه. هذا جنس، ولولا ذاك الجنس ما عشنا في الحياة.

كان الفرق يتمثل في المطر، وتحديدًا في مخلفات المطر في الشوارع.

تبص يا أخوية على أحذية الرجال والشباب تلاقي طينة، أيوا هي طينة. طينة والنعمة طينة. طينة مطينة بطين. وأبص على النساء والفتيات مع إن الأغلبية بيلبسوا كوتشي أبيض. مابشوفش الطينة خالص. سبحان الله. يمكن كلهم لسه نازلين من بيوتهم دلوقتي؟ معرفش. بس لأ مش معقولة كل دول لسه نازلين دلوقتي. بس مش طينة خالص. كأنها بعثرة من فرشة أتقن الفنانين، فصارت فتنة عبثية. حتى الطينة فنٌّ عندهم وسحرٌ.

أنا تَعسٌ؛ إنَّ لي نفسًا ترى في أبسط الأشياء بهنَّ أصدق الفنون.

من أين يُشترى هذا الوفاء الكلابي؟ أين يباع وفاء الكلاب؟ أريد شراء بغلين؛ إذا قلتُ حرفًا أو بصقت عليهما يقولان: (رضي الله عنك يا مولانا) (تَقْذف قذائف الحق).

أكثر ما يكون الإنسان مُكبَّلًا، حين يُطلَبُ منه الانزواء في جزءٍ بين أجزاء صورةٍ جامدًا، ولا يحق له أن يسأل عن وضعه في هذه الصورة، أو مَن سيكون معه في أجزائها الأخرى، ليس له أي خيارٍ غير البقاء فيها كصخرة لا تُبدي أيَّ رأيٍ أو تذمرٍ، أو تتقلب حتى، وإن غاب عن الصورة؛ فستنصبُّ عليه اللعنات ممَّن أراده جامدًا فيها.

لا يسأل: لماذا هذا هنا؟ ولماذا هذا يغيب؟ ولماذا هذا لهذا؟ كحضور عقد عمل أو زواج. فلا يحق لك أن تتذمر من أطراف هذه الزيجة، أو المدعوّين، أو نوع الأكل، أو قاعة الأفراح، ولكن إذا اعترضتَ على شيءٍ، فأنت محرومٌ من

المعاملة الحسنة. مطرودٌ من الصورة. هم يضعونك وينزعونك منها بناءً على رغباتهم.

هو ابن عمي الغضوب؛ ولكن العلاقة بيننا ليست في تواصل دائم، فإذا لم أره، لا أسأل عنه، وهو كذلك يفعل معي. وإذا ما التقينا قرّبتنا قرابتنا.

إن راحتي في بيت العائلة المهجور. أتحسّسُ مواضع الراحلين، سواء وُجدتِ الأسبابُ الظاهرة أو الخفية في الانعزال عن الأهل والناس، أو انعدمتْ؛ فلا أتأخر، أستمتع وحيدًا في بيت الأقدمين.

بينه وبين أبيه من المشاكل ما لا يُحصى، فأراه كثيرًا يشاركني بيت جدتي العريقة - رحمها الله- إن من سحر هذه الجدة أن كل حفيدٍ -مع كثرتهم- يعتقد أنها تُحابيه عن غيره. لم أره منذ أيام. وفي غياب (فؤاد) حدثتْ أمورٌ كثيرة؛ تقدَّمَ (أبو المنذر) لِخطبة ابنة خال (فؤاد)، وقام بالرؤية الشرعية، والتي يعتبرها الأخير زوجته المستقبلية. لا أدري كيف يعتبرها كذلك، أو ما الذي دار قديمًا في هذه العائلة عن هذه الزيجة. لا أدري غير شيءٍ واحدٍ... إني أُعالج نفسي... مع أن معرفتي بـ (أبي المنذر) حديثة عهدٍ، على أنها أصبحت في ذِمَامٍ عتيدٍ، وكلها إفراط تام في مراعاة أدق مسالك الأحاسيس رهافةً، حتى مراعاة قوة خروج الهواء من الفم لكل حرفٍ.

ومن دون علمه، أستعير بعض تراكيبه اللفظية؛ فهو مرحلةٌ مهمةٌ لأي إنسان، حتى لو كانت لبضع دقائق، وهو الذي لا تُردُّ له صَبوةٌ، وليس لكلامه حصانة،

ولم يكن طول صمته ودقة ألفاظه إذا تكلم، هما سر جاذبيته، وإنما يُسمعك صمته ضجيجًا في الصدور، تحتار فيه الظنون.

آخر ما سمعتُ منه بالأمس حول أمر خِطبته: (الغيرة لا تسقط بالتقادم، حتى على ما مر بكِ قبل لقيانا، ومن الغيارين غيّارٌ يغارُ على الحديث عن غَيرتِه؛ فما أكثر ما سكتَ عنه)... فأنا اليومَ مدعو إلى خِطبته.

وأيامٌ طوالٌ قد تظل ساكنةً دون ميعادٍ واحدٍ. وشَرَدَ عنّي هاتفي الصموت. وأنسى كيف يُخاطب الناس، وفي يومٍ واحدٍ يصبح الهاتف ضرَّابًا في ضرب المواعيد.

لطالما فرح اليأسُ منّي: (كيف ستقوم باكرًا أو غير باكرٍ لأي عملٍ بعد سحقي إياك يا صُحْبتي، بعد أن زجَجْت بك في الأفكار كلها دفعةً واحدةً، أنت منزوع القوى، خائرٌ، فلا تستكبرْ، تكبّرْ على مَن شِئتَ غيري. أنت أعجز من أن تتحمل أول ما تُلقيه عليك ملامح أول شخصٍ تلقاه. ستسمع ابتساماتي عند أنينك. أنا المرابط الأبدي على أحاسيسك وأفكارك. لا بد لك من الصحو - وثغرات نفسك كلها على مصراعيها، لا تخفْ، سأملأُ عليك ثغراتك- كالجميع، تنغمس فيهم جميعًا، لا بدَّ أن تتعامل معهم كما يعاملون أنفسهم، رغم أنفك العنيد، وأن تتفانى ذرات روحك فيهم، فَرِحْتَ طوال الليل بلذة عذاب مشاعرك؟ إذنْ، ذُقْ حلاوةَ انتهاء عذابك، كنتَ مِلْكَ نفسك وأنت بين معانيك وأفكارك. أما الآن، فأنتَ ملكي وحدي، وأنت بين الجميع. أنا الذي أجعلك

كطفلٍ حين تتعامل مع تفاصيل تلك الحياة؛ لقد انتفعتُ كثيرًا من البون الشاسع بين ما يدور في خلدك، وبين الحياة الخارجية عنك، وجعلتُكَ كطفلٍ حين يروِّعه الانتقال بين عالمين. أنا لا أذهب عنك إلا وأنت ذليل القوى؛ لِتلومَ نفسك أنك المسؤول الوحيد في أنك غير قادر على الحراك، وغير قادر حتى على النوم، النوم الذي ما أحيل دونك ودونه إلا بعد انهيارك، والذي أجعله يحلو في عينك قُبيل أن يخطر في خاطرك أنك لا بد أن تتعامل معهم، أو لا بد لك القيام بأحقر المهام).

ليس في الأمر أي مبالغة. خمس عجائز قضيت معهنَّ العصر الذهبي من مطلع شبابي.

يا له من شقاء، يا لها من معاناة أُلقي بها مع فتح هذا الباب، ألهذا الحد هانت عليَّ نفسي، فأعذبها؟ إن الخروج من هذا الباب هو رحلة امتصاص الحياة. أمشي في طريقي كعارٍ تمامًا بين أعين الجميع.

يا إلهي، من هذا الباب، باب الجحيم، أين تُباع الطاقتان اللتان يتحملون بهما الخروج من هذا الباب يوميًّا، وممارسة نفس الطقوس والعادات، حتى عدد الخطوات؛ طاقتا الأحقاد والمؤامرات. ومَن يداوم على العمل لديه التوازن العظيم بين هاتين الطاقتين، أو البرود، أو العقاقير المسافرة إلى أرض القمر؛ ليرى العلم الأمريكي؛ لأن العلم الأمريكي لا تراه إلا بالعقاقير.

أُكلتْ عزيمة محروم الطاقات من صد الأحقاد فقط، دون الدخول في حلبتها، وتبيَّنَ له أن الذي يجعلهم قادرين على الاستمرار هو الطاقة المتولدة من الأحقاد ذاتها (فيرجع حجرته يضرب البانجو وحيدًا، لا يشاركه أحدٌ جوانه مستعذبًا عرنوسه. فجعل ينفث وينفث حتى تكدَّست سحابةٌ تساقط منها فضاء أرض الموعد في حجرته، تطُفْنَ من حوله عذارى الأرض -يطُفْنَ حول كعبتهنَّ).

هكذا أكون خلف هذا الباب: هل حاولتَ يومًا تخيُّل شعور يونس -عليه السلام- حين لُفِظَ من إنزيمات جوف الحوت؟ كان من غير جلدٍ، فإذا كان الجسد، كساه جلده، يرتجف من غير غطاء في البرد، فإني كجسد يونس -عليه السلام- تمزقني الخاطرة، الفكرة، قبل النظرة، قبل الهواء، قبل أيِّ طائر دقيق يقف على جسدي، قبل الريح العاصف... وليست خاطرة ولا فكرة دارت في عقلي، وإنما دارتْ في عقلٍ غائبٍ عنّي... ليس من ضعفٍ ولا انعدام ثقةٍ، ولكنها طبيعة الإنسان المتقشّر.

ـ انت كنت فين اليومين اللي فاتوا؟

ـ في الإسماعيلية.

ـ وكنت قاعد فين في الإسماعيلية؟

ـ كنت ساكن فيها قبل كدا، وواخد أوضة تحت السطوح.

ـ تحت السطوح؟... قصدك فوق السطوح.

ـ لأ. تحت. جنب الجراج.

ـ أستغفر الله العظيم. فؤاد، أنا مش فايقلك. أنت أكبر من قدراتي. عايز إيه دلوقتي؟

فأشاح بيده اليمنى، ومال برأسه إلى الأرض، وهو يرجع خطوة إلى الخلف، وقال:

ـ ماشي يا عم، ماشي...

فقلتُ:

ـ يا سيدي... ما تزعلش. عايز إيه؟

ـ متنساش الموضوع اللي قولتلك عليه؟

ـ موضوع إيه؟

كنتُ أعلم ما يريد، وأعلم ما يجهله هو عن ذاك الموضوع، ولكنِّي كنتُ أتغابى.

فنظرَ إليَّ نظرةَ طفلٍ حقيقيٍّ، وقال:

ـ خلاص.

ـ ماشي. افتكرت. بس أنا برضو بقولك: دي منتقبة، ولها نظام تاني يعني.

ـ يعني إيه، أنا منفعش؟

ـ يا سيدي، أنت تنفع بنت الباشا. ودي مش بنت باشا.

ـ يا عم، أنا بحب بنات الشعب. أنا عايز أزيل الطبقيَّة، بمناسبة الطبقيَّة، أنا كنت سايب طبق هناع السلم قبل ما أسافر.

ـ انت بتسأل على طبق بقالو ١٥ يوم؟

ـ أيوا عزيز عليا. تذكار. وبعدين أعظم انتظار للدنيا عليك، هو إنها تنسيك إيه اللي بيفرحك. وأنا مش عايز أنسى الطبق دا.

شعرتُ أني في مأزق. قد ألقيتُ بالطبق في القمامة بعد ما سرى فيه الدود.

ـ هنشوف موضوع الطبق دا بعدين. تذكار منين؟

ـ جايلي هدية من ناس كدا في عيد ميلادي. مكتوب عليه اسمي.

ـ طيب، احنا عايزين نفتح صفحة جديدة. ومَطبقيّة جديدة من عند خطيبتك إن شاء الله. وانسَ موضوع الطبق.

ـ يا عم، أنسى إيه.

فلم يرضخ (فؤاد) لمحاولاتي في نسيان طبقه اللعين.

ـ أنت كنت حاطه على السلم ليه؟

ـ كنت حاطط أكل للسلحفة.

ـ لا إله إلا الله... وكمان في سلحفة عايشة معانا وأنا معرفش. يا فؤاد، الكهربا هنا زي الزفت، واللمبات اللي موجودة في السوق كلها فيمنست، ومفيش لمبة فيمنست بتعمَّر. وممكن حد يدوس عليها. هي دي كمان تذكار؟

ـ لأ. أصلي قرأت مقال كدا؛ إني ممكن أربي حيوان استعدادًا للأبوة.

ـ فؤاد، أنت شارب؟

ـ يا عم، بطلت من أول ما فكَّرت في موضوع الخطوبة.

ـ طب ارجع اشرب تاني.

ـ ...

ـ يا دي النيلة... يا عم فؤش. أبوبة إيه وأنبوبة إيه دلوقتي، واحنا لسه ماشفناش موضوع الخطوبة. ارسَ كدا وحاول تركز علشان ربنا يكرمنا في الخطوبة.

ـ لازم أبوها يجوزهالي.

ـ تقصد علشان موضوع الورث.

ـ آه.

ـ طب إيه رأيك بقى، السلحفة بتاكل خس، ولقيت في الطبق سردين.

ـ ما أنا عارف. بس ملقتش خس. أسيبها جعانة يعني؟

ـ فؤاد. هي السلحفة ازاي هتطلع ع السلم؟

ـ كنت حاطط رجلي ع السلم اربط رباط الكوتشي ونسيته وسافرت.

ـ احنا عايشين ازاي مع بعض؟ ما تصالح أبوك... فؤاد. ممكن تساعدني؟

وبإحساس الوطنية التليفزيوني لقناة النيل للمنوَّعات في (فقرة عايزنها تبقى خاضرة) قال:

ـ احنا عايشين مع بعض، ولازم نساعد بعض طبعًا. وأنا أفديك بروحي.

ـ اديني فرصة. فرصة واحدة. أتعاطف معاك فيها... وبعدين إيه اللي أنت عامله في شعرك دا؟ جايب شعرك على جنب. أنت بتشتغلني؟

ـ بحاول أتغير علشان هخطب.

ـ إيه اللي أنت ماسكه دا؟

ـ كتاب. أنت ليه محسسني إني جاهل، أنا آداب برضو، وعارف من الأدب...

ـ خلاص خلاص، عارف إنك عارف (المتجردة)، و(أضاعوني)، و(فَسُلّي ثِيابي مِن ثِيابِكِ). هو أنت بتقول غيرهم. سلام.

ثم رجعتُ قائلًا:

ـ فؤاد. معلش. أنت لابس بنص كُم ازاي؟ يا راجل دا أنت بتلبس جاكيت في الصيف والشتا نص. إزاي طيب؟

فأمسك بيده اليسرى كُمَّ اليمين يشدّه إلى الأسفل، ولم يعقِّب على كلامي.

كلما نظرتُ إلى (فؤاد) تذكرتُ حوارًا دار بين أبيه وبين أحد أفراد العائلة الحصيف؛ إذ يقول أبوه يصف ولدَه: (سيّحَ الصدقَ في زبدةِ الكذبِ في طاسةِ الخداعِ على نارِ المكرِ من بوتجازِ التدليسِ موصلًا بغازِ التنويمِ المغناطيسي).

وردَّ الحصيفُ -ولا أدري أكان يدافع عن (فؤاد)؛ ليحن قلب الوالد عليه أم كان يؤكد كلام الوالد نفسه: (انشغل الخلق في تفسير التراث العالمي، وأدبيات العباقرة، في (الصراع بين الخير والشر). و(البحث عن الحقيقة). وبجملة واحدة فقط، تخرج من فم (فؤاد) تعجن كل هذا التراث بخميرة الإبداع، تُظهر أنه ما زال لهذا العالم الكثير من التجارب، تجعل العالم كله يظهر أمام نفسه أنه ساذج).

لقد انفصل (فؤاد) منذ طفولته عن الحقائق كلها. وليس هذا بسبب حادثة فريدة من نوعها قد نقلتْ فص عقله الأيمن مكان الفص الأيسر، ولكنها ببساطة طبيعة (فؤاد)، تحتاج أن تغوص، ثم تغوص -ولن ترجع- في بحور متلاطمة؛ لتدرك الغاية من كلامه. لكنه لا يخلو من طيبة؛ هي لحظة عجز النفس عن تفسير مراده، حينها يخيل إليك أنه إنسان خالٍ من الضغائن.

تلك اللحظة تكون فيها بدون انطباعات، أو مشاعر، أو لم يتم استدعاء شرٍّ أو خيرٍ في نفسك، فتقوم بطيبة قلبك بتغليب الخير، حتى لا تظل تائهًا شاردًا في هذا الفراغ النفسي دون انطباعات. ويا ليته يكذب في أشياء تستحق الكذب، إنما للكذب لذة مفرطة. فكان مثل أولئك الذين يقنعون الناس بأنهم مصابون بشيءٍ ما، وهو سليمٌ صحيحٌ، كإنسانٍ يقول: (أنا لا أسمع)، أو كمَن يقول: (أنا نظري ضعيف)...

ومردُّ كل هذا إلى النشأة القاسية، فكان هذا الادعاء المرضي يجلب له بعض الاهتمام المحروم منه من جانب والده. ولكن هذا الوالد نمّى وقوّى كذبه، حتى لا يستطيع العيش دون هذا الكذب، أو دون إحساس الاضطهاد الذي يستشعره من الآخرين حين يكذب عليهم. وهو إحساس آخر؛ ما بعد مرحلة الكذب، ذو لذة عجيبة. فينقسم الناس إلى نوعين في أمره: النوع الأول -وهو الأغلبية- يصدقون قوله بأنه لا يسمع أو نظره ضعيف. والنوع الثاني -وهم

القلة- مقتنعون أنه يسمع ما يريد أن يعلق عليه، ويدعي عدم السمع لغيره من الكلام، أو أنه يرى ما يريد أن يراه.

هو كالطفل حقًّا، يريد الرعاية؛ الذي يقوله لأمه: (ماما أنا بطني بتوجعني). ولم يكن في بطنه أي شيءٍ، ولكنه يحتاج إلى بعض الدلال.

لو كان هذا الطفل شعر أن والده يشعره بأنه يقول الصدق -حتى ولو كان والده يخدعه- لكان الطفل -وإن كان يكذب- قلَّل هذا الكذب، أو انتهى عنه؛ نتيجة تأنيب ضميره الذي أيقظه بعضُ الثقة في صدق كلامه، ولكنه علم اليقين؛ أنه إن قال الصدق أو الكذب، فسيكذبه والده، فعاش على أن نظره ضعيف حتى صدَّق نفسه؛ ليمارس هوايته اللذيذة خارج بيته، وهو يقول في قرارة نفسه: (لأجعلنَّ العالم كله يصدّق كذبي الذي دائمًا تعاقبني عليه يا أبي، سأثبت جدارتي وموهبتي لهم، سأجعل العالم كله جمهورَ مسرحي، لطالما كنتَ الجمهور الوحيد الذي لم يصفِّقْ لي أبدًا)... فكنتُ أنا جمهور (فؤاد) الوحيد بعد والده الذي ما أجازَ له الإبداع في التَّمثيل.

٤

ظل (فؤاد) شاردًا ماسكًا طرفَ كُمِّ قميصه في يومٍ صَرِدٍ بَردُه من أيام ديسمبر، يفكر في مأساته على حد قوله، وكما قال لي في نهاية اليوم. ولم أتذكر ألفاظه بدقة.

وهو مُصابٌ بنشوة ما -في هذا البرد القارس- لما جالَ في نفسه، فانفعل له:

(أشعر أني أصعد فوق جبلٍ عالٍ، فإذا ما وقفتُ ألتقطُ أنفاسي ببرهةٍ، سقطتُ كحجرٍ من فوقه. لماذا إذا وضعتُ أمامي هدفًا أو غرضًا، فإني أعطّلُ، ولا أنظر لباقي الأهداف أو الأغراض؟ لا أنظر لأي شيءٍ إلا لهذا الهدف، وأعلق باقي الحياة، وإذا لم يتحقَّق أيأس قليلًا، ثمَّ أتَّجه لهدف آخر، فأنا أدور في هذه الدائرة بلا كَلال منذ أن وعيتُ، حتى في التنقل بين الهوايات...

هذا الوغد (يعني: شاهين خاله) -منذ سنتين- وأنا لم أحصل منه على جوابٍ كافٍ، من قبل موت أمي بسنة. لقد ماتت المسكينة ولم تتمتع بإرثها. تارة يؤخّر تصفية الورث بأنه مريض، وتارة زوجته مريضة، وتارة لأنه مشغول، وأنا أريد أن أشتري التاكسي، أو أتزوج ابنته، أو لا أفعل شيئًا منهما. أنا أفضّل ألَّا أفعل أيَّ شيءٍ صراحةً. أنا عاشق الفراغ. أنا موهوب الفراغ. أخاف أن أكون كاذبًا في كل هذا. وهذا أكثر ما أخاف الكذبَ فيه؛ أخاف أن أكون بلا أهدافٍ ولا أدري. حياتي بلا إنجازاتٍ. لا... لا... أنا أملك الإنجاز الأعظم؛ أنا أتحمَّل الآلام. كل المشاعر واوا. أخشى أن يكون إنجازي سببًا في البلادة... وهذا أبي

الذي لا يفكِّر إلا في زوجته الثانية وأولادها...

أَضاعُوني وَأَيَّ فَتًى أَضاعُوا...

آه... (مروة). هل توافق (مروة) على الزواج منِّي؟ سأجعلها تتأكد أنِّي أستحق أن تظل بجانبي، ولن تندم على اختيارها... نعم... هي كانت تراني الإنسان التافة الذي تخلو نفسه من أيِّ علمٍ وثقافةٍ، ولكن لا يمنع هذا أن أكون حساسًا، ولا يمنع أني سأتغير من أجلها. من أجلها هي. لقد بدأتُ في التغيير.

قد أكون غير جديرٍ باستحقاقها، ولكنها شيءٌ عظيمٌ كبيرٌ بالنسبة لي. أما هذا الوغد (يعنيني: أنا) دائمًا يقول لي: (لا تقلِّل من نفسك أمام أي امرأة مهما كانت... إنَّ النساء لا ينظرن إلى المنافسة العادلة في الوصول إليهنَّ، وإنما تعميهم السطوة...) وغد صادق؛ كم أحسده... لا... بل هناك كلمة تُقال في هذا الموضع، نعم؛ كم أغبطه، فإنه يصنع من أيِّ شيءٍ تافهٍ أمَلًا. إنه لماهرٌ في صنع الذكريات...

ياه يا (مروة)... كم كنتُ أعشق هيئتكِ وأنتِ تحملينَ الحقيبة الدراسيَّة ذاهبةً إلى المدرسة. إنَّ هذا المشهد قد استولى عليَّ كليةً... ألم الجمال أو الألم من الجمال؛ لا أذكر على وجه الدقة ماذا قال لي الوغد الأخير من هاتين الكلمتين حين تحدَّث معي حديثًا عابرًا عن الجمال، وقد أخبرني بيتًا من الشعر لا أذكره عن: الحزن من الجمال. ثم أضاف قائلًا: اللعنة هي أن يجتمع الجمال مع الجاذبيَّة...

إن شرِّي يكاد ينعدم حين أتألَّم من الجمال، ويخفّ وزني حتى أتطاير، فأنتِ أشعرتيني بكثير ألمٍ. أنا فنَّان في الفن الأول؛ أنا ملقاط جمال، حتى الجمال المحفوف بالقذارة، لكنهم يروني كحجر... أنا أكذب، أنا مُدّعٍ لهذا الفن؛ أنا أُقلده «هو».

ولكني أعلمُ... إذا احترتَ في فتنة إحداهنَّ عليك؛ فقل لي؛ فإني مُهديك؛ أين وقعت في أيِّ موضع من القلب، وما سر فتنتها، وإلى متى ستظل خاضعًا لسحرها... أنا لا أريد الزواج منكِ لأجل طريقتك في حمل حقيبتك، ولا لأن أشْتمّ رائحة القلم الرصاص في يدك، ولا لأراكِ كيف تهتمين بجواربك البيضاء. الجوارب التي تجهل هولَ ما تحمله من مباهج مدرارة. ولكن لتحكي لي ما الذي كنتِ تفكِّرين فيه أثناء ذهابك وإيابك من المدرسة. ولأنِّي أغار عليكِ، وما تدرينَ، أحببتُ وضع الحقيبة هكذا. وخصوصًا إيابك، وقد احمرَّت خدودك من مجهودك اليومي.

أتخيلكِ حينئذٍ كطفلةٍ تذهب إلى الحضانة، فأصاب بقشعريرة، أشبه بمرض لا انفكاك منه... مثل الأطفال وهمّا متشيكين ولابسين جميل، وكل حاجة فيهم صغيرة، ومنظر الشنطة على الضهر لطيف جميل، تحسّ إنها كائن عجيب رقيق، وشّها المكشّر اللذيذ، وهما رايحين الحضانة الصبح، ببقى عايز أخودهم من إيديهم وأروّح كل واحدة على بيتها، بلا تلوث حضانة بلا زفت يا عم الحاج...

وكنتُ أتمنى أن أقول لكِ: دوّني جميع خواطرك لأقرأها فيما بعد، ولا تحرقي

منها شيئًا، حتى لو كان حرفًا كتبته أناملك بين واجباتك غير متساوٍ، ولا يعجبك رسمه. فلستُ أنا الذي منه تخافين ومنه تخجلين. ليتني أُنْسَى بين أدواتكِ المدرسيَّة. ستكونين الشيء الأكثر نقاءً في حياتي، إذا لم يكن النقاء الوحيد.

لقد تربَّيتُ في بيتٍ مشتتٍ، وسيتمّ استجماعي بداخلك... ولكني أتهيَّبُها بعد هذا النقاب. سيسخر والدي من رغبتي في الزواج من منتقبة، لطالما يسخر من آرائي وأهوائي منذ الصغر، ويظنّ أنِّي غير قابل للتأذِّي من سخريته، يشعرني أنَّه غريب عني، ليتهم يعلمون وقع السخرية في نفسي، وإن كنتُ أظهر بمظهر القويِّ، ولكني ما أنفك في جلب سخريتهم بنفسي على نفسي بدافع لذة خفية... كنتُ أعلم مَن في صديقاتكِ المقربة إلى قلبك، ومَن بعيدة عنه، حتى وإن كنتِ تجاملينهنَّ، كنتُ أعلم كلَّ هذا من نظرة عينيكِ لهنَّ.

وكلما نظرتُ لأبيكِ الذي تزيد كرهي للعالم نظرتُه من وراء نظَّارته مع التواء شفته السفلى أثناء كلامه، والذي راعني أنكِ من صُلبه؛ أتذكركِ لأخفف حدة كرهي. كالخنزير، لا نراه مرفوعَ الرأس نظيفًا نزيهًا إلا في الرسوم المتحركة؛ ليراه الصغار المساكين على أنه كائن مظلوم، وكم هو لطيف. وكالثعبان الأليف الضحوك يساعد الأطفال في مغامراتهم... سأتغيَّر وسترين. أشعر أنكِ بعد ما اكتملتِ أنني ضيعتُ حياتي هباءً، ولا أدري لماذا أضع اكتمالكِ إزاء حياتي؟

لقد سرت البرودة في جسدي. ما كل هذه الرقة التي أشعر بها الآن؟ أنا أشعر

بالخجل والضعف. أنا لستُ رقيقًا... أنا تافه... تافه رقيق... أين نوسة؟ أين سلحفاتي؟).

فتحتُ البابَ، هذه العجوز السمراء، الطويلة، النحيفة، ذات الوجه الطويل، والملامح البارزة كلها، حتى جحوظ عينيها، هي طيبة، وأحسبها ذات بركة، ولكن باب بيتِها مطابق لهذا الباب الذي في يدي، والذي لم يكد يُفتح عن آخره حتى تُرى أمامي، أرختْ عروقُها المنتفخة يديها على سور شرفتها الصغير في الدور الأرضي.

مَن لا يعرفها يظنُّها قصاصات صورٍ، فواصلها التجاعيد، قد جُمّعتْ والتصقتْ بالجدران بجوار إعلان صابون نابلسي سعد زغلول في الأربعينيات (لم يكن النابلسي شقيقَ سعدٍ، ولكنهما إخوةٌ في الصابون). فلا يُستقبَل من ملامحها الخالية من أيِّ مؤثرٍ، غير شيءٍ واحدٍ؛ أنه دليلٌ قطعيٌّ أنَّ الباب قد فُتِحَ، وبدأ الجحيم بالنسبة لي.

وِجْهةُ مقصدي إلى اليسار، وفي هذا الاتجاه يجاور بيت العجوز السمراء، بيت العجوز النائحة، أمام البيت عتبة كالمصطبة بطول بيتها العريض. عرضها متر ونصف. تجلس النائحة على طرف تلك العتبة؛ لتكون أمام بابها، الذي في أقصى طرف البيت، في هذه المرة انتبهتْ جيدًا لخروجي لمّا رأت انفراج الباب، فالتفتتْ سريعًا بوجهها عامدةً ألّا تنظر إليَّ.

وفي أوقات أخرى تتأخَّر في هذا الانتباه، فتشيح بوجهها عند رؤيتي، أما إذا

كانت راضيةً عني، تظلُّ تنظر إليَّ؛ لتردَّ السلامَ بصوت مسموع، بخلاف العجوز الطويلة التي تكتفي بالإشارة فقط...

احترتُ حيرةً عظيمةً في تفسير حالات النائحة، التي أذاقتني الويلات على مدار عامين، واحترتُ في تفسير إشاحة وجهها عني، أو رضاها في استقبال سلامي طورًا آخر...

أكون في مزاجٍ هائجٍ مع أُولى خطواتي خارج البيت، وإشاحة وجهها يزيد هذا المزاج سوءًا. إن وقْعَ الزمنِ عليَّ خارج بيتي، أشبه بقرحةٍ تتجدَّد من نفسها. وأكثر ما يسبِّب لي الضيق والانزعاج، هو أني أحمل دائمًا الآمال غير المحققة داخل نفسي، أُقابلها بوجوه هذه العجائز، أو غيرهم ممن ألاقيهم، لا أدري أأصنع مقارناتٍ بين ملامحهم التي قاربت على الفناء وبين الآمال التي فنيت، أو أن هذه الملامح هي التي تذكِّرني بكل الآمال الميتة في نفسي، مع يقيني أنهم خيرٌ مني.

وها أنا في منتصف عرض الطريق ألقيتُ عليها السلام، وهي لا تبالي؛ إذ تنظر لجهتها وأنا كائنٌ غير منظورٍ. في تلك المسافة تحديدًا، عن يساري حارة ضيقة موصدة نهايتها، والداخل فيها يرى على يساره أمام أول بيتٍ عتبةً، تفترشها العجوز الثالثة البدينة الطيبة، هذه لا يتغير استقبالها وترحيبها لي أبدًا، أُلبِّي نداءها إذا لم أنْتبه لسرعتي، وقد لمحتني، فتقول لي: (يااا ولاا)...

أذهبُ إليها، فتحكي لي عن يومها، وتسألني عن حالي، لكنها لا تنتظر جوابًا...

في هذه المرة قد قررتُ المضيَّ سريعًا، وأختفي بجريتي المعتادة من أمام الحارة. بعد صدمتي من إشاحة النائحة وجهها عني. أجري جرية (جيم كاري في فيلم The Mask)؛ إذ أُرجِعُ نصفي الأعلى للخلف، كأنه استعداد للانطلاق والاختفاء، ومع ذلك أسمع نصف قولها: (ياا) من دون (ولاا)... فانطلقتُ وما زلتُ في منتصف الطريق، بعد بيت النائحة ببيت آخر، شرفته كئيبة في الدور الأرضي، سورها عالٍ بعض الشيء، تزاحم العجوزُ الرابعة بيوتَ العناكيب، كأنها نسج عنكبوت، فإذا ما تحرَّكت جرَّتْ وراءها الخيوط. من رقةٍ وهشاشةٍ. كانت في الماضي وأنا صغيرٌ؛ تقبض في يدها ربع جنيه، وتنتظرني؛ لآتيها بآيس كريم من البقالة المجاورة، بسكوتة عليها بعض الآيس الملون الغريب، مغلَّفة بكيس بلاستيك حقير... فأقول في نفسي وأنا ناظرٌ للعملة الورقية التي في يدي، والتي أُعدتْ من قِبل العجوز من الليلة السابقة: (كلما ذهبتُ إلى ذاك البقال، وجدتُه يضع أصبعَه في أنظف مكان في جسده؛ أنفه -إذ لا تدري ما اسم الثوب الحقيقي الذي يرتديه، أهو الجلباب أم الشحوم؟- وجوف الأنف مغطًّى غطاءً ربانيًّا عن لطخات الشحوم الغليظة. لديه توكيل التموين للمنطقة، الذي يُصرَف من الحكومة لكل مواطن مصري، والذي يُحرَم من التموين وبركاته إن تخلّى يومًا من الأيام عن مصريَّته حين يُروِّج الإشاعات، قائلًا: (الحنفية تتبوَّل في وجهي). لأن التموين أقوى من البطاقة الشخصية في رسم ملامح الشخصية المصرية... براميل الزيت القديمة الكبيرة مرصوصة

صفًّا صفًّا في محله -على بلاط ملطخ باللزوجة يكاد ينزع الأحذية من الأقدام- لونها كلون الغراب سوادًا وشؤمًا، تحتاج إلى الآلة التي تجلي السيراميك؛ ليجلو الزيت الملتصق -كالأحقاد بعضها فوق بعضها طبقات- عليه من سنين لا يعلمها إلا الله.

أما الشؤم؛ فلأن تلك البراميل لا تفرغ أبدًا. قد كان يتبوَّل فيها بركة لزيادة الزيت... كانت الأكلة المفضلة لأهل المنطقة جمعاء الباذنجان المقلي والطعمية.

هذا الرجل وليٌّ، ويستحق جمع التبرعات لإطعامه الناس، وقد يُظهر كراماته عليهم بعدما ناموا ببطون منفوخة بظهوره يُرفرفُ في أحلامهم الزيتية.

وفي أوقات فراغه، وبعد فراغ أنفه، يثقبُ كيس السكر بخلة أسنان ويفرغ منه قدرًا ضئيلًا، وهكذا مع باقي صفوف أكياس السكر، ثم يجمعهم في كيس فارغ، ويلحمه بإتقان ليكون جاهزًا للبيع.

ثم مات كما ماتت مئات الذبابات فوق صينية الهريسة الشهية المعروضة. كمحترفة عُرْيٍ، تبلع تلك الصينية ما يتساقط عليها من أصبع الرجل الخارج من أنفه. مات ولم تنقذه الأموال الخفيرة التي خفّرها من كل هذه الزيوت والشحوم. وورثَ المالَ والشحومَ، وشحَّ الوالدِ ولدُه الوحيد (أبو عُبيدة). ولكنها -أي الشحوم- كان ملمسها على جلده أحلى من الديباج والحرير.

وبقيتْ في نفسي جملة الترحيب كلما ذهبتُ إليه بصوته الأخنف: (أتدري لماذا كان أخنفًا؟) أهنن بنغاني؛ أي: أهلًا بالغالي...).

فلم تُنْسني كآبةُ الشحوم أثرَ إشاحة النائحة عني. وما زال يراودني الأثر. لقد ذقتُ المرَّ منها مع عُذري لها، ولكني كنتُ راغبًا في عيش عصرٍ غير عصرها، كانت نحيفةً جدًّا، ونشيطة جدًّا مع كبرها، لمَّا جفَّ ابن النائحة كنتُ في الثانوية، وكان هو في الثالثة والعشرين، جفَّف جسدَه وبذَّ نتوءات كبيرة متفرِّقة بشعة في كل جسده؛ سرطانٌ خبيثٌ.

كانت تجلس به أمام باب بيتها؛ حيث يكون رأسه على حجرها وهو ينظر للمارة، ويختفي جسده خلف الباب. وكانت تناديني في بعض الأوقات لأحمل ما تبقَّى من جسد ولدها إلى حجرته. فمات. كان يكفيني هذا المشهد الذي على بُعد عشر خطوات من بيتي، يكفي أن يُرجعني مرة أخرى لحجرتي، فما الذي ألقاه بعد هذا في طريقي؟

لقد اقتصَّ من تحملي لما هو آتٍ في الطريق، فأين الطاقة للتحمل... ولقد ظلّتْ عامين تُفزعني إيقاظًا على صراخها، مع أني أنام في الطابق الثالث، وإذا مرتْ جنازةٌ اتّخذتها جنازةَ ولدِها، وإذا استيقظتْ من النوم وتذكرته -وهي تتذكره دائمًا- تصرخ صراخَ لجبٍ وصخبٍ. كانت عزيزةَ الفقْدِ حقًّا، ولكني استيقظتُ على أكْدر منبهٍ في تاريخ البشرية في هذين العامين... وبالرغم من أنها تعيش حِدادًا دائمًا إلا أنها عاشت البقية من حياتها صلبة قوية، فكأنَّ النوحَ والبكاءَ على الميت هدفٌ لذاته وأملٌ جديدٌ في استكمال الحياة، إن الحياة لا تستمر إلا بهدفٍ حتى لو كان بكاءً خالصًا على ذكرى، ويظن الناسُ في مثل

هذا البكاء تهلكةً -حتى الذين يبكون أنفسهم- وما هو إلا وقودٌ وطاقةٌ...

أما العجوز الخامسة والأخيرة، فأراحتْ واستراحتْ، فكأنها في التابوت هامدة، وسقط زئبقٌ على عينيها، تحرِّكه الرياحُ، يُناغي عينَ الناظرِ أنها حية. لا أنتظر رؤية رد سلامها...

ثم ألتفتُ مع التفات الطريق يسيرًا إلى ميدان صغير، سيظهر عن يميني المسجدُ الكبير للحي الذي أعيش فيه... وتقول لي نفسي: (يا إلهي، الآن سألقى (شاهين) جالسًا أمام المسجد؛ ليتم قضائي على يده، وإن كنتُ من دون سببٍ أتحاشى لقياه لما يتركه في نفسي من آثار، أو حتى مجرد رؤيته، لكن الآن يوجد سبب، فأنا بينه وبين (فؤاد))...

ليس لي إلا هذا الطريق بعد المرور على عجائز يمتصون الحياة، وفي نهايته (شاهين) بوصفه الجائزة الكبرى لتلك العجائز. ولكن لا أُخفي أن هناك طريقًا آخر لا أرى فيه كل هؤلاء، ولكنه طريقٌ شاقٌّ صعبٌ، صدَّني عنه الكسلُ، وقلةُ التركيز، وخيبةُ الأمل في طوله.

فرأيتُ (شاهين)، وحاولتُ أن أكون فأرًا في ماسورة مجارٍ، ففشلتُ، وإلى قدري ذهبتُ.

أمام بيتِ صديقٍ عزيزٍ، كانت ترقد قطةٌ مسكينة وحيدة، فلمَّا كنتُ أذهب إليه، أو نكون معًا عائدين، تثقل عليَّ رؤيتي عطفَه عليها، وصبره في تحملها، وكنتُ على عجل دائمٍ في إنهاء هذا الدلال. حينئذٍ آمنتُ بقسوة قلبي، ولكنها

السنوات، مرت وأبانت لي؛ ضعفي لا يتحمل ألم رؤية هذه الرقة بهذا الوهن مع هذه الوحدة، مع التمني بأن يتحقق شيءٌ عادلٌ. لا أدري ما هو. يتحقق في لمح البصر بإيوائها وغذائها ورعايتها، ولكني عاجز عن هذا الشيء العادل، فتركتها تأوي معاناتها داخل نفسي، والتي لم تزل بها، وتفاقمت، وبالطبع ماتت القطة، وبقيَ أثرُ وحدتها في نفسي.

كنت أقول: لو كنتُ أرعاها وأظهرتُ لها عطفي، ولم أبالغ في رقتي بإظهار قسوتي؛ لحزنت قدرًا من الزمن عليها بعد موتها، ونسيتها، ولكن كسَتني رقتي عجزًا. قد يُقارب ما أشعر به تجاه هؤلاء العجائز شعوري بتلك القطة.

٥

يتوسط المسجدَ من أمامه سُلمٌ، على جانبيه سورانِ يُسنّدانِ الصاعدَ، في جانبه الأيمن، وهو الجانب الذي أراه عند انتهاء طريقي السابق... عادة الشيبِ أن يضحكَ وقارُه، وأكثر الشيب في الأنام دليلٌ على قَدائِم الغيِّ.

يجلس (شاهين) مع الخمسة وستين عامًا حصيلته. وما زال يتمتَّع بقوَّة جداله مع قليل من الدهاء. يتوكأ على عصاه، فوق كنبة خشبية، كالتي يجلس عليها العمدة أمام دوَّاره. تلتصق بجدار المسجد، بعد حادثٍ قديمٍ ظلّت قدمه اليُمنى مستقيمة لا تُثنى.

خلف نظارته العريضة تنظر عيناه بعجبٍ إلى حشد الشباب أمام المسجد، ينتظرون حضور شيخين في درسٍ لهما قد عُلم ميعاده مسبقًا.

يئستْ لحيتُه المتبعثرة من إكساء وجهه العريض المستقيم، يتقي البردَ بعباءته البُنيّة الشتوية، ويتبادل النظر، فالحديث، مع رجل آخر يُقاربه في العمر، ويتكئُ هو الآخر على عصاه من دون علةٍ، لحيته كثيفة، بياضها يمازج سوادها، وشاربه غليظٌ كحركاته؛ فلا تجتاز دابَّةٌ ظِلَّه الثقيل، صموتٌ، فإنَّ لوجهه طابعٌ مميزٌ، جامد التجهم أبدًا، كجدران مصلحة حكومية لا تلين لك، مهما قدَّمتَ في إرضائها الأوراق والأحبار.

ولا أدري كم يحتاج هذا الوجه من درجات غليان السعادة والسرور لإذابة

تجهُّمهِ، أو ما الواسطة الذائبة التي تبتسم بها لي المصلحة. ولا أعلم اسمه؛ فلو كنتُ أعلمه يومًا لأنْسانيهِ تجهمُه، وليس لحديثه نصيبٌ من وفرة عبوسه؛ إذ كان حديثًا شحيحًا، ولكنِّي أذكر بعض اللحظات التي تنقشع فيها جَهامةُ هذا الوجه، ويُرى وضّاءً؛ سمعته في السابق أكثر من مرة يتحدث مع (شاهين) في ذات الموضوع؛ عن (قصة قِطةٍ)، قِطة وقفتْ طويلًا، وقوفَ متأملٍ، أمامَ قبرٍ ما، فسمَّيْتُه (رجلَ القِطة). وإذا ما اتَّحدا بنظريهما على حشد الشباب، فكأنما عينا بازيٍّ ترقب أشلاء.

أما الجليس الثالث لهما على الكنبة الثانية. وهي من نفس طراز الكنبة الخشبية الأولى. التي تلتصق بسور سلم المسجد، فهو زوج ابنة (شاهين) الكُبرى، (عطية) الموظف الصميم، ويتمتع أنفه الطويل بشخصية منفردة مثل شاربِه الأسود العريض المُتَدلِّي عليه.

وبعيدًا عن وجهه الذي يشبه الفرزدق، فإن قفا (عطية) أمْيزُ عندي من وجهه؛ لديه عظمتان خلف كل أُذن بارزتان، ويبدأ دوران الرأس من منتصفه إلى أعلى؛ دورانًا خفيفًا جدًّا ليس بارزًا للخلف، مع استقامة منتصف جمجمته حتى قفاه. ولون شعره الفاحم بالطبيعة كأنه غطس في حوض حلاقٍ صبغته سوداء.

رُزقَ (شاهين) من الأبناء ثلاث بنات وولدان. لقد جاهدت الصغرى مع والدها ووالدتها من أجل ارتداء النقاب، ومهما كانت معارضة أبيها وأمها في ارتدائها النقاب، فإنها بالطبع معارضة أقل حدةً من المعارضة التي كانت أمام

فتيات أخريات؛ كنَّ يرتدينَ النقاب على سلالم بيوتهنَّ، ويخلعنه قبل الدخول عند العودة خشيةً من الأهل الرافضين تمامًا لارتدائه، أما الابن الذي يكبر (مروة)، فهو واقفٌ بجوار والده الآن ينظر إلى حشد الشباب هو الآخر.

إن بيت (شاهين) ليس ببعيد، فهو أمام المسجد مباشرةً، وبينهما ذاك الميدان الصغير الملآن بحشد الشباب، في يوم شتويٍّ، يرتدي أغلبهم الجواكت الواسعة جدًّا، لها سبعة عشر جيبًا، يكاد يسع الجيب الواحد مجلدًا كبيرًا (كانت قديمًا تُباع بالقسط، وليس لها غير لونين: بني وأسود، وأُغلق المصنع قبل صناعة اللون الثالث).

جواكت فوق جلابيب بيضاء؛ تجتمع في حلقات، إما ثلاثة أو يزيدون، يتحدَّثون في انتظار الشيخين. وأمامي مباشرة حلقة تتكوَّن من ثلاثة أفراد، إن الناظر إليَّ منهم، ينتظر انضمامي إليهم، بيني وبينه بعض المشاحنات النفسية، وغير المُعلنة، والتي ليس لي يد فيها، لم أكن معه في المدرسة الثانوية التي كان مديرها (شاهين) في السابق، والتي تجمع بينهما صلةُ ودٍّ بصورة ما، ولكني اجتمعت معه في مجموعة مادة اللغة الفرنسية، فبعدَ حصةٍ نادى عليَّ أستاذ اللغة الفرنسية (وقتها كان يُسمَّى أستاذًا)، وقال لي:

ـ ستنتقلُ أنت وأصحابك في مجموعة خاصة بكم وحدكم.

ـ لماذا يا أستاذي؟

ـ بعض الطلَّاب لا يريدونك أنت تحديدًا وأصحابك في هذه المجموعة.

ـ لماذا؟

ـ تصنعون المشاكل والضوضاء أثناء الدرس.

ـ هل تراني أفعل أيَّ مشكلة يا أستاذي؟

ـ لا.

ـ بعد إذن حضرتك. مَن الذي أراد نقلي تحديدًا؟

أستاذي من عشقه لمادة اللغة الفرنسية، كأنه يعيش في قرية تقع بجوار جسرٍ يتقعّس نهرَ الراين. أو كأنه خرج من تحت لسانٍ مرسومٍ في رواية فرنسية يفوح منه الـــ Accent الفرنسي.

فصارحني أستاذي، ليس بنوعٍ من الوشاية -معاذ الله- ولكنه كان يثق فيَّ، وأن تلك المعلومة لن تخرج مني حتى لأصحابي، ويجب أن تكون جميع الأمور واضحة صريحة، ولكن مهما كانت الأسباب التي دعت أستاذي في الكشف عن اسمه، فلم آخذ هذه المصارحة منه كوشاية، ولا ظننت السوء فيه قط، ولكني أخذتها؛ كحديث بين صديقين حميمين لا تخفى بينهما خافية. فقال:

ـ أحمد ماهر.

ثم أضاف أستاذي:

ـ هو يعلم أنك لا تختلق المشاكل، ولكنك أنت قائدهم في الخفاء.

فإذا ما التقيتُ أنا و(أحمد ماهر) مصادفة بعد تلك الحادثة وعبر سنين -فهو يسكن قريبًا من هذا الحي- أرى في نظرة عينيه شائبة من تلك الحادثة، التي لا

يعلم أني أعلمها. وليس هناك فرصة تجمعنا في مكان آخر -لقد كان في القسم الأدبي، وكنتُ في القسم العلمي- إلَّا الاطمئنان السريع بين زملاء الدراسة.

ولكن داخل نظرة عينيه شيءٌ آخرُ، يذكِّرني بنظرة (رُمَّانة) القهوجي، أسفل البيت الذي يسكن فيه (شاهين) مقهى كبير، هو الآن على يساري، و(رُمَّانة) الأسمر الجاحظة عيناه فوقهما حاجبان هما أشبه بخطين مرسومين بدقة، وتسري تلك الدقة إلى سوالفه التي دائمًا يجعلها أرفع من خيط، بوجهه الطويل ينظر إليَّ الآن بنفس نظرته المعهودة التي تحتاج لتفاسير كثيرة.

وينتظرني (منذر) على المقهى. لقد رآني هو الآخر، وأشار لي في الذهاب إليه، ولكني جعلته ينتظر قليلًا، كما جعلت (شاهين) ينتظرني أيضًا، فألقيت السلام على مَن يريد انضمامي إليه، وردوا سلامي ثلاثتهم، (أحمد ماهر)، و(ع ي س)، والرجل البني؛ هي ليست صبغة تطلي شعره، ولا لحيته الكثيفة التي تملأ وجهه، ولكنه بُني منذ مولده، تمتاز المنطقة التي تعلو حاجبيه بعلوٍّ شديدٍ، فيحتاج المرء أن يُسلط الضوء على عينيه؛ ليعرف لونهما، فقال لي (ماهر):

ـ كيف حالك يا أخي؟

ـ الحمد لله.

فقال الرجل البني، يتابع كلامًا لا أعرفه، والذي دائمًا يظهر عليه التعجُّل والحماسة في الكلام:

ـ والله يا أخ (أحمد)، الشيخ الكبير ظلَّ يمدح ويمدح مقالةَ الأخ عن العلمانية

حتى ظننا أنه سيورثه. والله المستعان. أحسبُه على ثغر، وأنه نال شهرةً عظيمةً بين جميع الإخوة في مصر كلها من كلام الشيخ عنه. ولقد حدثني بعض الإخوة أنهم شعروا بتقصير في هذا الباب، والتقصير في العلوم الإنسانية. فقال (ماهر):

ـ نعم، لقد سمعتُ الكلام الطيب الذي قاله شيخنا الكبير، فالأخ الذي تحدَّث عنه واسع الاطلاع، جمّ المعرفة، نفع الله به المسلمين. ما أكبر تقصيرنا، نسأل الله السلامة. لقد أحببته، وودتُ معرفته، وسيحدث بإذن الله.

فأشرتُ ثانيةً، لـ (منذر) الذي يتعجلني، أني قادم بعد قليل. فقال لي (ماهر):

ـ سنراك اليوم في درس الشيخين -إن شاء الله- يا أخي.

ـ نعم... إن شاء الله.

ـ موضوع الدرس مهم جدًّا.

فسارع البُنيُّ كعادته في الكلام:

ـ إي والله يا أخي، عن الاختلاط. والله مفسدة. والله مفسدة، يا ليت الشيخين يقومان بدرس شهريٍّ لهذا الموضوع، وهذا الكائن الحليق الذي يدَّعي الناس أنه داعية لدين الله، تجلس أمامه النساء كاسيات عاريات، ولا يُظهِر أيَّ غضاضة من هذا. لنا الله والله. ماذا سيحدث بعد ذلك؟ والله إنِّي أخاف أن تقوم الساعة غدًا. والله إنَّ دين الله يُلعَبُ به.

فردَّ عليه (ماهر) قائلًا:

ـ ليس هذا فقط يا أخي.

فنظر إليَّ (ماهر)، واستكمل كلامه:

ـ مشاهدة المباريات، وضياع أوقات المسلمين. قد تكلَّم بعض الشيوخ عن جوازها من عدم الجواز. ولكن لا أحد ينكر منهم أنها ملهاة عظيمة، تُلهي الشباب عن قضايا الأمة الكبيرة.

كان (ع ي س) ينظر لورقة في يديه كلَّ حين، ويتمتم بشفتيه بشيءٍ، كأنه يصحِّح شيئًا مكتوبًا.

فقال الرجل البني:

ـ انظروا يا إخواني. إنَّ المسلمين مستباحةٌ دماؤهم في كل الأرض، والشباب تلهو بعقولهم قطعة من الجلد. ولا حول ولا قوة إلا بالله. إلى متى هذا الاستعباد؟ إلى متى؟ قرأتُ مرة -لا أدري أين- أن الإنجليز هم مَن أدخلوا كرة القدم في مصر؛ لتشغل الناس عن الاحتلال، أما وقد رحل الإنجليز، ولكن ظل احتلال العقول. ويظلُّون بالساعات يديرون القنوات على تحليل ما قد رأوه في المباريات.

لم يكبح غبطته من السجع الأخير في كلماته. فنظر إليَّ (ماهر) برقةٍ طاغيةٍ. ينبغي أن أُبيّنَ شيئًا هو غاية في الخطورة. إن (ماهر) ليس لرقته نظير قط. أخشى أن كلمة (قط) تخدش رقته.

إن (ماهر) أرقُّ من غشاءِ ورقةٍ في وردةٍ والريحُ رَقودٌ، مُجّـتْ همْسَ عطرٍ والريحُ هَبوبٌ، فكأنَّ هاتي الرقة استولتْ على وجهه؛ فذابتْ من عذوبتها المهراقة أيُّ

شعرةٍ تحت جلد خده اللامع قبل مهدها، فالناظر إليه يجزم أنه مسحَ خدّيه بالموس، ولكنها سيماؤه، ولحيته سمراء مشذبة دون تدخُّل منه، ووجهه أبيض مستطيل.

أما نظرة عينيه، بعيدًا عمَّا تقوله تلك النظرة، سواء أكان غاضبًا أم راضيًا، فهي حانيةٌ على الدوام أبدًا إلى أبد الدهر (أنا لا أظن أن (ماهر) يغضب، أو أن التصريح عن الغضب لديه هو البكاء). كما هو وجه يميل قليلًا إلى اليمين أثناء الحديث، أو في جميع صوره مع ابتسامته التي لا يضاهيها لطافةٌ. وقال:

ـ ينبغي على كلِّ شاب أن يعي الخطر المحيط بالأمة.

فقلتُ:

ـ أنا لا أعلم أسماء اللاعبين، ولا أشاهد المباريات.

فضاقتْ عينا (ماهر) عجبًا حقيقيًّا، وإبهامًا مستفسرًا، وشعرَ أني بعدما سمعتُ الكلام عن المباريات. وهو كلامٌ حقٌّ. شعرَ أني أخشى أن أكون واحدًا من هؤلاء، فاضطرني الإحراج إلى التملُّص كذبًا، أمامه وأمام أصحابه المعروف عنهم أن قضايا الأمة لا تغيب عنهم. وهو حقٌّ أيضًا. وخوفًا مني أن أكون لا أبالي بمثل هذه القضايا.

وابتسم ابتسامة: أنه سيتجاوز لي عن مشاهدتي المباريات في سبيل أني لا أكذب عليه. أو لا أكذب في المطلق... وما زال محافظًا على وضع يده اليُمنى فوق اليسرى الملتصقة أسفل صدره فوق ما بدا من جلبابه الأبيض المستتر بالجاكيت

الكبير، على خلاف الرجل البُنيّ الذي تزاحمُ حماسةُ يدِه في الحركات حماسةَ لسانِه في الكلمات (لعلني تأثرتُ بسجعه). ثم قال:

ـ كيف يا أخي، ولقد سمعتُ أنك أُصبتَ في الثانوية بحادث أثناء إحدى المباريات؟

ـ أنا أقول لك الصدق. ويشهد الله على ما في قلبي. حتى أني أتجنب أيَّ حديث عن أسماء اللاعبين، وترتيب الفرق في الدوري، مع مَن يلعبون معي بعد انتهاء اللعب؛ لأني جاهلٌ حقًّا بكل هذا. أنا ألعب فقط باستمتاع؛ أعني: كنتُ ألعب فقط.

إن الذي دعا (ماهر) إلى عدم استمساك صلب الصدق في كلامي، أني غير ملتزم. فشعر شعورًا آخر؛ أني لا أريد أن أظهر أقل منهم خوفًا على قضايا الأمة، ولا أقل منهم وعيًا. فلم أجدْ وسيلةً تنقل صدق شعوري إلى صدر (ماهر) الذي لم يكذبني حقيقةً. ويظن فيَّ الصدق، ولكن لم يستشعره... فقال متعجبًا:

ـ كنتَ...؟

ـ نعم، تركتُ الكرة، فهي تحتاج تركيزًا، أو انشغلت نفسي بأشياء أخرى، (مازحًا) أضاعت مني اللمسة الاحترافية.

فقال لي الرجل البني، بنوعٍ من الدعوة والنصيحة لله:

ـ يا أخي، الكرة سياسة، والسياسة نجاسة. نجاسة والله يا أخي. نجاسة شيطان (فأشار إلى صورة معلقة على أحد الجدران، ومن تحتها دعاية لمرشَّح في مجلس الشعب). انظر، إن هؤلاء يتكسَّبون من هذه النجاسة، ويكذبون على الناس ليل نهار؛ بأن يقولوا ما لا يفعلون.

فابتسمتُ له احترامًا لكلامه، وما زلت واقفًا أمامهم...

٦

همَّ الرجلُ البنيّ أن يدخل المسجد آخذًا بيد (ماهر)؛ ليذهبا للمكان المحجوز قبل الازدحام، فغضبَ (ماهر) غضبًا يليقُ برقته، وذكّره بقول النبي -صلى الله عليه وسلم **(لو تركنا هذا الباب للنساء)**. وعند تذكُّره ابن عمر -رضي الله عنهما- إذ بعد قول النبي -صلى الله عليه وسلم- لم يدخل من هذا الباب الذي جُعل للنساء حتى مات.

فبكى (ماهر) من ورع ابن عمر -رضي الله عنهما- فهو دائم البكاء عند تذكُّر هذا الحديث. وحزن البنيُّ من بكائه، ومن بعْث الشجون فيه. واعتذر له اعتذارًا حارًّا، وظلا ينبِّهان الشباب إلى الابتعاد عن الطريق المؤدي لباب النساء... ولامَ البنيّ نفسه مخاطبًا إياها: (كيف لي أن أخطئ مثل هذا الخطأ، ومع ماهر تحديدًا، أو أنسى هذا الخبر؟ ما أبْلدَ خاطري).

إن أحد الشيخين المُنتظرين، هو كأبٍ حقيقيٍّ لدى (ماهر)؛ لذلك فهو يحفظ كلَّ حرفٍ خرج من فم الشيخ منذ أن بدأ دعوته، كل قولة في الدين، وكل (رأي دنيوي)؛ هو منهج حق واجب اتباعه في نفس (ماهر).

ما زال المسجد عن يميني، والمقهى عن شمالي، ومدخل مصلَّى النساء في الجهة التي أقف فيها؛ لذلك كانت بُغية (ماهر) ومَن معه، ومجموعات أخرى: التنبيه على الإخوة لكي يبتعدوا عن ذاك الطريق؛ حفاظًا على الأخوات المنتقبات أن

يمررنَ في طريقهنَّ سريعًا. غير أن (ماهر) ومَن معه، كانت ظهورهم للأخوات.

فكلَّما مرّتْ بعضهنَّ، نظر (شاهين) الذي لا يتورَّع في أن ينظر في مثل هذا المشهد الواضح لأعين الجميع، ينظر هو ومَن معه؛ رجل القطة، ثم ينزل بنظره إلى أسفل، إلى ما يُجر من أذيال العباءات الطاهرة فوق التراب. كأنه يخاف على القماش. فيرجع البصر إلى رجل القطة عن يمينه، رافعًا ذقنه قليلًا عن أصابع يده اليمنى، ثم يرفع تلك الأصابع مع ثبات راحتها فوق يده اليسرى التي تقبض بعصاه؛ لُيظهرَ تعجّبه ممّا يرى.

على أن (مروة) ابنته الصغرى منتقبة، ولكنه ما زال يرى كلَّ نقابٍ غريبًا عجيبًا. كان ينظر لابنته عند خروجها أو دخولها البيت بذات الطريقة، ولكن الاختلاف أنه يُظهر عجبه لزوجته: (هو إيه اللي بنتك بتعمله في نفسها دا) بدلًا من رجل القطة هنا. ثم يقول لصاحبه المتجهِّم مع قدوم كل فوج من الشباب: (بيطلعوا علينا منين العيال دي؟) فلا يزيد المتجهِّم غير جهده في رفع جانب شاربه الغليظ.

فسمعتُ الصوتَ -الذي طالما يُنادي (عُبيدة)- وقد هزْهزَ رنينُه موضعَ الحُلقانِ بالآذانِ في الجيرانِ، وهم فوق سرائرهم. إن الصوت لا يُربّي ولده، وإنما يُسمعنا أنه يُربّي ولده.

فجاء (عُبيدة) الذي لا يتعدَّى عمره الحادية عشرة، مسرعًا، يمرُّ من أمامي

وسط حلقتنا، فدهسَ أقدامي، وارتطم بالرجل البني، فابتسم له، وقبضه (ماهر) من ذراعه برقته المشهودة، وأقبلَ (أبو عبيدة) وهو يقول قبل أن يصل إلينا: (عُبيدة، مش قولتلك الصحابي الجليل... ماعملش كدا؟ اطلع فوق عند أماه)...

وكان (أبو عُبيدة) يتمنَّى أن يقول رقم الصفحة التي فيها الأثر الجليل عن الصحابي الجليل في ثنايا كلامه، لكن للأسف، الناس في جهلٍ وطيدٍ لن يفهموا عنه؛ فاختصر القصة لنا في (عُبيدة) ولده... ورَبَتَ (ماهر) فوق رأس الطفل، وأخرج من جيبه بعض السكاكر يحملها دائمًا للأطفال، ثم رَبَتَ الرجلُ البني على الطفل تقليدًا لـ (ماهر).

إن درجة تعلّق وقوة تبعية أحد الأشخاص بشيخه؛ قد تجعل الكثير من الشباب الآخرين؛ يتخيَّلون علمًا، وغموضًا، في هذا الشخص، لم يطلعوا عليه، أو سعة علمٍ لم تصل إليهم، أو هو خُلقَ وبين جنبيه من المقومات الطبيعية تأهّبه أن يكون ضليعًا ممكَّنًا في التزامه، أو هو ملتزمٌ من دون شيطان يُعكِّر عليه صفو عباداته؛ إذ يسحق الشيطان بأوهن نظراته، فيُحاط حوله حالة من القدسية؛ إن هذا هو إحساس الرجل البنيّ، و(ع ي س) تجاه (ماهر) المتفاني حبًّا في شيخه، ويظنون أن الإمامة قد آلت إليه بعد شيخهم، أو هو الدرجة التي ينبغي المرور بمثلها قبل الوصول للإمامة...

إن أشياء كثيرة فرضها الشباب في عقولهم، وألزموا بها أنفسهم كأنها مقدسات،

حتى ولو كان شيخهم هو مَن أشار لهم إلى الطريق، ولكنهم تفانوا أيّما تفانٍ في إتقان مسالك وفرعيَّات ضلّوا فيها، وابتكروا ما لم يخطر على عقل شيخهم... فاقتربَ مني، ومالَ (أبو عُبيدة) على أذني، قائلًا بصوتٍ مُتاحٍ سمعُه لغيري: (على فكرة، أنا مش حارمهم من حاجة. علشان العيل مايطلعش عينه جعانة)... وسبحان الله؛ (عُبيدة) طفلٌ من أطفال الجانّ في المشاكسة والصوت العالي... فقال الرجل البُنيّ:

ـ لا تقسُ عليه يا أبا عُبيدة، فهم آمال الأمة.

ـ نعم والله، نحن نفعل ما بوسعنا، والله المستعان، ولكن ماذا نفعل في الشارع والتليفزيون الذي يُدمر ما يتعلمه الأطفال.

فقال (ماهر):

ـ أنت على ثغرٍ يا أخي ما دمت تُربِّي ولدك. هل يذهب إلى حلقة تحفيظ القرآن يا أخي؟

ـ نعم... نعم... كيف يا أخي تسألني هذا السؤال؟ لا تسألني هذا السؤال يا أخي، أنا لا أتأخَّر في تعليم (عبيدة)، ولا أحرمه من أيِّ لعبةٍ يشتهيها، لكن بالمعقول، أنت تعلم؛ قد يفسد الطفل شراء كل ما يبتغيه.

كأنه من المقرَّر عليَّ أن أسمع صوته كل يوم. بالأمس القريب، ذهبتُ أشتري بعضَ بقالتي، فوجدتُ (أبا عُبيدة) يتمرَّن على إلقاء خُطبة وهو يرتدي الجاكيت فوق جلبابه الأبيض، ولا أدري لماذا كان يُخرج الكلمات من أنفه،

كبلغم علقَ في حلقه، بصورة تقشعر البدن عطفًا.

هل هذا تقليد لأحد الدعاة في الخنفة؟ أم هو شيء أشبه بتغنُّج ذكوريٍّ؟ أم وراثة من الوالد أثناء تنظيف أنفه قبل قَطْعِ الجبنة لي؟

فلمَّا رآني، أبْدى خلاف رؤياي؛ غالقًا عينه قليلًا. كأنْ لَا ينبغي له أن يقطع جملته في منتصفها؛ لئلَّا أُخرجه من حمية خطابته؛ لا بدَّ أن أفهم عِظمَ ما هو فيه، وأن ألجم لساني البارد... ونظر إليَّ (عُبيدة) الجالس ومعه طفلٌ آخر، بجوارهما عجوزٌ توَسَّنتْ، جِيءَ بها مرسولًا من زوجة ابنها تبتاع لها كيس خميرة لعمل شيءٍ عاقٍ من عائلة البيتزا.

وأشار لي (عبيدة) بأصبعه، وهو يغمز بعينيه ضاحكًا؛ ألَّا أتكلَّم حتى ينتهي والدُه من خطبته. وقطع الخطيبُ خطابته، فاستعاد صوته المعتاد، ونزل عن مِنبر خياله، وانفضَّ المجلسُ بإفاقة العجوز، وحكى لي ما أردتُ تعذيبه: (تعرف... أحد أمراء الخليج كان مرة في باريس، ونزل في فندق، فنظر له فعجبه، فقال لمدير أعماله: حلو الفندق دا، اشتريه... فقال له مدير الأعمال: دا فندق سموك).

كنتُ أرسم بسمة العجب والاستغراب اللتين يقتضيهما الموقف المهيب؛ حتى لا يغضب من بَلادتي تجاه هذه الحِكاية الظريفة، بالإضافة إلى رفع الحاجبين؛ كي تكتمل الصنعة.

ورأيتُ (عبيدة) يهرب هو وصاحبه من خلف أبيه بعد انتهاء خطبته، ونست

العجوز خميرتها. فلستُ كـ (أبي عبيدة) تشغل خلايا يافوخي قصص الأغنياء وطرائفهم. نعم، هو غير حاقد على سموِّه. ولكن هذه المادة من الأحاديث لها جاذبية لا تقاوم لديه ولدَى أمثاله (الذين قد يعملون ليلًا بعد نومة العصر استمتاعًا بانتهاء اليوم الوظيفي زيادةً في رفاهية المعيشة).

وصحيح أن (أبا عبيدة) فوق الفقر بطبقات؛ فهو قادرٌ على شراء غسالة أو ثلاجة؛ مستريحًا من فكَّة كُدِّسَتْ؛ فعثَّرتْ إغلاقَ أحد أدراج بقالته، ولكنه طموح. ومثل تلك القصص تليق غذاءً لأظفار طموحه. غير أنها تحوي لذةً أخرى، يستعذبها: (بأنها فلوس مع التيوس، وأن الدنيا تخسر وتهدر من إمكانياته ولا تنتفع بها).

وقد قال لي قلبي المسكين: (لقد أرسلتُ لقلب (أبي عبيدة) ردًّا على نفس (تردّد موجة صدق التعبيرات) الذي أرسله ليتأكد ولا يحزن لعدم مجاراة حماسته. ولكني لم ألقَ جوابًا على رسالتي بـ (ما لي أنا وكل هذه المعاناة))...

فقلتُ له: (ربع جبنة براميلي يا (أبا عبيدة) بعد إذنك). وأنا أقول في نفسي: (كلّ هذا العناء في ربع جبنة ملوش لازمة؟ مالها فاصوليا فؤاد)...

وفي مشيها كانت العجوز تئنُّ من ألم مفاصلها، فودَّعها (أبو عُبيدة) بصوته المِنْبري: (في الجنة بقى يا حاجة، الصحة وكل حاجة في الجنة).

فأخذ (عُبيدة) من يده مُعنِّفًا وهو يقول: (يالا علشان تسمّعلي جزء عَمَّ).

ومرَّ شابٌّ في فمه السواك، وألقى السلام، واستكمل مشيه. كان يرتدي جلبابًا

رصاصيًّا. فقال الرجل البنيُّ:

ـ أتدري يا شيخ (ماهر)؟ اجتمعتُ أنا وهذا الأخ في عقيقة ابن أخٍ لنا، وأخ آخر كان بيننا يشتكي الفاقة، فأجابه هذا الأخ بقولٍ... لا أدرك ما المُعجب في قوله... قال له: كمثل حالي يا أخي؛ إن الأرزاق، كجسد (يونس) بعد خروجٍ من الحوت، تحتاج لظلٍّ... إن رزقي لم يجد ظلًّا.

وصمتَ متنهّدًا كالمتردد في استكمال ما بدأه، ولكن رغبة الاستكمال كانت أقوى:

ـ هذا الأخ منطقه غريبٌ، ورؤيته غامضة للحياة، قال كلامًا فيه كثير من الشطط والمبالغة، قال: إن الإنسان عدو كل مَن هو قريبٌ منه (صاحب، صديق، أخ، جار) أو هو عدوٌّ خاملٌ ينتظرُ لحظةَ انفجار. ولكنه يهابُ كل مَن هو بعيدٌ عنه إلى أن يرى في هذا البعيد ثغرةً لضعفٍ. وهو الذي تدور عينه تنظر وتبحث كعين صقرٍ في المواصلات العامة وفي وجوه الناس ليستكشف من هو أضعف منه ومن هو أقوى منه. لم يذق نعيم الحياة إلا بكثرة الضعاف من حوله.

فقال (ماهر):

ـ وفقنا الله لما يرضاه.

٧

لم ينطق (ع ي س) كلمة أثناء وقوفي، واكتفى ببعض الإشارات إلى ورقته، ينبِّه بها (ماهر) الذي كان يطالع المكتوب فيها لحين. لعل صمته طوال حديثنا، وعدم اهتزازه بصوت (أبي عبيدة) الذي يهتز له أي شيءٍ؛ أنَّ إلهامًا أليمًا تخطَّفه لأرض المُبهمات. فالإلهام أبدًا أليمٌ، وله حقُّ الاتباع والخضوع. ولحلمه الذي هام به. لقد مشى (ع ي س) خطواتٍ في الأدب ليست هينة. بداخله أحلام كثيرة. أهمُّها أن يصبح أديبًا أريبًا.

إني أرى (يوسف) الآن يترأَّس دائرةً يلعبون فيها (الطاولة) على المقهى، خلف (منذر)، لا يبعد مسكن (ع ي س) وأخيه (يوسف) عن هذا الحي، وكان الأخير من دفعة (منذر) في الهندسة، وبينهما زمالة الجامعة.

كان (يوسف) ينظر دائمًا لأخيه الأكبر نظرةَ استنكار ودونيَّة؛ لأنه سلك هذا المذهب الفكري، على أنَّ (يوسف) يعلم أنَّ أخيه ليس مثل هؤلاء الحشد، فهو انضم إليهم بعد ما انتشر الالتزام بين الشباب. فحكى عن أخيه بعض الحكايات وهو في الجامعة؛ إذ كان في الفرقة الأولى، و(ع ي س) في السنة الأخيرة... وقبل تلك الحكايات...

إنَّ (يوسف) لا يتورَّع أمام أصحابه أن يُقلِّد مشية أخيه الأكبر ساخرًا منه؛ فيقوم ويرفع كتفه الأيمن مع المشي على مقدِّمة الأقدام؛ حيث لا يمس الكعبان

الأرض، ويسخر من مظهر فمه حين يضحك، الذي يميل ناحية الشمال، ويضيق كذلك من ذات الناحية.

وكشف عن أسرار أخيه سِترَها لأصدقائه من فرط غيظه، كأنه يتكلم عن عدوٍّ، لَمَّا رآه يحاكيهم في ملبسهم وطريقتهم... وبعض الحكايات التي سأحاول ترتيبها...

مع بدايةِ الألفية، كان (ع ي س) في فترة الجامعة هائمًا مأسورًا لكلمات نزار قباني؛ التي تتحدث عن طبائع النساء -الحالمات الرقيقات اللائي لم ينلنَ حظهنَّ الناعم الحقيقي من الاهتمام من رجالٍ كالجلاميد- والعروبة المفقودة.

ولولا غناء أحد المطربين بهذه الأشعار ما عرفها. بصوت وأشعارٍ كانا تهوي إليهما آهات قلوب الرقيقات التي تُترجم في الحال إلى دباديب فوق المسرح؛ عزَّ عليه أن يرى هذا ولا ينتفض فيزيح الترابَ عن خبءِ مواهبه، فأراد أن يجمع تلك المعضلة؛ آهات النساء والعروبة... ولا ينفك يخلع عنه (الطقم) المحبب إلى قلبه (الذي طالما يبغضه يوسف كما قال)؛ قميصه المقلّم بخطٍّ بني وخطٍّ رمادي، وبنطاله القماش البني، الضيق من منطقة الحِجْر، والذي يظهر بمظهر غير لائق من الأمام، مع أن القماش متاح.

فكان يستكين وحيدًا تحت شجرةِ ظليلٍ في الحرم الجامعي الشريف، ينظر للأمام، يستدعي الإلهام محاولًا مُنجاة الإبهام، ثم ينظر لورقته (كما ينظر أمامي الآن)، ويكتب: (أين أنت يا وطن العرب)... فأرْضى غرورَ عروبتِه...

ثم بعدما انقضت نزعات الإلهام بسلام، وتحوَّلت إلى كلام في بضع حروف جسام؛ قام ليتمشَّى زَهوُهُ بضعَ خطواتٍ، شاعرًا أنه قد جَنى الشموخَ كجني ثمارٍ لا تتدنَّى إلا لقطوف يده، وهذا الحشد الخفير في الجامعة لا يشعرون به، ولا يعطونه قيمته الحقيقية... يروحون ويغدون حول الكافتيريات لملء بطونهم هامبرغر.

إن في نفسه قناعةً دائمةً أنه لديه قدرات كبيرة، وجليلة، حبيسة، ولكنه ما زال يجهل ماهية هذه القدرات، فكان أبدًا تائهًا على قدر هذه القدرات التي يجهل ماهيتها، إلا أنه على الدوام يشعر بالفراغ النفسي. فكان متخبط الاتِّجاهات والأهواء على حد قول أخيه (يوسف)؛ فتارة يجتمع مع السلفيين، ويتسم بسيماهم، وتارة يحاول أن يواكب العصر (بالطقم المحبب) ظنًّا منه أن السلفيين لا يواكبون العصر. (هو الآن يلبس الجينز كملابس الشباب المنتشرة، ولكن تشعر بطغيان تناسق الألوان كالملابس القماش؛ أي أنه انتقل من القماش للجينز بنفس الذوق ونفس اللمسة) فكان محطَّ سخط دائم من أخيه (يوسف) المتفتح غير المنغلق.

لقد مر (ع ي س) بخطوات مهمة في درجات الأدب. نعم... هو لم يمر بعد بالخطوة العظيمة التي هي نقلة على خطورة جسيمة في الأدب، خطوة: (زخّات المطر). ولكن خطواته من الجحود إنكارها.

إن الأدب الحديث علم كبير، وخطواته تحتاج قلبًا جسورًا؛ فمنها: خطوة محاكاة

الرسائل للحديث عن الزوجة. وخطوة حديث الأديب عن عدد البلالين في حفلة طهور ولده، ولولا الملامة لأرفق صورة المقطوع من الحمامة، وعن أول يوم يملأ فيه بامبرزه.

أما خطوة الجهابذة النحارير؛ فهي صورة لكتاب في مكتبة أنيقة، وضع كل كتاب بها في موضعه الذي يليق به في الصورة الملتقطة بعناية، وتعليقًا على الكتاب: (لقد اقتنيته بعد بحث دامَ قرنًا). وأثرُ الكتابِ، وحديث صاحبه عنه، على نفوس الأتباع كأنه طبقَ عليهم الأخشبين خضوعًا لإمامته وفرادته.

لم تشهد هذه الشجرة قطوفَ الشموخ حين ينحت كلماته من الشُّهب فقط، وإنما شهدت أحلامًا وأحلامًا، كان يحلو له الانفراد تحت ظلها؛ متخيِّلًا نفسه في مشهد لفيلم عربي قديم. مَشوقٌ أضناه حلمٌ أن يعيش قصة غرامٍ يتسامر بها الجيران والأجيال، وتتناقلها الركبان سيرًا. وبالجِمال. وتكون ناموسًا أعظمَ لأفئدةٍ رانيةٍ للوعات الهوى.

لا؛ لقد كان يعيش هذه القصة حقًّا في ظليل شجرته التي شهدت حبَّه المنسوج بمكنون الخيال، فعروق كلِّ ورقة فيها مقدَّسة؛ إذ تشتمل على عاطفة مختلفة مع محبوبته؛ فتلك الورقة يومَ تشاجرنا، وتلك يوم تصالحنا، والتي كادت تتساقط تُنبئ بموعد خصامنا.

فما كان أحوجه إلى أن يرى حمامةً على فَنَنٍ تغنَّى. هيَّجَ شجاهُ الأشواقَ. فليس للحب معنًى إلَّا أن يتحدَّث عنه الناس. فيقول في نفسه: (مَن لشوقٍ برقيقٍ لو

يعلمنَّه العذارى لأطعمنه الهامبرغر).

وهو لم يغفل عن الوسائل التي يمكن لها أن تلفت إليه الانتباه؛ إذا كان يحمل جيتارًا مثلًا... فيسرق نظرات الفتيات الحالمات حوله، ولكنه كان ينظر لأمثال حاملي الجيتار على أنهم شباب تافه...

أما هو، فبين أَخْبية كلماته شُهْبان القذائف التي لا ترد بأيادِي جيشٍ لُهَامٍ... هو من زمرة المتألمين لوضع العرب وضعفهم، وبذاءة ثقافة الشعوب العربية، إلا أن عقله كان هامدًا عند التسعينيات والثمانينيات، وكل هذا التطور التكنولوجي وغير التكنولوجي لم يؤثر فيه قط، حتى على مستوى الهلس وإدراك تفاصيل الواقع... مفردات كلماته الشخصية -وليست أشعاره- تخبرنا أنه ما زال في هذه الحقبة فعلًا.

وكذلك طريقة التفكير، ودائمًا ينظر للأجيال التي تصغره على أنها أجيال فارغة إذا قارنها بأحد كلماته التي لصواعقها نحيبٌ: (أين أنتَ يا وطن العرب)...

مع أن هذه الأجيال لديها قدرة هائلة على استيعاب المستجدَّات اليومية الكثيرة الحدوث خلال اليوم الواحد... استيعابها كاملةً دفعة واحدة كأنها قديمة، وكأنها مر عليها زمن طويل.

أما هو، فدوران عقله وطريقة عمله على الطريقة القديمة (ولا أعني هنا أن هناك طريقة قديمة وطريقة جديدة في دوران العقل واستيعابه)، وإنما الأمر متشابه في كل جيل منذ الخليقة، فهناك مَن يتمسَّكون بأساليب معيَّنة؛ ليكون

رجلًا ذا هيبة، كأنه يصطنع الثقل في الكلام والحركة، فبهذا أصبحت طريقة كلامه وحركاته تتماشيان مع جلال عمره...

ويكون (ع ي س) في أوجّ وذروة رومانسيته في فترة مولد عبد الحليم. فهي فترة كفترة آثار غبار الحصاد على عيونٍ أرْهفها الرَّمدُ، ولكنَّ آثار المولد تكون على رهاف القلوب. فإنَّ فترة المولد التي يقيمها المنتفعون من إحياء ذكراه سنويًّا تدرُّ عليهم الأموال، لا يلتوي جهدهم أبدًا عن إخفات هذا المولد.

منذ موته... تُعادُ علينا آلامه بأسطورية، وأسرار جديدة حصريًّا لم تُكشَف بعد كل عام؛ فيغرق من ذاك المعين شبابٌ من أمثال (ع ي س) في تخيُّلاته التي تهيِّئ له مقابلة زبيدة ثروت في يوم من الأيام، ويصنع يومًا من عمري جديدًا فوق مراجيح المولد، ويربح لها دبدوبًا.

ولكن (ع ي س) من المُجددين القادرين على الجمع بين دبدوب زبيدة ودباديب أشعار نزار... بين القِدَم والحداثة وما بعدها وما بعد بعدها إلى أن نبلغ الأسباب.

فبعد أن أرهقه الإلهام في اقتناصه... وشعر أنه قذف شُهبان الكلمات من ميكرفون جامعة الدولة العربية مخاطبًا الأحجار؛ إذ كانت فارغة. مع شعوره أن الأرض تضيق به من مكابدة همٍّ تجيش له الصدور، وأن جميع المذاهب السياسية والفنية والأدبية من تراجيديا وكوميديا سوداء وعدمية ووجودية وفنتازيا، وكل المسميات التي أجهلها، ولا أعرف معنى ما أعلمه منهم؛ شعر

أنها لا شيءَ أمام إحساسه الذي تنوء به الجبال. ذهب إلى كافتيريا كلية الحقوق؛ ليحتفل فسأل بائع السجائر: (هل لديك مارلمبورو؟). فقال: (نعم). فقال المُلهم: (طب هات سجارتين كيلوباترا ع الحساب). فيضحك بائع السجائر من المزحة اليوميَّة.

التقى (يوسف) ذات يوم بأخيه بعد مزحة السجائر، فوجده يقف قليلًا راكنًا كوعه فوق حامل الطعام الملتصق بجدار الكافتيريا من الداخل، فينظر بخلسة إلى فتاةٍ تأكل طعام فطارها في ذات الموعد. فلا يُعلَم مَنْ يتذوَّق مَنْ؟ أيتذوَّقها الطعام أم تتذوقه؟

ثم يُخرِج من جيب قميصه قصاصة آخر أشعاره، ويضعها على الحامل، ويمسك قلمه، وينظر إلى سقف الكافتيريا... مع نظرة أخرى خلسة للفتاة... مع ضم جنب شفتيه وضيق عينيه، كأنه يكتب شيئًا.

كان ينظر إليها وهو على يقين بأنَّ مجده الآتي لا ريبَ فيه؛ سيجعلهما يتبادلان الأدوار، هي التي ستنظر إليه في المستقبل، وهو لا يعلم حينها بأيِّ شيءٍ يتدبَّر من أشعار، ولكنه بالتأكيد سينظر إليها نظرته (نظرة: دُمتم بخير) لكل المعجبات الحالمات الكثيرات من حوله، إنَّ من بنيان مجده الذي نسجه خياله؛ كلماته الفذَّة الفريدة التي تَمْتَطي الدماءَ في قلوب الحالمات؛ ليتدفّق على الخدود.

ثم خرج هو وأخوه.

وحيث إنَّ البداية الحق للأدب في بلادنا؛ هي أن تبدأ بقصِّ القصص عن

أطفالك وزوجتك، وكيف هي معاملتك التي تحتاج لدورات تدريبية؛ لتعلم البشرية كيف يكون هذا الحق. وتتكلم في معانٍ يعلمها خذاريف الولدان من قبل الدوران...

فقد بدأ (ع ي س) الطريقَ من أرحب أبوابه؛ إذ لا يحتاج إلى دُربة وورشة كتابة، فالرجل موهوب بحق. ثم يزيد الأديب الموهوب في الحق؛ فيجد بيته قد ضاق على إمكانياته المكبلة، فيدخل بيوت الآخرين ناصحًا أمينًا، ويبحث في الأمور الزوجية فَرْع: (باحث في أمور المطلقات).

وينصح الناس بعدم نشر أشياء عن حياتهم، وهو بعدها مباشرةً يكتب عن أبنائه: (البارحة في أجن الليل كاد العطش يشق ريقي. فوقفتُ في منتصف الصالة... وقد تعبتْ في ترتيبها وتنظيفها زوجتي أم سوسو طول اليوم، وخصوصًا هذه السجادة التي شقيتُ لأجل اقتنائها ثلاثة عشر عامًا من عمري... فناديتُ: أريد كوب ماء... سمع ابني صوتي ولم يبالِ، ولكن سوسو جرتْ جريَ الغزلان إلى باب الثلاجة، وأتت بالماء المثلَّج لأبيها. #حنية_البنات).

إنَّه لساحرهم بألمعيات خبراته في تعاليمه الحكيمة مع زوجته، والتعامل التربوي الفريد مع أطفاله. ومفتونون أيضًا بكلامه حين ينصحهم بعدم نشر أخبار عن حياتهم الشخصية: (لا تحكوا عن حياتكم الخاصة)... والناس معجبون بهذا وذاك، وسيظلون يُعجبون بكليهما أبد الدهر، وسيتأثرون عاطفيًّا

من ذاك وذاك من الشخص عينه حتى قيام الساعة.

إن الناس مولعون بالبطولات التي تتعلق بالشهامة. ولكن... ما الحل بالنسبة لإنسانٍ قام بعملٍ شهمٍ بطوليٍّ، ولم يره أحدٌ ينشر خبرَه إلى الناس؟

فهم لن يروا تناقضًا؛ لأنَّه في الحقيقة ليس هناك تناقض؛ لأنَّه في بعض الأوقات... المتبوع يجعل التابعين له؛ كأنهم هم أيضًا متبوعون من غيرهم، أو يشعرهم أنهم الند بالند له؛ أي: هم في الموقف سواء؛ يتعرَّضون لتلك الإغراءات في الحديث، وفي عدم الحديث في ذات الوقت. وذلك من طول معاشرة وتركيز هؤلاء التابعين لذاك المتبوع، فأصبحوا يتسارعون في خلق الأعذار له من قبل أن يفكِّر هو في أيِّ حجج لنفسه.

أي: حين يخبر الآلاف عن حياته الشخصيَّة، كأنه يقول لهم: (هذا بيني وبينكم يا خمسة آلاف... ولا تقيسوا عليه نصيحتي لكم بألَّا تذيعوا أخباركم الخاصة. فأنتم مثلي وأنا مثلكم... كلنا ننصح الناس من الفوائد المستفادة من حياتنا الخاصة... ولا بأس أن ننصح بعضنا بنفس هذه الأخبار؛ لتبادل المنفعة بين الناس، ونقل الخبرات، وكلنا راعٍ... حذارِ حذارِ من نشر أخبارك الشخصية. ولكن لو قمتَ بعمل رائعٍ مع زوجتك أو أولادك فيه نفع للناس... فلا بأس بإشهاره. ولكن خافوا على حياتكم الشخصية. وكلنا متبوعون من أناس غيرنا، فلا بدَّ من نصيحة الناس في كلا الجانبين؛ عدم الحديث، والحديث من أجل استفادة المسلمين). هذا كلام رائع... كالذين هم ماهرون في التكسُّب

يوم البأساء والضرَّاء.

مَنْ إذن يراه الناس بغيضًا منبوذًا شاذًّا مريضًا مهووسًا؟ قطعًا ليس الذي يذكِّرهم بأنهم أنعام، بل الذي يذكِّرهم برداءة العلف المُلقى إليهم...

يتلوَّى كلامُها غنجًا تِباعًا لما تلوَّى ما خفيَ فيها، وترقّق أوتار صوتها الحنون، إذا اشتكتْ فئةٌ من النساء أزواجها، سواء أكان على خطأٍ أم كان خطؤه لا يستحق، وتُفشي بتنميقٍ يشوقُ مساؤَه، تلك أساليبها في الضغط الشعوري؛ لتُشبع إحساس المظلومية الواقع على الكائن الرقيق...

إن شرط العبودية التامة للمشهور من عبيده: هو أن يشاركهم في حياته الشخصية. هذه هي شكوى السيدة المِغْنَاج... فهذا فنٌّ فذّ، له من مردود الفوائد على المشهور ما لم يُحصَر بعد.

مثلًا: قد يحدث حدثٌ عامٌّ جديدٌ. ومن المؤكد مع كل شيءٍ يحدث أن ينتظر العبيد معبودهم؛ ليسكب عليهم منارة عصارة حكمته. فيرى المعبود إذا أبدى رأيًا في الحدث، قد يخسر معبودًا آخر لديه الآلاف (والقضية هنا ليست في المعبود الآخر ذاته، وإنما في عبيده؛ كل معبودٍ يأمل في اقتصاص عبيد من عبيد غيره، وهذه موهبة فذة أخرى... إنه السوق المتاح لشراء وتبادل العبيد)، أو قد تظهر طوية هذا المعبود. طويته الاعتقادية عن شيءٍ ما، لا يعرفها عبيده عنه.

إن المنقذ الفذ في تلك الحالة الشائكة، أن يهبط عليهم معبودهم بخبرٍ عن حياته الأسرية، ولا سيما عن مأساةٍ أو خبرٍ لا يجرؤ بعده العبيدُ على سؤاله عن رأيه في

الحدث العام الجديد، ويمرُّ الأمر (سكينة في الملبن المربرب)، بل تحضنه آهات العبيد الفياضة الجاهزة دائمًا تضامنًا.

وإن كان وجود المشهور بين الناس، هدفه الأول هو دعمهم ونُصحهم، وإنارة الطرق لهم؛ هكذا يزعم المشهور، وهكذا تفهم الناس، وهكذا هو الاتفاق غير المُعلن بين الجميع.

ولكن لو تأمَّلنا... لوجدنا أنَّ الحالة تختلف اختلافًا جذريًّا؛ إنَّ كلَّ هؤلاء الناس هم الذين يدعمون المشهور في حياته الخاصة والعملية، وليس العكس، إلى أن يتمادى المشهور في هذه الحالة، ويُبدي لهم أن حياته هي المثل الأعلى الذي يُحتذَى به، وهفواته وذلَّاته هي هفوات وذلَّات عظماء، حياته التي من الواجب على كلِّ أتباعه أن يظلوا ساهرين داعين الله في سلامتها وإكمالها وسعادتها.

وإذا تفضَّل المشهور عليهم بحكمته اللوذعيَّة، ونصحه الذي يُدخل الجنة؛ كان تأثيرهما على نفوس الناس؛ كإنسان لا ينتظر كلمة حلوة من شخص ما، وهذا الشخص قال تلك الكلمة الحلوة أخيرًا؛ فَلَكَ أن تتخيلَ تأثير كلمته على هذا الإنسان... حتى يصل المشهور في قرارة نفسه حين ينصح الناس لو بكلمة واحدة طوال السنة؛ أنه يبذل جهدًا عظيمَ النفع للناس، وأنهم مهما قالوا من كلمات في دعمه يردون له الجميل على جهده العظيم... مهما قالوا... فلن يوفوه حقه، فهو الذي يُضحِّي من أجلهم ليل نهار.

من الصفات التي يُحمَد عليها المرء؛ توقُّعه أشياء قد تكون سببًا في اضطراب مَن حوله، فيقوم بتنبيههم ابتداءً. وهذا من علامات البصيرة. يقوم (ع ي س)، الذي يملك هذه الصفة باقتدار، بالواجب عليه فعله؛ وهو تحذير المقرَّبين منه مخافة المفاجآت التي لا تتحمَّلها القلوب الرقيقة؛ فهم إذا كانوا يمشون معه في الطريق، وجاء أحدهم -سواء شاب أو فتاة- وطلب منه التصوير معه أو مجرد السلام عليه، فلا يروّعهم هذا... هذا أمر طبيعي... فالرجل معروف مشهور. ولأنه لا يُحب أن ينبه إلى شيء قد لا يحدث، فإن (أحدهم) -في أوقات- يكون له صاحب لا يعرفه مَن يمشي معه؛ جاء باتِّفاقٍ مُسبق من أجل السلام على المشهور.

لكن أخشى ما أخشاه، أن تكون نهاية (ع ي س) كنهاية (زوجة رجل مهم)؛ إذ لا يعلم إلا الله حالتَه إذا أخذَ الموتُ منه مُتابعًا بغير تعويض، فما هي حالته حين يعلم أن متابعًا ألغى بيده متابعته؟ كان الله في عون أطفاله... فهم وحدهم مَن ينصب عليهم غضبٌ حميمٌ من أبيهم حين تُنكز أعصابه في كل جانب من فقدانِ متابعٍ واحدٍ، يُنسيه غضبُه معاملتَه الرقيقة مع أطفاله على الورق.

فإذا كان (ع ي س) يرى في (ماهر) الخطوة التي يجب تخطيها للإمامة، أو هو النمط للشاب الملتزم الذي يجب امتثاله للالتزام، فإن الأخير يرى في الأول أديبًا يمكن السير على حذو خطاه، والاستفادة منه للتعبير عن مشاعره، ولا سيما أن (ماهر) يحاول اختراق الأدب في هذه الأيام، ولا أقول إن الأخير يتملق

صاحبه... وإن ظهر ما قد يُوحي بهذا... ولكنه وجد مَن لديه خبرة ودُربة ليقتديَ به...

إذ نظر (ماهر) للورقة مبتسمًا، شاعرًا بأن فارسَه الأديب قد روَّضَ ما شطَّ من المرام، قائلًا ببهجة الحماس مع التمنِّي أن يقول مثل أقوال صاحبه الأديب:

ـ سدَّدَ اللهُ خطاك يا أخي، ما شاء الله ولا حول ولا قوة إلا بالله، أنتَ على ثغر. عسى كلماتك تعيد الأمجاد في النفوس.

٨

أما شاشة تليفون (عطية) الملتصقة بوجهه، فما هي إلا ستار. فالموظف إذا كان حماه موظفًا، فالعلاقة بينهما أشبه بتلاوة اللوائح. حتى كادوا يلصقون في كفوف بعضهم عند السلام طوابعَ الدمغة. ولديهم قدرة فريدة على التنبؤ بزيادة جنيهات فوق راتبهم... التي تحدث على مدار حياتهم الوظيفية مرتين.

وفرصة... يُريح أذنيه من لوائح (شاهين)؛ إذ المسكين معذورٌ... فاللوائح الكبرى تخرج من فم زوجته، التي هي نسخة مصغرة من والدتها السيدة (سميحة)... لكن (عطية) لا يتحرَّج في أن يتحدَّث عن أشياء غريبة في جلسات الأصدقاء، وفي الحقيقة هم الأصدقاء المقربون، الذين ينقلون عن صديقهم:

(فإذا ما كانت (سعاد) غَضْبَى عليه، وأراد أن يوقظها بالليل... كادت تقلع عينيه بكوعها الأيمن وهو خلفها على السرير، ومع كلِّ تكرار للمحاولة تَزيدُ ردَّةَ الكوع، ولا يستسلم المجنون المتهوِّر غير خائفٍ على عينيه وعظمة أنفه التي مهما كانت عريضة، فإن كوع (سعاد) كـ (يدِ الهون) تسقط على تلك العظمة كـ (فصِّ توم)؛ إذ يلتفت المتهوِّر بكل قوة... يرتجُّ بها السرير ثم... ثم... يُديرُ ظهره إلى ظهرها، فينام ليلته كظيمًا، مستوحشًا سريره... على كلٍّ هو لا يتأخَّر في استدعاء النوم، كلها نزوات تُنسَى مع أول خاطرٍ. ولا يجرؤ أن يقول الكلمة

التي دائمًا يقولها داخل نفسه مع تلك المواقف بصوتٍ مسموع: انتي مابقتيش تحبيني)...

لا أدري... هل هذا الفعل خاص بجميع الموظفات مع أزواجهنَّ أم هي حالات فردية؟

ولا أدري... لِمَ كلَّما رآني يتلو عليَّ وصيته: (لو أمامك واحدة مطلَّقة، وتوافق على الزواج، ونتقابل ساعتين عند أهلها، أهو الواحد يكسب فيها ثواب).

قد يكون شطَّ عقله من ماراثون المطلقات المُسْتطار في كل مكان كشظايا بركان، وأراد أن يلحق الرَّكْبَ، وأن يغرف كما يغرفون، كما يسمع كل يومٍ ويرى، لكنه ما زال مشاهدًا غير فعَّالٍ في ذاك الماراثون.

وتداعتْ، من كل جانبٍ، تفسيراتٌ عليها غرابةُ هذه الوصية؛ هل هي من الآثار الجانبية الناتجة من ارتجاجٍ رجَّهُ كوعُ (سعاد)، أم هي ترسُّبات تراثية من الأفلام المصرية، أم هو حلمٌ من أحلام ميعة الصبا المفقودة (اللذة من دون مُعكِّرات)، أم أنا مأذون الحي؟

ولكني أتحمل... فعمَّا قريب... سيزول هوج حرارة تلك النزوة كغيرها مع تخرُّج ابنه الأكبر من الجامعة. فلا يقبل مجتمعنا أن تجتمع رغبة الزواج في الأب وابنه في آن واحد.

ولكن في طيات هذا الوصية أن (عطية) لا يفعل الفاحشة؛ كالكثير من حوله في الوظيفة، ويكتفي بالنشوة التي تدغدغ قلبه حنينًا حين يرى احمرارًا طفيفًا

على وجه إحدى الموظفات بعدما قال لها في يوم وظيفي عابر: (صباح الخير يا حلوة).

لقد أنهى الابتدائية والإعدادية، ولا مجال لثانوية هنا، ولم يلحظ تفاصيل مدرساته. أو لم يخيل إليه أنهن جنس مختلف. ثم بعدما اقترب من الخمسين وانتهى ابنه من الجامعة، وبعد تغنّج النساء (كما قال) تغنّج في الطرقات بملابس كانت تخجل من ارتدائها نساء الجيل السابق في غرف النوم والأنوار مظلمة، بعد كل هذا بدأ يلتفت (عطية) لتفاصيل النساء ويضرب حظَّه قوارع الندم؛ لأنه تعجّل في الزواج قائلًا: «أنا كان لازم أدَقّق أكتر من كدا في بعض التفاصيل. أنا اتظلمت اتجوزت في نهاية التسعينيات وزفّتني فرقة في الشارع كانت الدنيا مليانة تراب من رقصهم وحركتهم كحركة الغنم، ولسه فاكر الطقم بتاعهم: قميص أصفر بيلمع وبنطلون أزرق بيلمع، وعشت يوم تعيس لما العيال في الشارع أفسدوا نشارة الخشب الملونة على الأرض؛ كانت برسمة قلبين كنت عايزهم يظهروا واضحين في الصورة وأنا بشرب الميرندا مع العروسة»... وبدأت الحكمة تجري فوق لسانه: «كلهنّ بيضربوا بوز، ولكن بوز وتكة ولا بوز عنزة».

وإذا ما كانت عليه (سعاد) راضية، تغنَّى لها: (بَـانَتْ سُـعادُ فَـقَلْبي اليَوْمَ مَتْبولُ)، وقد تحتارُ العقولُ كيف يتغنَّى إنسانٌ شعرًا عن الفراق في حالة السعادة؟ ولو تمهَّلنا قليلًا، وأبصرنا ما أبصره فطينُ العقل بَطين الجوانب في

هذا الشعر، ولم يبصره غيره من العالمين، لزالت عنّا حيرة العقول.

لقد حمَلَ دلالات الألفاظ على العامية؛ بمعنى أن لفظ (بانت) العامي يقابله: (ظهرتْ) في الفصحى، وكذلك (متبول)؛ أي: قلبه مَنقوع في التوابل؛ أي: أن البصير يغنِّي الشعر هكذا: (ظهرتْ من خلف الباب سعاد فقلبي اليوم منقوع).

إن طبائعه وصفاته الجسدية يتنافسان على امتلاك الرخاوة والليونة، وكذلك يده ممتلئة جرداء بغير كُلفةٍ، ولا حتى ينتظر فراغ البيت عليه؛ لينزع منها الشعر، ولحم صدره كما يطلق عليه: «فِطير مِشلتت». فلو رأيته في صورة مع امرأة؛ لرأيتَ أربع أثداء ما بين نهوضٍ وقعودٍ.

ولا يكتفي بالغناء فقط، فهو يعبِّر تعبيرًا حركيًّا ظريفًا يرفرفُ له قلبُ (سعاد) في بعض الأوقات عند كلمة (متبول)؛ إذ جعل يحرِّكُ يده، كأنثى ناعمةٍ غيداءَ مُنعمةٍ مِكسال ثقالٍ قد فتَّرها النعيمُ، نضجَ لحمُها فوق أرائك الديباج، والذي وصمَ نسيجُه على جلدِها آثارَه مع شدة نعومته... والتي يظهر من رغد نعيم يدها أنَّ هذه اليد؛ لا تُرفع قط من عجين البيتيفور. إذ يُسْتلَانُ منها العجينُ، وتُمطرُ نُحُوسَ الزمان بساتين... وتكاد تنسى أصابعَها في عجينها.

ولم يكن المثير تقلُّبُ يد (عطية) كأنَّه يقلِّب قطعة بانيه في الدقيق، ولكن كل الإثارة؛ كلها: في اللفتة السريعة جدًّا بعدما انتهى من التقليب وعمل دائرة بأصبعين؛ مثل رسمة قُرص الطعمية حجم صغير غير محشيّة، مع التواء أسفل

الراحة كأنها رأس مشنوق ساخ جسده مع صعود روحه. إن بداخل صاحب هذه اليد الناعمة؛ أنثى حقيقية تصرخ تريد التحرر، بداخله أنثى تريد (أن تبظ) علينا من أصابعه الناعمة التي تخلو حتى من العظم اللين. ولكنه يلقى جزاءه؛ إذ تبتسم له (سعاد) ابتسامة: لقد قَبلتُ اجتهادك.

لكن لبعض اللحظات خَيَّلَ مَريدُ الشيطان الراكد في عقل (سعاد) أنه يريد منافستها في فن المطبخ، من إتقانه الخلَّاب؛ لَمَّا رأتْ أن البانيه في يد زوجها يثير أنوثتها أكثر ما تثير يدُها رجولةَ زوجها. على أنها تذكَّرت في هذه اللحظات كلامها عن ملاحظة ما. ملاحظة جريحة دامية؛ أنها دائمًا تقول له عند رؤية أسفل ساقه، تحديدًا موضع الحِجْلَيْنِ (موضع الخلخال) عند النساء... تنظرُ إليه نظرةَ مفتونٍ بفاتنٍ كنظرةِ رسحاء تسمّرتْ عينُها على ما بذَّ ونهَض من عجزاء.. نظرةٌ أدقُّ من مسح رنين مغناطيسي علمت منه دقائق ما يميزها عنها. تقول لما ترى اِكْتناز والتفاف هذا الموضع من الساق عند النساء الذي يشفي العينَ من الرمد: (المفروض أن نتبادل السيقان، تأخذ ساقي الضاوية، وآخذ ساقك الملفوفة)...

لطالما تخيَّلت نفسها تُحمَل على هذين الساقين. أو تراهما مرفوعتين أمامها؛ حينئذٍ تأوَّهَتْ آهةَ وَلَهٍ كاد ينخلع لها الحيزومُ. وكيف كانت ستعتني بهما أيما اعتناء، مهما استهلكتْ من (سويت)، حتى أنها ابتسمت ذات مرة مازحةً مع نفسها في غمر لذيذ تخيلها: (مش خسارة فيهم بوليصة تأمين)...

إلى أن وصل الأمر؛ بأنها تضع ساقها إلى جوار ساق زوجها وهو نائمٌ فيملؤها الغيظُ؛ أن هذه السيقان ضَرَّتها التي لا مسلك إلى ضرِّها... ولا يدري أحد... لعل كوع (سعاد) لزوجها في أيامها الغضبى من ورائه حقدٌ على ساقه الملفوفة، أو حقدٌ آخر قد يسكن في وُكُنات نفسها، وهي لا تعلم، أنها تحقد على مَن ينمو في أحشائها، ويرث سيقان المرمر من الأب.

وهذا (عليّ)... لقد اجتمعتُ أنا وهو في لجنة واحدة في الشهادة الابتدائية، فلم تكن التهتهة في كلامه، مصدرها أثقالٌ فوق اللسان، ولا ما قرأه من ألغازٍ، وتعلَّق في ذهنه طوال حياته في عقله اللاوعي، على سبورة الفصل في اللجنة.

لقد أغدق والده على مراقبي لجنته بطعام الإفطار مع المشروبات يوميًّا، حتى السيارة التي كانت تنقلهم من وإلى اللجنة، كانت فرعًا من الإغداق؛ ليدعموا هذا الطفل في مقتبل الحياة، وإن كان المراقبون بقلوب راضية ساعدوا الطالب على الغش، فلا ينفي وجود الحياء بداخلهم وعدم التبجح، فلم يكتبوا على السبورة إجابات الأسئلة مباشرةً، وإنما يكتب المراقب بيده اليمنى على السبورة التي هي خلفه، ورأسه ترقب بشدة ناحية اليسار وهي ناحية الباب؛ ليرى أي مراقب آخر لم يشرب معه مشروبات الصباح.

ولأنَّ (عليًّا) مُفرط في الثقة تجاه المراقب، كان ينقل كلامه المكتوب على السبورة، بصورته المعكوسة، ينقله كما هو في ورقة الإجابة، ما دبَّ اليأسُ في (عليٍّ) بعد رسوبه في الإعدادية، عددًا من المرات لا أعلمه، فركبَ مراقبو

الإعدادية ذات السيارة لسابقيهم في الابتدائية، ولولا الثانوية الخاصة ما ذهب (عليّ) إلى الجامعة الخاصة.

لعلَّ الذي مَحق هذه التهتهة عدةُ أسباب مجتمعة، بل وإحلال الثقة الراسخة مكانها. ولكن السبب الذي لا يمكن غضُّ الطَّرف عنه أبدًا؛ هو السيدة المتصلِّبُ رأيُها، صلابةً لو سقط عليها سقف البيت ما زاد السقف إلَّا تهشُّمًا. تحمي جمجمتُها دماغًا كحجر صوان من آثار صان الحجر. إلَّا أنَّ الكلمة الأخيرة لزوجها (شاهين). يترك لها مساحات كثيرة في الرأي. ولها صلاحيات أخرى معه، لكن إذا اجتمعت زوجة بمثل تلك الصلابة مع رجلٍ عصبيٍّ غضوبٍ، فإنَّ ثورة العصبية والغضب ستهدآن. أو تختفيان... بصورة كبيرة مع تقدم الزوج في العمر.

أمَّا طاقة المرأة... فإنَّ كل شيءٍ ناقصٌ وينتهي، إلا طاقةَ المرأة، وستفوز في النهاية. (كمثل التي تعلم أن زوجها يثور عليها ضرْبًا إذا أغضبته أو فعلت ما نهاها عنه، ومع ذلك تفعل المتجبرةُ ما يغضبه مع علمها ردة فعله؛ إذ يُضعضعُ عظامَها، قائلةً: أنا كدا ارتحت... لا تدري... أهي ارتاحت لَمَّا شفى غليلَها رؤيتُه غضبانَ، أم ارتاحت أثناء تكسير عظامها تحديدًا؟... حقًّا... إذا كانت الغاية نبيلة لهانتْ في سبيلها الوسائلُ الهالكة).

هذا في العموم، أما إذا كانت المرأة عند زوجٍ موهوبٍ حقًّا في تدمير أيِّ طاقة لها؛ سيجعلها تمشي على أربع، ولكن نادرًا... وقد يكون مُحالًا... أن تجد ذاك

الموهوب في التدمير مع زوجة بصلابة السيِّدة (سميحة).

هذه السيدة فريدة بحقٍّ؛ إذ لا تقبل أبدًا أن يسخر أيّ إنسان من أيِّ أبنائها، مهما كان هذا الإنسان، وليس لديها شعور ينبضُ فيها لِمَن سكنوا أحشاءها إلا شعور المساندة والدعم المطلق واللانهائي لهم، فهي لم تُنجب أبناءً ليخطؤوا. حتى وإن قتلوا فعليًّا...

لقد أغلقتْ كلَّ اللوم على المعقول، قائلةً: (ما الذي جاء بك تحت سكين ولدي، وجب عليك أن تخجل من نفسك، وأن تسارع باعتذارٍ لولدي قبل التفاف الساق بالساق. يا إمعة: إن ولدي كان يُريك سكينته، ولا يتحمل نتاج فهمك الخاطئ له)... ومما يُرثَى له؛ مثل تلك الأمهات لا يكون أبناؤها إلَّا معدومي المواهب، فلو كل موهوب لديه أمّ مثل هذه لسيَّرَ الأرضَ كيفما شاء.

لذلك يقف (عليّ) بجوار أبيه على قوائم الثقة تَرفعُه، ناظرًا الحشد الكبير الذي يزداد مع كل دقيقة، وبعد أن قاربت آثار الحبوب المنتشرة في وجهه على الزوال، المتُخلِّفة من هواية (تربية الحمام) فوق سطح بيتهم، اتَّجه (عليّ)، إلى شيءٍ أقل ضررًا، إلى التنمية البشريَّة.

وهذا ما صنعه دعمُ تلك السيدة. لقد جعلت من العياياء الطباقاء العَشَنَّق محاضرًا في التنمية البشرية. حقًّا لا يعيب الإنسان بداياته المتواضعة. وأيٌّ منا لم يبدأ بتواضع؟ فكانت بداياته وأول جمهوره هي مرآته، يقف أمامها يردِّد بعض الكلمات التي لم تكن مهمة قدر أهمية اهتزاز شعره المنسدل على جبينه أثناء

حركاته. ويُرجع شعيراتِه المنسدلة بيده اليُمنى المميزة بشيءٍ أقوى من البصمات، وهو ظُفر أصبعه الأصغر الطويل المتَّسخ الذي لا يقلِّمه.

فكان يقول مخاطبًا جمهوره الوحيد: (كن نفسك). (كن جميلًا). (أنت كينونة سر الوجود). (لا تيأس من جميع انهزاماتك). فتستجيب الشعيرات المنسدلة على جبينه. فتكون نفسها وجميلة، مع الانتعاش وعدم اليأس من الانهزامات والتساقط، وهذا هو المهم في التأثير على المرآة، وإذا أراد في بعض المرات أن يكون ذا مسحة دينية سيقول في المستقبل: (أكيد ربنا شايلّك فرحة كبيرة ورا الدبدوب اللي هناك دا). كل شيءٍ سيكون ذا مسحة دينية بعد ذلك بقليل؛ حتى الخمر والميسر واللواط...

(وسيأتي زمانٌ فيه إذا ضجرْتَ في قلبك من دون أن تتفوَّه بكلمةٍ؛ ضجرتَ من ضحكات ومرقعات عاليات لفتيات بنات عائلات في المواصلات العامَّة؛ سيزجّون بك في غياهب المجهول).

وهو يُرجع رأسه للخلف بقليل من الحدة، إنَّ مثل هذا الابن يستحيل أن يكون شيئًا ذا بالٍ في هذه الدنيا، إلَّا بمثل هذا الدعم الفريد من تلك السيدة الفولاذيَّة العزم والدعم، آهٍ... ماذا لو أقنعنا تلك السيدة في أن تتحمَّل مسؤولية أبناء كُثر؟

ذات مرة، مرّتْ (مروة)، فوجدته منهمكًا في محاضرةٍ مع المرآة، فقال لأخته: (أتعرفين أين العقل؟).

فردَّت باستخفافٍ ومبالاةٍ: (في القلب)...

فبُهتتِ المرآةُ التي يُحاكيها (علي)؛ إذ لم تمرَّ ساعة على معرفته تلك المعلومة من فيديو أحد المحاضرين... فكانت (مروة) ترى أخيها الذي يكبرها أجوفَ، مع الشفقة الكبيرة عليه؛ إذ لم يلحظ المسكين أن خطيبته كانت ستأكل وتشرب (الويتر) في أحد الكافيهات بعينيها العسليتين من قبل أن تقرأ قائمة المشروبات أثناء جلوس العائلتين في جلسة التعارف الأولى، مع التحذيرات الكثيرة من أخته، ولم يلحظ أنها لم يَلجمها ضعفُ الإشارات من أن تتحدَّث مع مشتركي سنترالات شرق وغرب عبر أيٍّ برنامج له شات (حتى لو كانت أرجل الحمام الزاجل، الذي سيرجع مُستقبلًا مُستخدَمًا في البريد).

وصارحت أمَّها بما رأت بعينيها أفعال خطيبة أخيها، ولكنَّ المقام الأول والأخير عند الأم هو رضا أولادها؛ مهما كانت النتائج. حتى أنَّ عقله لم يستوعب حين قالت له (مروة) أكثر من مرة؛ تصف التنمية البشرية وجميع العلوم المتعلقة بالطب النفسي، وكل الكورسات التي تحوم حول تلك المفاهيم، قالت له: (إنَّ علاج كل هذا في جزءٍ من آية: {أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ}).

فكان يتساءل في نفسه: كيف لكلِّ هذا الكم من العلوم، وكل هذا الكم من المحاضرات أن يكون البديل له جزء من آيةٍ؟

فذهب إلى غرفتها بعدما ردَّتْ عليه، يريد أن يقضي عليها بالقاضية، قائلًا مع اهتزاز شعيراته: (هو إبراهيم الفقي أحسن مني في إيه؟).

فازدادتْ شفقتها على أخيها بؤسًا. فلم يترك (علي) خطيبته من هواجس أخته، ولكن حزنه أنها تقاعست عن جلب أصدقاء الجامعة من الفتيان والفتايات لأول محاضرة له في سنتر الدروس.

ومن الصدمات التي تجرَّعتها (مروة) من أخيه، ولكنها صدمة حميدة، وزال حمدُها. منذ سنة تقريبًا سمعت في يومٍ صوت أخيها في ميكروفون المسجد، ففرحت كثيرًا من ظنها أنَّ الأخ سيرفع الأذان، ولكنه كان يُوعِّي ويُحذِّر الناسَ مشكورًا من الإشاعات والأخبار المكذوبة المنتشرة حول ما يدور في أيَّام ٢٥ يناير.

من قبل انتشار استثمار ملاعب الكرة الخماسيَّة بلونها الأخضر الجذَّاب، كان شيءٌ ما أكثر جاذبية في (علي) يجذب إليه الكاميرات فوق الملاعب الترابية.

للأسف الشديد، لم يكن استعداده بالإمكانيات الكثيرة من شراب أبيض طويل... لم يكن يرتديه أحدٌ غيره آنذاك. ولا (الشنكار)؛ ليحمي ساقه، ولا الشورت والفانلة. لم تكن كل هذه الاستعدادات قادرةً على إزالة (الفلات) الموجود في قدمه... إذ يُخطئ دائمًا في فعلٍ هو غاية في البساطة؛ أن يصوِّب قدمه إلى كرة القدم مباشرةً، على أنَّ الفاصل بينهما بضع سنتيمترات...

فكأن قدمه ثعلب نَهم وقعَ على مقبرةٍ عظيمةِ الجثثِ، فنبشَ عنها التراب، يفسد كل الملعب بحذائه الثمين بتلك الأحجار المدفونة، ويقلب باطن الأرض أعلاها كآلة حرثٍ.

كنتُ وما زلتُ أتعجب من ثقته، لا يُلقي بالًا للذين هم أصغر منه ويضحكون على طريقة لعبه، هو كان تسلية دسمة بحق للذين يملؤون الملاعب للبحث عمَّنْ يسقط ليسخروا منه.

وكنتُ أخجل له ولاهتمامه الشديد بملابس الرياضة. ولم يكن حينها يتمتَّع بحظٍّ من أناقةٍ إلَّا في هذي الملابس. كان يسبِّب لي ضيقًا نفسيًّا شديدًا، لا يعلمه، من كثرة تحْناني عليه، وإصراره في الحصول على الاستزادة من رثاء شفقتي، كأنه يختبر مدى مواساتي له أكثر من نفاذ ضحكاتهم.

لكنه كان أقوى من كل هذا، وأقوى مني ومن تعطُّفي، بل وكان مُستمتعًا. فينهض بعد أن ضرب الهواء بدلًا من الكرة، ينهض من فوق الأرض ببطءٍ شديدٍ، وينظر نظرات، هي أبطأُ من نهوضه... حوله... كأن الكاميرات تتلقف ما يُرمَى إليها من جميع حركاته الدقيقة؛ لتُظهرَ بسالته فوق الشاشات العملاقة التي تملأ الملعب، والتي لم تكن موجودة، ولتفهم الجماهير المترامية عنه ما قد يعانيه في الحال، وينتظر إحساسهم بالعدل تجاه مظلمته... بأن يخرجوا من الشاشة إلى الملعب، قائلين في صوت رجيج: (هذا مظلوم). فعلاقته بالكاميرات وثيقة من قبل المرآة؛ إذ ذهب إليها متمرِّسًا. وسيمشي على المسرح مستقبلًا بأدائه السينمائي بغير (شنكار).

أما خطواته الناجحة بحق. بعيدًا عن كل الإخفاقات السابقة، التي هي نجاحات بالنسبة له. حين استأجر غرفة لمدة ساعتين في أحد سنترات الدروس

الخصوصية، الذي يستريح فيه أحد المدرسين مع إحدى طالباته.

فكانوا ثلاثة طلَّاب؛ أما الطالب الأول فكان صديقه، أما الطالب الثاني فكان صديقه، أما الطالب الثالث فكان عاملًا يستريح بعض الوقت بعد أن قام بتنظيف المكان. شعر حينئذٍ بقوةٍ غامضةٍ، وأن كل شيءٍ قد تم بمنتهى الكمال، لكن ما يعوزه بحق هو الشهادات المعتمدة التي سيعطيها لطلابه، كيف سيحصل على إمضاء (السير: هنري)، أو (الدكتور: جوناثام).

كدتُ أنسى الأشياء المهمَّة؛ إن (شاهين) من الخبراء الذين يعرفون ما الذي يحتاجه المرءُ ليعيش، فيعرف لزوم الهواء ليتنفس، والماء ليروي الظمأ، ويعرف أن الإنسان لا تكفيه تلك المعارف ليحيا، ولكن يلزمه أعرف المعارف التي لا شائبة ولا زيغ فيها: التدهُّنُ بغبارِ عِليَةِ القومِ.

فإذا ما جاءت السيارة السمراء اللامعة تحمل برفقٍ أحدَ أعضاءِ الحزب الحاكم سابقًا. كان في استقبال عجلاتها، وإطاحة تلوث الأطفال بعيدًا عنها. ليسمعَ العضوُ، المُتعجلُ على الدوام، بعضَ تراتيل القرآن في عزاء أحدهم في المساحات التي يكون فيها (شاهين) نشطًا فعّالًا، بعدما أشْرفَ بنفسه على المقعد المُذهَّب المخصَّص في المكان المميّز، وزجاجة المياه المعدنية البارقة تُباهي من تحتها مفرشًا زاهٍ بياضُه...

فكان (علي) ولدًا نبيهًا؛ إذ تفوَّق على والده في فتح باب السيارة إجلالًا وسرعةً سحقتْ تاريخ الوالد كله، ذاكم الابن الذي نال حسدَ المبتدئين في ذلك العلم.

وكلَّما نظر (فؤاد) إلى وجه ابن خاله، قال: (اللي خلف مابضش)...

يا كرب فؤاد (مروة)، لقد أحسَّتْ بجدارن حجرتها تضيق كقبرٍ على أضلعها عند تذكُّر أفعال والدها وأخيها، كانت تظنُّ أن كل البشرية تعرفها، فتخجل وتشعر بالخزي أثناء التعامل مع الأصدقاء الجدد...

على سبيل المفاخرة الممزوجة بالمزاح... المزاح الذي لا يُراعي حالة السامع النفسية؛ قد أخبرتها أُمها تلك الأفعال، كتلك الأخبار التي تُلقيها الأمهات في روع بناتهنَّ من دون تمهيد -ولا يبالون بوقع تلك الأخبار على قلوبهنَّ- لتخبرهنَّ أنهنَّ ما زال أمامهنَّ الكثير ليفهمنَ الدنيا كيف تسير، وبعدها تشعر البنات شعورًا خاطفًا أنهنَّ غريبات عن أهاليهنَّ... لطالما شعرتْ أن كلَّ شيءٍ بسيط يجب تغييره في طباع أبيها وأمها، أو أي أحد من إخوتها؛ إذ تنفخ في نفوسٍ مُعطَّلةٍ... لا بدَّ أن تواجه مجتمعًا كاملًا قبل أن تواجه مَن تعيش معهم في بيت واحد، فتزداد حماسة آمالها في أن تصنع بيتًا يغلق عنها مجتمعهم عن مجتمعٍ تصنعه على عينيها.

٩

بعد سلامي على (شاهين) بما يليق؛ لأتجنَّب تبرُّمًا منه خَفِي إذا بَردَ السلام منِّي، قال:

ـ سيدنا النبي قال: **(أَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهُ)**.

ـ عليه الصلاة والسلام، الأمر كله، ساعتان وينفض كل هذا الحشد يا حاج.

ـ كنتُ أعلم أنك تحبُّهم.

ـ هل تكرههم أنت؟

ـ دعكَ من هؤلاء، هم لا يعنون لي شيئًا. ابن عمّك (فؤاد) يظنُّ أنِّي سأحرمه من ورث أمه، هل تعتقد أنِّي سأطعم أولادي حرامًا؟ أنا أخبرك بكل شيءٍ أولًا بأوَّل؛ لأني أراك أعقل منه بكثير، وأنت تعلم أن حركتي بطيئة، ومشاغلي كثيرة، وذهبتُ أنا وهو كثيرًا للمحامي ليطَّلع بنفسه على آخر المستجدَّات، وبالمناسبة، المحامي اليوم موجود على المقهى، كما تعلم هو يقضي ثلاثة أيام في بيته القديم، هنا في الحي. وهو مدعو لحضور خطوبة بنتي (مروة)، وأنت أيضًا مدعو... دعوتك بالأمس، وأكرِّر الدعوة الآن... أين (فؤاد)... لا أراه منذ فترة؟

ـ كان في الإسماعيلية، وجاء اليوم.

حجب عني اضطرابه ببراعته المعهودة في إخفاء حقيقة شعوره؛ إذ لا ينبغي لمثل

تلك الهيبة والرصانة اللتين ظلَّ يصنعهما طوال حياته أن يهتزَّا لمثل هذا الخبر، أو يجعلني أرتاب في صدقه:

ـ أهو في البيت؟

ـ نعم.

وقال باسمًا بسمةَ مكرٍ، يُبدي منها القوة؛ لتقع في نفسي أنه غير عَابئٍ بأمر (فؤاد):

ـ هو يعتقد أني أتأخر في مسألة الميراث عمدًا حتى...

فقلتُ محاولًا تفادي الوضع الحرج الذي أنا غارقٌ فيه:

ـ ليس لي صلة في هذا يا حاج، أنا أتحرَّج عند سماع هذا الكلام.

ـ ستحضر الدرس معهم؟

ـ إن شاء الله.

نظرة عينيه الثابتة غير المنفعلة مع أيِّ شيءٍ، والجامدة في السراء والضراء، والكلمات التي تخرج من فمه، وحقيقة ما يُدبِّر في نفسه. تلك الثلاثة لا تجتمع على انفعالٍ واحدٍ. والكلام منه على طريقة آلية، حتى ولو كان منفعلًا.

أما حقيقة ما يدور في نفسه، فليس له علاقة بالكلام الذي يخرج من فمه. تحتار الحقيقة في الوقوف على أيٍّ من ثلاثتهم. والشيء الذي قد يقترب من تفسير هذا؛ أنَّ حقائق الأشياء في النفس قد زُحزِحَت عن مواضعها.

ـ سيحضر (فؤاد) معك؟

فقلت مبتسمًا بعجبٍ:

ـ له طريق آخر.

ولم أدرِ، أهو إقرار أم سؤال حقيقي؟

ـ ألم تره متغيرًا في الفترة الأخيرة؟

فهمتُ بعد فترة من الزمن؛ لقد أراد أن يتأكَّد فرحًا بهذا التأكيد لمكنون في صدره، فمثله يصعب معرفة كلّ مراد كلامه في وقته... أهو راضٍ عن (منذر) أم هي رغبة ابنته الشديدة في الزواج من ملتزم؟

ـ رأيته منذ قليل وقد غيَّر مظهر شعره.

فابتسم:

ـ ألمْ تفكِّر في الزواج؟

كنتُ أشعر باختناقٍ جاهلًا سببه، شيءٌ يُسيطر عليَّ كليةً، وسبب الضيق أني لم أحدده بعد، كثيرًا ما تتناوب على روحي المشاعرُ فتضربُ حصنَ اتِّزاني، وبعد فترة يتبيَّن لي أن شيئًا بسيطًا هو الذي كان إشارةَ بدءٍ لكل هذا. ولم ينتظر منِّي جوابًا:

ـ كُلّ فترة يبتدعون لنا بدعةً جديدة، بالأمس بعد أذان المغرب، وجدتُ واحدًا منهم بلحيته الطويلة يريد الإقامة سريعًا. فرفعتُ صوتي معترضًا، وهاج المسجد وكلّ مَن فيه، لولا بطئي الشديد في الحركة لطردته من المسجد. كنَّا نعيش في راحة... والناس كانت تعبد ربَّنا من غير كلكعة... ترى حال البلد

هذه الأيام، وتدهور البورصة والسياحة -وهما يفتحان بيوتًا كثيرة- لا داعي لخروجك مع المظاهرات.

لقد كنتُ في شغل شاغلٍ بالتقاط الشيء الغامض الذي يثقل تفكيري... اكتشفتُ أنِّي كنتُ في عَقْد مقارنةٍ حادةٍ رأتْ سلوانها في انهماك ذهني؛ مقارنتي الجدّية بين بوز حذاء (علي) الواقف بجواري، وبين طول ظفر أصبعه الصغير المتَّسخ. أنا ولوعٌ بالوصول إلى نتائج.

إن مثل تلك المقارنات تحْسو عقلي كحسو طائرٍ قطرةَ ماءٍ، فلا تُبقي لي من مادته شيئًا أفكر به في مستقبلي، أو في كسب مالٍ. قد لا يوجد شبه بينهما خارج نفسي، ولكن كان الشبه جاثمة أرْكانُهُ على ذهني، نافذًا كل طاقاتي في غفلةٍ منِّي... يرتدي حذاءً أسود من تلك الأحذية الملعونة المدبّبة كابتسامته، والتي يرتديها العريس في عرسه.

كم تمنيتُ أن أرى الخابور الذي كان يجلس عليه مصمِّم هذا الحذاء وقت تصميمه له. عليه وعلى خابوره وعلى تصميمه لعنات الأرض والسماء...

بعد ارتدائه لفترة وجيزة، تتكوَّن ثنيات في مقدمته، لن يُفلح أيُّ جهد في تسوية هذه الثنيات، فهي كروح الكثير من البشر غير قابلة لاستقامة، والوسَخ المتغلغل بين الثنايا غير قابل للنظافة، حتى ولو تم تلميعها، ومداراة وساختها، فإن اللون سيظل مختلفًا عن المناطق المستوية... ما الجمال في هذا الحذاء القبيح،

وما الراحة في ارتدائه؟

رباه... لماذا أصرُّ على احتكار الذوق؟ يرتديه مع البنطلون الجينز، وكان الظفر متسخًا مع الأناقة، وعاجزٌ أنا إلى الآن عن تفسير لماذا إذا حدَّثني (شاهين) في أمرٍ، فكأنَّه يوقظ في نفسي الوقّادة ذات النبض الفيَّاض كلَّ الخواطر المتناثرة في الكون، والتي تحتاج إلى ذهني في ربطها لتتعارف ببعضها، لماذا يجعلني أشعر في لحظتي بكلِّ الآهات الحارَّة للنفوس البشرية التي لا تهتدي لمأوًى إلَّا في نفسي؟ خلا السلام... ما كان يدور بيني وبين (شاهين) كلام، ولكنه اقتنص معرفتي عبر (فؤاد)، فأصبحتُ لا أمرُّ إلا بعد أخذي البركاتِ، التي تساعدني على تجاوز الصعاب من ذي الحكمة العجوز... لا يرتضي إلا أن يجلس على رأس حلقة من الجلوس، يبث فيهم خبراته الدنيوية وحكمته اللوذعية، يرصعها ببعض الآيات التي ليس لها علاقة بمضمون الحديث، من أجل الجمع بين الشيخوخة والحكمة والإيمان، يكره أن يُدار الحديث بلسان غيره، وتظهر عليه غَيْرة الأطفال، ويستعظم نفسه ألّا يجلس وحيدًا من دون أن يجالسه أحدٌ يتخصّب من حكمته. وكيف يُرى الكبير ذو الهيبة المزيَّفة جالسًا بمفرده؟

ـ فيمَ تفكِّر؟

أشكرُ القادمَ على أنه جعلني أنهي مقارنتي بسلام، وعلى عدم عقد مقارنة أخرى جديدة، ومنعني الردَّ على السؤال... أقبلَ شابٌّ طيبٌ عليه من وَبَرِ الكدحِ رِداء، يخْلعه بشاشةً وترحابًا في حضرة الكبير (شاهين).

رأيته في السابق يقص عليه ما طَرأَ في جديد حياته العملية. هناك نوع من الشباب -وقد يكون هناك أنواع أخرى قد اضطروا تحت ظروف نفسية معينة في فترات متفاوتة أن يكونوا مثل هذا النوع؛ يجلس مع عجوز يحكي له اجتهاده في الدنيا، وأنه وَقَفَ صلدًا منفردًا أمام عواصفها. كأنَّ في قرارة الشاب؛ أن العجوز سيكتب اسمه في قائمة التاريخ مع الآخرين. أو لعله يريد أن أحدًا غيره، يظن فيه الرشاد، يستشعر معاناته في تحقيق إنجازاته مع الدنيا، أو يريد أن تخرج قصته علانيةً، ويا حبذا عقلٌ وقورٌ رشيدٌ مثل هذا العجوز يسمعها.

كل هذا من أجل سماع كلمة من عجوز تدلُّ على: (أحسنتَ)... وما أخفى الأحاسيس بقلة الحيلة والعجز داخل شابٍّ منهم؛ إذ يرى أن هذا بلغَ مَشيب العمر... إذن فقد حقق مسيرته في الدنيا، من كل النجاحات، والإنجازات، وقد فعل ما عليه فعله في تربية الأولاد وزواجهم... وكافحَ... ولا سيما أن العجوز دائم القصِّ عن تلك المواضيع...

كل هذا يُشعر الشاب بالعجز، وما زال أمامه الكثير، ولن يفلته نَهْشُ الحياةِ في تحقيق شيءٍ، فيرى هيبة أخرى فوق هيبة يتصنعها العجوز؛ إلى أن يظن أن العجوز قد حقق المعجزات... وبعض العجائز يدّخرون اللؤمَ؛ إذ يدسّونَ إحساسَ: (عجز الشاب حِيالَ إنجازات العجوز) في روع الشباب بتباهٍ.

وفي العموم، كأنَّ الشاب يُدلي باعتراف أمام صفحة التاريخ المتمثلة في العجوز، وينفي عجزه، ويبرِّئ ساحته أمام طواحين الحياة، والعجوز لا يبالي ولن يبالي،

فقد استمتع بهيبته ووقاره وقُضِيَ الأمر. إن هؤلاء الشباب يجهلون أن أغلب العجائز الذين يستمعون لهم؛ يحقدون على شبابهم.

ما أعذب التبجيل وجهًا لوجه، فالسلام السريع لا يليق بفخامة عظمته... يعوق (شاهين) طريقَ الشباب بالمناداة عليهم، فلا بد لشاب أن يذهب إليه مُسلِّمًا بحرارةٍ، ولا بأس أن يخبره عن وجهته التي يذهب إليها. لكن العجوز يسمع ببرود تامٍّ؛ إذ حقق الغرض؛ وهو أن الشاب حادَ عن طريقه، ذاهبًا إلى النجم اللامع الجالس، وكلٌّ يدور حوله. إن إحساس البركة والخير اللذين يراهما الشاب في العجوز يفعلان الكثير من التصرُّفات.

اتَّجهتُ بالكلام إلى (عطية)؛ أُسائله عن شيءٍ قد كُلِّفتُ به: (متعرفش دكتورة عظام؟).

فانفجرتْ ضحكةٌ منه هي أقرب للهجوم من الضحك. هجومٌ مفاده صدُّ أيِّ تفكيرٍ في محاولة الجدال، ويُخبر أنَّ أدنى محاولة مصيرها السخرية، ولم يفلح في كبحها إلَّا بعناءٍ يُكْرِه إكراهًا على ضد مبتغاه؛ إذ يريد منها أن تنفجر، وينفجر الناظر إليها معها.

إن وقع ضحكته عليَّ كوقع بابٍ، ذي صريرٍ مريرٍ يقدُّ أعصابي كلها، عند فتحه وغلقه، بيد إنسانٍ كالحٍ باردٍ يَعمدُ -بجهدٍ مَرْضيٍّ- إلى إغاظتي ولا يُظهر ذلك. فأجابني قائلًا، وعلى مدار كلامه كله؛ ما زلتُ أفكِّر في وقع ضحكته، ولم أسمعه إلا بأنين النفس:

(هأ... دكتورة... مفيش أصلًا دكتورة عظام. وحتى لو في؛ دول فشلة يا ابني. طب أنا كانت المُدرِّسة بتيجي لبنتي في البيت، والبنت بتقولي يا بابا: المدرِّسة كلّ شوية تسألني طبخين إيه؟ عاملين إيه؟ ماما فين؟ بابا فين؟روحت طارد المدرِّسة وجبت مدرِّس... قول للي بتسأل علشانه: خليها تروح لدكتور).

لا يعنيني ما قاله من حجج يردِّدها يقنع بها نفسه ذاتها، أولًا وأخيرًا، وليس لي، ولا يعنيني أنه لا يريد لغيره أن يسلك طريقًا غير طريقه، لعله يلقى نتيجة مختلفة عنه، ولا يعنيني أنه هو ذاته يدافع عن تعليم المرأة بلا قيودٍ وشروطٍ، وهو ذاته لا يقبلها مدرسة، ولا يعنيني الفكرة التي يريد أن يُميتها بسخريته في دماغي أو في دماغ السامعين لنتساوى جميعًا، ولا يعنيني بِمَ يسأل المدرس ابنته الآن بدلًا من أسئلة المدرسة المتكررة التي ليس فيها أيّ إبداع يعجبُ أبيها، ولا يعنيني أتمشي الفتاةُ على سيقانٍ تشبه سيقانَ أبيها الملفوفة؟ أو أمّها الجريحة؟

فلا يعنيني أيّ شيء يحمله هذا الكلام قط، وإنما أثر هذا الضحك قد بدأ بداية مختلفة عن نهايته. لقد بدأ بمثل ضحك سيدة بدينة بلذاذة؛ تعشق الضحك وتُعطي زِر رنين سخسخة أعصابها إلى أي فكاهة طائرة تهوى المستقر.

فمثل هذه السيدة عندما تلتقم الفكاهة؛ تبدأ الضحك باهتزازات داخلية غير مفهومة للناظر ابتداءً. إذ تستشعر أن هناك شيئًا يهتزُّ مُبهمًا يتمُّ تحضيره خفاءً كبؤرة عميقة في جوف الأرض؛ يضربها الزلزال، لا يطفو إلَّا بعد لحظات.

ثم تصعد هذه الاهتزازات إلى الفم؛ فتبتسم، ثمَّ إلى العين؛ فتظهر فرحتها، وقد

يصحبها دموع مفروطة بالسخسخة. فمستقر وملتقط الفكاهة بطنها، كبؤرة زلزال، ثم توزِّع مباهج الفكاهة على باقي الأعضاء تباعًا بقوة ارتجاجية تتمايل بها الأكتافُ يمينًا ويسارًا؛ كتمايل هودج فوق جملٍ هادئ، ولم يشكرني – جاحدًا– على أنِّي ألقمته فكاهةً.

يكفي هذا إلى الآن، أن يرجعني حجرتي. فأشرت لـ (شاهين) أني ذاهب متعجِّلًا، فألحَّ عليَّ في العودة إليه مرة أخرى قبل دخولي المسجد عند حضور الشيخين. وذهبت إلى (منذر).

***

راعَ الشيخَ صيحةٌ من فوارس الطليعة، فأفاق لحاضره، بعدما شجَّتْ تلك الصيحة انسيال خاطره. وبحركة سريعة عفوية، مدَّ يده لقائد الحفيظة ليأخذ من يد الأخير الكتاب، وليتأكَّد من شيءٍ عن هوية الكاتب، فلم يتمكن من إمساك الكتاب بإحكام، ففُتِحَ على صفحةٍ قرأها الشَّيخُ يُسمِعُ مَنْ حوله:

(السُّؤال: شيخ... إن تخيّلت أنّك زوجي... هل في ذلك شيء؟ تخيَّلت أننا نعيش في جو من مودة ورحمة وسكينة...).

الجواب: هو على هذا القدر: لا شيء فيه، لكن لا تسترسلي مع الخيال الله يرضى عليك).

وللمرة الأولى منذ أن حمل هذا الفارس سيفه، خرج السيفُ ولم يتوضأ، وغاص

في الرُّخص. نزع قائد الحفيظة سيفه. وغرس نصفَه في الأرض يتيمَّمُ ردًّا على ما سمعه من الشيخ.

(فكذلك الرخص على المحبين ثقيلة، فأنَّى له الماء؟).

وقامَ وانتصبَ (معاذٌ) كوتدِ خيمةٍ. أما (يونس)، فقد حضنَ رأسَه براحتيه، وتذكَّر ما قصَّه والدُه عليه من أحداث شمال أفريقيا، وعن قصة (القبر المُبْوَلَة).

أمَّا المُعبَّد (أوس)، فقد قبضَ على سيفه في غمدِه، فقد خاب أمله؛ إذ لن يصيب شيئًا إن خرج السيف، وأراد (سامر) أن يُزيحَ هياجَ الغضبِ من صدور الفرسان، فقال يمزحُ: (لا حول ولا قوة إلا بالله. أيحرّم ما أحلَّ الله بين الزوجين؟ وبماذا كانت ستسترسل يا شيخها وأنت زوجها؟ بالله عليك، قل لنا: بماذا ستسترسل، فإنِّي عاشقٌ ولهانٌ بهذه الاسترسالات.

(سأحاول معكم تفسير كلمات (سامر)، لعله يعني: (إيه... هتجيب عيال ولاد شات؟ والنبي يا شيخ قول؟)...

هل ستسترسل في أنها ملتاعة... تتلقفكَ ماتعةً بالأحضان والقبلات؟ أتريدها يا جبار أن تتخيلك فقط جالسًا أمامها -ولا تقدر على مسِّ جلدك الشريف الطاهر المُذيب لنواهد العذارى- كقطعةٍ من الخشبِ لا حراكَ فيها وهي تذوبُ فيكَ تَحْنانًا؟ فلماذا إذن تتخيلك؟ إذا كنتَ قطعة من الخشب؟ لعنة الله على قسوة القلوب، كيف تحمّلتَ كل تلك القسوة، تتخيلك ولا تقدر على مَسِّك؟ من أين جاءتك تلك القسوة الجافية يا بطريق؟ دعِ الفتَّانة الحسَّانة تنعمُ بنياط نسج

خيال قلبها.

محاولتي في التفسير: (يا قاسٍ... يا بطريق... نشرتم البطرقة في الرجال... وحسبي الله ونعم الوكيل)...

فقل لي: كيف تتحقَّق المودَّة والرحمة والسكينة عبر الخشب؟ فلا عجب أن يكثر الطلاق في تلك الأزمنة الغابرة إذا لم تنتهِ المودة العرجاء والرحمة البتراء والسكينة الظلماء بالتلاحم العنيف بين لحوم الزوجين وخلط مائهما).

فلما لم يضحك أحدٌ؛ أخرج سهمًا من كنانته، وجعله يستقر في كبد شجرة على مرمى بصره... ثم قال يصف أهل زمان هذا الكلام: كأنَّ جمرةً من النار سقطت عليهم {فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ}.

١٠

إن أكثر شيءٍ ضيَّق النَّفَسَ على الرجل المدرك حاد الحساسية الزكيّ العاطفة؛ هو فرْضُ حسٍّ أو أحاسيس بعينها، ويشتهر هذا الأمر بين المرء وزوجه... تفرضه فرضًا عليه... مع علمها أنه يشعر بهذا الحس دون أن تذكِّره كلَّ حينٍ وفي كل مناسبةٍ، هي تعلم أنه يحب طعامها، ويحب مجالستها، ويحب جُلَّ أفعالها... لكنها تريد أن تسمع في كل مناسبة استحسانًا في كلامٍ، مع أن الأفعال أكثر تأثيرًا وإشباعًا، والزوج غير ساهٍ ولا مُتناسٍ؛ مُتجدِّدٌ... فتارةً يفصح عن حسه بالفعل، وتارةً بالفعل مع الإفصاح، وهي منه بيقين أن صمته ليس صمتَ إنكارٍ.

لا بدَّ للمرأة أن تعي جيدًا من أيِّ خامةٍ هو زوجها لترتاح من أشياءَ جمّة. ولا تدري الزوجة أنها بهذا الخِناق تمحو وتزيل الصدق، وتجعل الأمر زائفًا مصطنعًا من زوجها إذا تمادت في هذا. وأصدقُ حسٍّ حسٌّ يخرج سجيةً دون استدعاءٍ خارجيٍّ، وخوفًا من بعض الرجال ممَّن يملكون مجامع الحسّ أن يُفرض عليهم خروج الكلمات قسرًا منهم لاستحسان شيءٍ، فهم لهم طاقةٌ تستنفدْها كامنات المشاعر الذاتية، التي ليس لها علاقة بالحالة المفروضة عليه، وعند زوال تلك الطاقة يدَعون ويتركون ويزهدون الأمر كله، مهما كان الطرف الآخر. ففي النَّأْيِ مَنجاةٌ. لقد امتلؤوا... وما درى الطرف الآخر.

وعلى كلٍّ؛ لطبيعة الأنثى عُذرها. والأمر شديد التعقيد، وتعقيده كلُّه خاصٌّ بجانب المرأة التي تتباين وتتقلب في مشاعرها تَقلُّبًا وَعْرًا أُوَارُه. والمرأة العصريَّة هي عبدة لأنياب مشاعرها على خلاف النسوة السابقات، فأصبحت حاجة رغبتها في استحسان شيءٍ منها فرضَ عينٍ على الطرف الآخر دون مراعاة حالته... فإن هذا الأمر يكون نابًا كريهًا لاذعَ الكراهة بين الرجال وبعضهم، وقد يزهد إنسانٌ في صداقة صديقٍ دامت سنين؛ لأنه يقوم بذات طريقة إجبار المشاعر على الخروج، ولا يدري هذا الصديق سبب تجنُّب ثمَّ بُعْد الآخر عنه.

لا يقوم (صلاح)، الودود، البشوش، الطيب، البسَّام، الكثير الحركة، لا يقوم بفرض إخراج مشاعر من صديقه (منذر) من باب التحكُّم والسيطرة، وإنما هو يحبّه، ويُظهر ويبالغ في إظهار محبته. ومن أكثر ما يضايق (منذر) من أفعال (صلاح) هو أن الأخير قد يفرض عليه الذهاب إلى أماكن بعينها من أجل الترويح، أو يفرض عليه أن يأكل أكلة بعينها يحبها، هذا كله باسم الصداقة والحب؛ ولكنه يظل فرضًا وإجبارًا. ما أحلى الدنيا كلها لو تسري المشاعر دون تعقيد، فكم من حياةٍ أفسدها التحكُّم في إخراج المشاعر بشكل معيَّن عند وقت معين.

فإذا ما اجتمعا معًا، ليس (لصلاح) شغل شاغل إلَّا أن يرقب بعين يقظان كلَّ تعبيرات وكلمات وحركات، والحالات المزاجية في صديقه (منذر)، وتُضيّق تلك المراقبة الدائبة الجوَّ، وتَزيدُ من جيشان الاضطراب في روح (منذر) ثائر

الحواس، وتجلسه أَرِقًا على زَعجٍ، وحالة من الفوران قد تجعله يُنهي أيَّ علاقة مهما كانت.

هذا ما شعرته من الصديقين حين التقيتُ بهما على المقهى بعدما عرَّفني (منذر) على صديقه في الجامعة، الذي وجدتُه يتلقف الحرف تلو الحرف قبل انتهاء نطقه من فم (منذر)؛ لينهال عليه بالأسئلة حول مراده، وأفكاره، ومشاعره، من مقصودٍ وراء كلامه، بل هو يُعجب بحركاته التلقائية، حتى طريقة قبضه على زجاجة مشروب ما. فللّه در (منذر)؛ إذ وهو خالٍ في حجرته يستشعر حرارة ألفِ عينٍ تنظر إليه تحدثه.

كانَا يستعيدان ذكريات الجامعة، فتذكَّر (صلاح) قصة العصفورة، ثمَّ ضحك بإفراط مع كل مرة يتذكَّرها، وخجل (منذر) من انبهار صديقه للمرة المائة بتلك القصة، ولكني عذرتُ عجبَه لهذه القصة، التي على بساطتها كان ينظر إليها نظرة أخرى مختلفة.

ولولا أن (منذر) يؤدِّي الواجب الوطني تجاه بلده في فترة التجنيد. حماه الله، فهو في طور سيناء الغالية. لم يكن يجلس هذه الجلسة على المقهى، جلوسه في هذا اليوم استثناء، ونابع من حالته اليوم تحديدًا، فاليوم موعد خِطبته، والنفس مع الظروف الاستثنائية تُفتَح مسالكها، غير أنه أراد مجالستي لأمرٍ.

فقال لي (صلاح):

ـ أنا مفتون بهذه القصة، على ما فيها من بساطة... (مُنذر) الحسَّاس الصموت

الخجول (كان منذر يزداد احمرارًا مع كلِّ كلمة من صديقه) يفعل مثل هذا؟ ولعلمي طبيعة (منذر) الباغضة والناهية للكشف عن العواطف بإفراط وانبهار، ولعلمي أيضًا أنه لا يُريد أن تنصبَّ عليه الأعين كلها، ويكون مجرى سيل نظراتها؛ فكنتُ أعمد ألَّا أنظر إليه، منتبهًا لكلام صديقه، مبتسمًا مجاريًا له في إحساسه، وانتزاع (منذر) من هذا كله.

ـ وزاد فتنتي أَنَّني علمتُ أن (أبا المُنذر) قام بتسجيلها في يومياته، ففرحتُ أكثر من تعبيراته وتعليقاته على القصة، حتى حفظتها، ولا أحكيها إلا بمفرداته.

ثم قال مع الزيادة المستمرة في إفراط المشاعر والعلو بحرارتها:

ـ أنا أعجب والله، إنَّ (أبا المنذر) في كلامه المنطوق، إنسانٌ، وفي كلامه المكتوب إنسانٌ آخر. وأكثر ما وجدتُ فيكَ من عجبٍ (نظرَ إلى منذر)؛ أنت فريدٌ من نوعك... إنَّ الإنسان إما أن يكون معه كلّ شيءٍ، ويعجبه كل شيءٍ، وإما ليس معه أيّ شيءٍ، ويعجبه كل شيءٍ، أما أنت فلا تملك شيئًا ولا يعجبك شيء.

ولا شيءَ من (منذر) إلَّا زيادةُ انغماسِه في نفسه أكثر فأكثر من خجله. فهو إذا امْتُدِحَ وجهًا لوجهٍ؛ خجلَ كالعذارى، ولكنه عليمٌ بصيرٌ -ولا يبدو عليه بل يَظهرُ عليه، خلاف بصيرته في أغلب أوقاته، نوعٌ خاصٌّ من البلاهة والتلعثم في نطق الحروف أثناء كلامه، كأنَّ روحه تعاني شيئًا غير الذي يقوله، فيحدث التضارب في الإفصاح. والناسُ مختلفون فيه؛ فمنهم مَن يتركه بعد كلمة سمعها منه، قائلًا: هذا معتوه، أو محدود العقل. ومنهم مَن يُسمعه (منذرٌ)

بداهةً كأنها طيرٌ من الجان، ومع هذا يحتار أيضًا في تصنيفه- بأدقِّ جحودٍ، بل يعرف الجحود من وراء الشاشات وعبر الأسلاك وإن لم ينطق صاحبه، ولكنه كالطود المغسول بوابِلٍ عند الجحود، وقشةٌ تحت شلالٍ عند الثناء عليه...

حسبتَه متعاليًا إذا رأيته صامتًا. إنَّ أكثر شيءٍ قد ضرَّ به في تلك الحياة هو غور معرفته لنفسه. فهو يخوضُ حروبًا متواليةً في إزاحة التعالي الزائفِ مِن نفس مَن يجالسه، فيرجع يجرُّ خيبات الهزائم كلها؛ لأنه قد نسيَ أنَّ ما طُبعَ في النُّفوس قد طُبِعَ. ولكنه ذاقَ مرارةَ نسيانه عاجلًا.

وحكى (صلاح) القصة بلسان صديقه: (نايم على بنش المدرج والمحاضرة شغالة في وقت العصاري والجامعة شبه فارغة، ومش مركز في أيّ حاجة مع الدكتورة الظريفة وعن عمد. وكل زملائي مركّزين مع صوتها. وعلشان أنا خارج المود دا. كان صوت العصافير أعلى عندي من صوت الدكتورة. صوصو من العصفورة مع كلمة من الدكتورة. كأني كنت الحكم بينهم: مِين أرق؟ وكنت طاير فوق مع العصافير... عصافير المدرَّج وهما بيردّوا على بعض... بتكون شرسة ومستفزة لما يكون الوضع هادي، وساعات بتعمل نغمة تصدَّع لو أنت محتاج تركيز. وكل الناس اللي مركّزين مع الدكتورة، تخيَّل؛ مش سامعين صوت العصافير العالي خالص. فكان بالنسبالهم مفيش صوت تاني غير الدكتورة... روحت مغلِّس عليهم، وقولتلهم:

(اسمعوا كدا يا جماعة صوت العصافير)... بس يا عم... انتهت المحاضرة

بالنسباهلم كدا، وبقى صوت العصافير عالي قوي في مسامعهم، ولخبطهم عن كلام الدكتورة. المدرج كان دور أرضي وكبير وكله شبابيك كبيرة عالية، والدكتورة كانت تقريبًا كدا بتلعب في ٤٥ أو ٥٠ سنة... بس كانت دكتورة ظريفة، وصغننة في نفسها، وكَسُّوفَة، وشكلها من بعيد صغيرة في السن. في وسط كلام الدكتورة لقيتها بتقول: (انزل يا حبيبي)...

فقلت في نفسي: (إيه دا؟ هو إيه اللي عرفها إني طاير فوق مع العصافير، ولا أنا بحلم ولا إيه مش فاهم، يكونش دي العصافير؟).

شوية وأسمع: (انزل يا حبيبي).

قولت: (لأ مبدهاش بقى... أنا لازم أقوم أشوف في إيه، يمكن هقع ع الدكتورة وأنا مش واخد بالي)... الأنثى لما تيجي تمسك حاجة بإيديها أو كام صُباع من أصابعها. دايمًا تلاقي الصباع الصغير (الخِنصر) في اتجاه لوحده. يبان قوي لو هي ماسكة الماوس أو تاتش اللاب، تلاقي صاحبنا طالع لوحده في ملكوت الله، ولو حاولتْ تجمعهم مع بعض هتفشل، وهتوقّع الكوباية من إيديها أو هيجيلها شد عضلي.

والحركة دي من مجامع الأنوثة وطراوة الأعصاب... زي مسكة الدكتورة للمايك دلوقتي. قومت لقيت كل المدرج والدكتورة بيبصوا على عيل، متشرد متشرد، واقف على شباك على يمين الدكتورة، معرفش دخل الجامعة إزاي دا، وبتقوله تاني: (انزل يا حبيبي).

جرحني المتشرد... إن خطابها كان له مش ليا. دكتورة رقيقة وصغنطوطة والواد متشرد يا جدعان عليه وسخات الزمن، ومُصرّة على أنها ترفع المتشرد إلى السماء بقولها: (حبيبي).

الواد مش راضي يلبّي رجاء الصوت الناعم وينزل. يخربيت أمك. ومفيش غير صوتين؛ صوت الدكتورة اللي لا يمكن يحنّن قلب أي متشرد، وصوت عصفورة بتحاكي صوت الدكتورة وفشلت. روحت قايل بصوت عالي: (ما تنزل يا ابن الصرمة)...

وطفحَ المدرجُ ذهولًا شنيعًا... ودقائق حداد وسط الحشد المصدوم، والدكتورة ارتبكت وصُبعها الصغير اختفى، كقطة مايصة، والمدرج كله عمل زوووم عليا وأنا بقول للدكتورة: (حضرتك أنا عارف الناس دي بتمشي إزاي وقولت أنقذ الموقف).

طبعًا هي مردتش عليا أصلًا، وصُبعها ارتبك، وابتسمت وكملت المحاضرة، ورجعت أنا لنومي. والمتشرد روّح لأمه. أنا كومبارس مكنش في دماغي المحاضرة).

ثم قال (صلاح) معقبًا على قصة صديقه:

ـ هذا الخجول الذي لا يحب الظهور؛ كيف يقوم بمثل هذا الفعل؟ لقد فعل ما لم يفعله غيره، وخلاف ما أنا أتوقعه منه؛ حتى ظننتُ أنني لم أعرفه بعد... إنني فهمتُ مغزى الأمر البسيط هذا بعد سنين، كلَّما خطرَ بخاطري، لاح لي أننا كنا

في حاجة إلى المحاضرة، ولم تغنِ همهمات الحشد... لا من قريب ولا من بعيد... وتزمرهم من المتشرد، ولم يكن (منذر) يهتم بأمر المحاضرة كما وصف نفسه (كومبارس). ومع ذلك لم يفعل أحدٌ في المحاضرة ما يتوجب عليه فعله. وقلة حيلة الدكتورة التي اكتفينا بمشاهدتها، بل كنا ننتظر استمرارها مع شغب المتشرد. وقد حدث كل ذلك في لمح البصر، فلمّا نظرَ نظرةً سريعةً استوعبَ الأمر، وأخذَ قراره ونفَّذه، ونفع الذين سينتفعون منها. ولم ينتظر فرحًا من أحدٍ على فعله... رجع فنام. واليوم أتساءل، كم شخصًا كان في هذا المدرج شهد ما شهد، وكان يحلم أن يصبح دكتورًا؟ كيف يستفيد الإنسان من تجاربه وخبرته المستخلصة من أحداث لن تتكرر في المستقبل؟ وما نفع التجارب التي تأتي في آخر العمر، ولم يبقَ في العمر عمر؟ ولِمَ يفرح الإنسان بهذه التجارب المُعطّلة؟ سلْ أهل الأرض جميعًا... ستجد ملْء نفوسهم تجاربَ لن يستخدموها. كأنَّ الإنسان يقول للماضي الفائز عليه؛ الماضي الذي ولّى: (لقد فهمتك). ولكنه ولَّى. لا تحتاج الأحداث الفريدة إلى التجارب من أجل التعامل معها، وإنما الأحداث الفريدة تحتاج أناسًا بعينهم لا يسد مسدهم أحدٌ غيرهم. ما أكثر المشاهد التاريخية التي تنظر إليها نظرةَ عجبٍ وإكبارٍ، ولو كنت شاهدها ما راعت انتباهك. وسألت نفسي كثيرًا في الحقيقة؛ هل لو كنتُ وعيتُ مثلما وعى (أبو المنذر) حينها؛ كنتُ سأقوم بما قام به؟... لا أعلم. ما نفع أن يكون الطفل ذكيًّا فريدًا مع أبوين لم يبصرا نباهة ولدهما؟ هذه النباهة لا قيمةَ لها إذا لم يكن

الأبوان على دراية بها، كذلك ليس من المستبعد خروجُ حكمةٍ ما، ولو مرة واحدة في الحياة، من أي إنسان، ولكن هناك أُناسٌ يبعثون ويوقظون الحكمة في نفوس غيرهم. وهذا اعتراف مني قد تأخّر سنين؛ (أبو المُنذر) كثيرًا ما أيقظ الحكمة وبعثها من مرقدها في نفسي؛ كُتبَ عليَّ وعلى غيري المرورُ على أشياءَ كثيرة معقدة لا داعي لها؛ لنفهمَ شيئًا واحدًا بسيطًا... أما هو من النفوس التي تخاطب الروابط بين المعاني، الروابط الخفية والدقيقة، لا يخاطب المعاني ذاتها، وكم من إنسان حياته مأساة لا تنتهي، ولكنه هو ذاته بُشرى ويُسرٌ على كل من يعرفه. ولا أعني أن حياته مأساة، ولكن إن جاز التعبير أراها حياةً ذات «مأساة شعورية».

لا أقول إني أحسد (منذر) على ما يقوله (صلاح) من صفات في حقه، ولكني كنتُ أتمنى صديقًا يسعى في الفَهم عني كما يحاول (صلاح) فَهم صديقه.

فنظرتُ عن يساري، فالتصقت عيني ببسمة (يوسف)، ومن خلفه مباشرةً، نظرة (رُمَّانة) القهوجي يجلس بجوار الناصبة. فأزال بعضَ خجل (منذر) تعجّل صديقه في الانصراف، وبقيتُ معه يحادثني.

وأثناء توديعي لـ (صلاح) نظرتُ عن يميني إلى الحشد، فالتقطت عيني بنظرة (ماهر) التي لا تختلف كثيرًا عن نظرة (رُمَّانة).

إن الذين وافقَ بزوغُ شبابهم بزوغَ الألفية؛ قد مرّوا بظروف تختلف عن الجيل الذي سبقهم، والجيل الذي تلاهم. هم انتقال بين هذا وذاك في جميع الدنيا. أما

السابق؛ فقد يمر عليهم عشر سنين من حياتهم من دون حدثٍ مهمٍّ يسمعون عنه، أو يحدث فيهم تغيير.

هم أشبه بامتداد لفترة السبعينيات والثمانينيات. حياتهم هادئة نوعًا ما، أو كثيرًا في الحقيقة، ولم يكن فيها ارتجاج عنيف... كانت كـ (ساعة العصاري) التي استمتعوا فيها بسكونٍ في سكونٍ، والكل مخدَّرٌ تحت وطء القيلولة، إن حياتهم أشبه بليلة الخميس عندهم، والاستعداد لها من يوم السبت، وتوصية العطَّار على جوزة الطيب على شوربة لحم الخميس، التي يتبقَّى منها إلى يوم الجمعة، كان صوت حياتهم يشبه طول نَفَس ورتابة عمود صحفي في جريدة الأخبار التي كُتِبَتْ في التسعينيات، ونسق الحياة كنسق ترزي في عصرهم يُماشي خطًّا في القميص مع نفس لون البنطلون كمريلة الأطفال.

وليس هذا بمعيبٍ في حياتهم تلك، ليس عيبًا مطلقًا، بل هي أفضل بكثير مما نحن فيه، ولكن هي محاولة في وصفهم... ومواطن اللذات التي هُدِيَ إليها هذا الجيل تتراوح بين (إفيه) سمج من أفلام نجم الكوميديا في التسعينيات يسخر فيه من تباين طبقة الكافيار مع طبقة الرابسو (الترسو)، أو مشهد لـ (نادية الجندي) يُستثار منه جنسيًّا الصنايعية (الترسو).

كانت ثقافة تزيد الغبيَّ غباءً والجامدَ جمودًا. أما الموبقات، فكانت في مشاهدة فيلم تركي في سينما ظلماء يكاد يصاب المتنفس فيها بالربو من سحائب دخان سجائرها الكيلوباترا الفرط، أو صورة عارية نُسيتْ في كتاب الكيمياء، ودارت

على إدارة شرق الدلتا كلها.

كانت سرعة استجابة عقولهم لمستجدات الأشياء كبطء سرعة النت المعتمد على كارت الفاكس آنذاك. أما جيل الألفين، فقد ظهر فيه ما قد هزَّ أركانه هزًّا، وصنع علاقات اجتماعية جديدة، من انتشار الفضائيات والموبايل والموضة المتلاحقة المتسارعة في الملابس.

فنظر الجيلُ السابق لجيل الألفية نظرةَ كمدٍ؛ رأوا أنهم لم يعيشوا حياتهم كمثل هذا الجيل المتاح له وسائل الاتصالات. وإذا رأى أحدٌ منهم شابًّا من جيل الألفية يذهب إلى الجامعة، يحسبه ذاهبًا لبيت دعارة من انفتاح الاختلاط الذي يراه (كانت بداية انتشار البناطيل الضيقة للبنات). فلمَّا جاء جيلٌ آخر؛ جيل مواقع التواصل الاجتماعي... حسدَ الجيل السابق وجيل الألفية؛ كلاهما حسدا: جيلَ مواقع التواصل الاجتماعي.

ولكن الشيء الذي مرَّ سريعًا من تلاحق التغييرات، وتركَ آثارًا غائرةً في نفوس جيل الألفية؛ أن هذا الجيل أُصيب بهزات نفسية من التطورات التي حدثت في عصره، ولم يكد يستوعب هذا الجيل تلك التطورات حتى ظهرت تطورات أكبر وأكبر في جيل التواصل الاجتماعي؛ أي أن جيل الألفية ما زال لم يهضم صدمة انتشار الفيديو كليب تحديدًا؛ لأن الفيديو كليب أثَّر تأثيرًا عظيمًا في نفوس هذا الجيل؛ إذ ينظر الشاب إلى الفتاة أو المطرب أو المنظر الجميل داخل الفيديو كليب، ثم يقول لنفسه: (أنا لم أعش حياتي)...

وترسَّبت هذه الآثار إلى يومنا هذا، بالإضافة إلى الآثار الجديدة من التواصل الاجتماعي، نعم، هناك مَن سقط من هذا الجيل في أمراض نفسية، ولم يُنظر ولا يُلتفت إليه من صراخ التطورات التي جاءت بعد ذلك؛ أي: لو لم يأتِ تطور التواصل الاجتماعي، وظل جيل الألفية، كما هو الحال مع الفيديو كليب وبعض الترويحات عن النفس؛ لظهرت جليًّا عُقدة هذا الجيل لكل الأجيال.

على أن أبناء جيل الألفية أنفسهم شديدو التباين، يرى واحدٌ منهم شابًّا آخر حسن الهندام على الموضة، كان يراه مثل الذي يراه في الفيديو كليب؛ يشعر أن هذا الشاب (خاربها)، أو يعيش كما يعيش أبطال الفيديو كليب، أو أن حياته هي شكل آخر مختلف تمامًا عن حياة غيره من الشباب... حياةٌ لم يتذوقها قط.

إن هذا الشاب الذي يرى نفسه لم يعش حياته، إذا مَرَّ بفترات طويلة حينذاك من دون عملٍ؛ أي: تُرِك هو والفراغ، كان يُصاب بحالة عصبية أو نفسية، وهذا ما حدث مع أفراد كثيرة ومنهم (رُمَّانة) القهوجي، ومنهم لولا أنه حصَّل المالَ لظهرت عليه تلك الأعراض. فكم ألْهى المالُ عن مرضٍ.

لو كان نسبة كبيرة في هذا الجيل؛ أي: جيل الألفية، لم يعمل لفترات طويلة، أو لم يستقر على عمل، لكان معلومًا ومشهورًا بين المجتمع المصري كله أن نسبة كبيرة فيه مرضى نفسيون فعليًّا وليس مجازًا.

لتوضيح الصورة أكثر من هذا... شابٌّ كان يحلم وهو طفل بامتلاك دراجة (عجلة)، فبعد أن كبر؛ ظل يرى في كل دراجة حلمه الضائع القديم. فمهما كان

عمره؛ سيظل ينظر لهذه الدراجة بأسى ولوعة على انقضاء الطفولة من دونها.

وهو نفسه مَن يبالغ في شراء الألعاب لطفله ظنًّا منه ألَّا يجعله محرومًا مثله.

وللأسف... قضية الحرمان لا تنتهي بهذا الشكل مطلقًا، فلها أبعاد كبيرة، قضية الحرمان ليس لها علاقة بمسألة الامتلاك من عدمه... هي مسألة نفسية أخرى... فصاحب الدراجة هو نفس تركيبة الشاب الذي كان ينظر بحرمان إلى شابٍّ آخر في الجامعة حسن الهندام، فلما كَبر صاحب نظرة الحرمان، أصبح يبالغ بصورة ليس فيها أيّ إتقان في ملابسه تعويضًا لما فاته في مطلع شبابه.

عسى أن يزول ذلك الأثر الغائر الزائلُ عند فزعة سؤال الملكين.

وهذه هي نظرة (ماهر) إليَّ من فترة الثانوية العامة التي أهداني تفسيرَها نظرةُ (رُمَّانة) الذي اعترف بمكنونها قُبيل نوبة صرع لصديقنا المشترك (كامل)، لم يكن عاطًلا تمامًا عن العمل، ولكنه التزم في العمل بعدما تمكَّنت منه هذه الآفة في وقت فراغه...

(إن أوقات الفراغ للذين يستمتعون بالفراغ واللاشيء؛ أوقات لا يضاهيها متعةٌ، ولكن أكثر الناس على الأرض من الضرر على أنفسهم أن يُتركوا وفراغهم؛ لأن عقولهم عاجزة عن إدراك أبسط الأشياء حولهم، وهم في أوقات فراغهم تتراءى لهم أشياء كثيرة هم عاجزون عن تفسيرها، وإن قاموا بتفسيرها فسَّروها بما يُوقع عليهم الأضرار؛ فمن الخطر أن يعمل أحدهم عقلَه في أمور ذهنية، ولكن من الحفاظ عليه أن يُنهك عقله في حمل الزلط)...

ورؤيته الدنيا كلها تدور وتسعد من وجهة نظره، وهو مُتسمِّر في مكانه، فزاد طينه بلة أن يرى شابًّا (خاربها) من وجهة نظره كما صوَّر له عقله، مقارنةً بمشاهد الفيديو كليب.

لقد انصبَّت عليَّ من نظرة (رُمَّانة) عُقدة جيلٍ كاملٍ، والتي فسَّرت لي نظرة (ماهر)، لا أدري كيف بدأ الصرع معه، ولكن قبل كل نوبة تنفتح نفسه كلها بكل ما تحمله في ثناياها.

١١

قال لي (مُنذر):

ـ أحب هذا الرجل.

ـ صلاح، رجل طيب.

ـ لم أنلْ ما نَالوه بما نصحْتُهم به، وشربتُ عكْرةَ مائهم، ومَرِغَ في صفائي طينُهم، وصُنْتُ فيما لا يُصانُ فيه ودَّهم، وسخرتُ من حذرٍ وَجبَ منهم، وكنتُ مُسدّدًا بالغيب فيهم. نعم، أحبه... ما أكثر ما جرَّعتني علاقات بعينها، وفيهم الطيبون. ولكني أعني هذا.

فأشار إلى أحد الموجودين بين جموع الشباب، يضع السواك في فمه، يرتدي جلبابًا رصاصيًّا، وكل فترة يفتح كتابًا ينظر فيه، ثم ينظر أمامه كأنه يحفظ شيئًا، سمته جميل، وسيم أسمر، هو ذات الشخص الذي ألقى علينا السلام، وتحدث عنه الرجلُ البنيّ حين كنت واقفًا معهم، فقلتُ:

ـ فن الفنون ليس في معرفتك النوع الذي ستحبه، أو يُعجبكَ، وإنما فن الفنون أنك تعرف مَن سيحبك، أو يعجب بك حتى من نظرة واحدة... معرفتك لنفسك بصورة تكاد تكون شاملة، أهم ملايين المرات من معرفتك للناس أثناء التعامل معهم؛ لأنَّ معرفتك لنفسك جيدًا ستعرف بها أيّ انطباع ستتركه شخصيتك على الناس، وبناءً على هذا الانطباع... ستتعامل معك الناس، نعم،

يترك الناس في نفسك انطباعات عنهم، لكن معرفة انطباع شخصيتك عليهم أهم من معرفة انطباعهم عليك. ربما يرونك مغرورًا، أو تتكبر عليهم، وأنت بالطبع غير ذلك.

لكن روحك من دون أن تنطق بكلمة؛ تركت في نفوسهم هذا الأثر، فكونك فهمتَ هذا الأثر في نفوسهم؛ يفسِّر لك طريقة تعاملك معهم بشكل أيسر وأوضح. يمكن أن تتعامل مع إنسان سنين طويلة، وأنت لا تدري أنه حقودٌ عليك؛ لأنك تجهل تأثير نفسك في نفوس غيرك...

لدرجة أن هناك ابتسامة صفراء (صفار البيض الممشش). سريعة خاطفة بمجرد رؤيتك بسبب انطباع شخصيتك عليهم وأنت لا تدري، بل في أحيان كثيرة، انطباع شخصيتك الأوّلي هو الذي يحدِّد أول جملة تُقال لك من أحدهم، فتتساءل: (يا ترى هو قالي كدا ليه؟). جهلك بهذا الأمر هو سبب كوارث تمر عليك، وتعجز عن تفسيرها. إنَّني في أحيان أداعب نفسي بهذه اللعبة مع الذين أمرُّ عليهم في الطرقات، أقول في نفسي: هذا سيكرهني وهذا سيحبني...

ثم قلتُ له:

ـ ظننتكَ ستقول: إن هذا الرجل يحبني.

ـ فهمتك... تعني... كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: إن شاء الله هو يحبني.

تعلم؛ إن كل إنسان جديد أعرفه، أحبه بكل حب الإخوة، حبًّا لا كلفةَ فيه ولا مراء ولا شروط، وبعد ذلك بفترة وجيزة يصبح هذا الحب عِبئًا ثقيلًا عليَّ لا

أدري لماذا؟ ولا سيما إذا تعاملنا معًا... يصبح كل أمر لديَّ مسؤوليَّة... أحبّهم حين أغمضُ عيني عن رؤياهم، وأغلق أذني في سماعهم... أحبهم بإطلاق خيالي فيهم... لا بما يفرضه واقعهم بإزالة هذا الخيال من نفسي... وهذا لا يمنع أنَّني عند رؤية بعض الناس أقول في نفسي: **أَرارَ اللهُ مُخَّكَ في السُّلامى**.

وتتمة البيت: **عَـلى مَـن بِـالحـنينِ تُعَوِّلينا**...

كان الشاعر يدعو على ناقته بالهزال بأن يذوب مخ عظامها (المادة البيضاء في العظام)؛ لأنها تحنُّ فتذكِّره بأرض الأحبة.

فلمَّا قرأتُ البيت أعجبني نشوةُ التركيب، واحتويته في مفرداتي. ولو كنتُ عند غيرك ما قصصتُ عليه ذلك... إنه لن يُصدِّقني؛ أنني بصدفة عجيبة قرأتُ بعض كلمات المُبجل محمود شاكر، فرأيتُ أنه بين كلامه يستخدم هذا التركيب تحديدًا يدعو على أحدهم.

وهذا ليس فقط من المصادفات العجيبة التي وقعت معي، ولكنها كثيرة من هذا النوع. سجَّلتها، ولكني نظرت إليها يائسًا من تسجيل جديد فيها؛ أنَّى يصدق هذا؟

حقًّا؛ لقد اصطبغ على صفحةِ وجهِه الشعورُ الكامنُ تحت كل كلمة. فلو كان للشعور ألوان؛ لعرفناها من وجهه. نطقَ حسُّه قبل نطق لسانِه، وقبل أن يعي العقل ماهية ذاك الحس.

إنه كطفلٍ تأخّر نطقُه عن أقرانه؛ وما تأخُّرُه لعلّةٍ، وإنما عاش صامتًا يكوِّن

مُعجمه الخاص هادئًا بعيدًا عن معاجم الناس التي تكوَّنت بمجرد معرفة الكلمات نفسها دون مقابل حسي داخلي... مُعجمًا من حواسِّه وأحاسيسه يدفعانه إلى المنطق والتعامل الحي ابتداءً، ثم يقابلهم بالكلمات المعبرة عنهم... ما من كلمة تخرج منه إلا ولها مقابل حسي، أو الذي دفعها دفعًا حسٌّ ما، أو حسٌّ من وراء حسٍّ آخر ليس له علاقة بشيء ظاهر. اتجاهه دائمًا (من جوا لبرا)، أما غيره (من برا ويمكن مفيش جوا)... فيتقلَّب باطنه بظاهره بين تطلُّبات معاني الكلمات من حرارة وشعور. على أنه يبدو صموتًا... إلا أنَّه سيّالُ المعاني. فالكلمة تحتاج إلى نزعٍ من روحه، فلا تُبقي هذه النزاعات أيَّ طاقةٍ لأيِّ عملٍ آخر.

فأومأ إلى الرجل مرة ثانية، وقال:

ـ قد التقيتُ به أكثرَ من مرة في أحد المساجد، كانت تُقام فيه مجموعة من الدروس، فجلس بجواري...

ـ ماذا؟

ـ إني في بعض الحالات مع أشخاص بعينها. مثل هذا الرجل. أحمرُّ خجلًا؛ لأني أشعر بتقارب عاطفي بيني وبينه، وأنِّي سأفهم عنه كما يفهم عنّي، فلا أنظر في عينه كثيرًا أثناء الحديث... تبادلنا بعض الكلمات، ووقعت عيني على ما هو مفتوح أمامه من الكتاب، فوجدتها قصيدة يقول مطلعها: **لا حَبَّذا أَنتِ يا صَنْعاءُ مِن بَلَدِ**...

ـ آي. لا أعرف غيرها في ديوان الحماسة. عرفتها مصادفةً.

ـ حقًّا تعرفها؟

ـ وبالتَّكاليفِ تَأْتِي بَيْتَ جارَتِها ... تَمْشِي الهُوَيْنا وما يَبْدُو لها قَدَمُ

ـ نعم، نعم... وقُمْتُ للزَّوْرِ مُرْتاعًا فَأَرَّقنِي ... فقلتُ أَهْيَ سَرَتْ أَمْ عَادَنِي حُلُمُ

ـ وكانَ عَهْدِي بِها والمَشْيُ يَبْهَظُها ... مِنَ القَرِيبِ، ومِنْها النَّوْمُ والسَّأَمُ

ـ لَمْ أَلْقَ بَعْدَهُمُ حَيًّا فأخبرهُمْ ... إِلَّا يَزِيدُهُمُ حُبًّا إِلَيَّ هُمُ...

يفتنني اختيارُ أبي تمام لهذه القصيدة، صادقة، يلحقني منها شجن صاحبها الذي عشتُ معه غربتَه.

لفترة غير قصيرة... كنت أستمتع بها بعد صلاة الفجر وأنا أمشي وحدي... بصوتٍ عذبٍ غناؤه. ما أكثر الذين أنشدوا الشعر، فأفسدوا الفطرة والذائقة، فالشعر يُنشد بنغمته التي وضعها الشاعر بروحه، لا مع سماع المؤثرات الموسيقية، ولا بإلقاء المنشد السمج حين يُسرع ويُبطئ -يظن أنه وصل لحس الشاعر، أو أنه كان يقول كلماته هكذا- يشعرني بغناء أوبرالي فاسد، وأنه بهذا يجمع الأدب الشرقي بالتطور الغربي، أو بكماليات يحتاج لها الأدب العربي.

يُفضي من مشاعره السمجة على مشاعر الشاعر العذبة؛ بإقحام نفسه بطريقة تمثيلية غاية في السماجة. إنَّ من الجور أن يتدخَّل الغير في إحساس غيره بهذه الطريقة؛ كالذي يحكي عن حالة فلان، فيحكيها بحالته هو لا حالة الأصل.

إن إنشاد الشعر بهذه الطرائق يلهو بالذائقة، وستأخذ سنين حتى ترجع لأصلها

إنْ رجعتْ.

إن تفسير بعض الأمور بشكل ما، أوهم الكثير من الناس في جنبات الأرض أنهم مميزون، أو أنهم يملكون ما لا يملكه غيرهم، أو أنهم يَصعب فهمهم.

أما الحقيقة المطلقة: إن كثيرًا من أهل الأرض ما كان لهم أن يعرفوا... ويُقدّم الكثيرُ ما يقدِّمه غيرهم بالتمام والكمال، ومع هذا يندبون حظوظهم أنَّهم لم يلقوا الجزاء المطلوب لما يقدمونه. ظنًّا منهم أنهم يختلفون عن غيرهم. ما نفْعُ طبيبٍ مع مرضى لا يبدو لهم عَرَضٌ؟

سبب سماجة المشاعر لدى الكثير من الناس، أنه كان من الأفضل لهم جهل هذه المشاعر، كانوا في هناءةٍ واستقامةِ سياقٍ ونفسٍ في عدم استشعارها، ولكنهم أرادوا أن يضعوا بصمتهم السمجة علينا متنافسين في إظهارها، وإخبارنا أنهم يشعرون مثل غيرهم...

على استحياء بعد التقاط أنفاسه، وباحمرار أشد خجلًا كالذي وصفه مع ذاك الرجل، ولم ينظر في عيني أيضًا:

ـ أنت تذكِّرني بشيءٍ نفسيٍّ في أبي تمام.

فقلتُ ساخرًا:

ـ حُقَّ لي الغرور.

ثم قلتُ:

ـ بعد إذنك يا مولانا في التدخين.

ـ أسأل الله أن يعفو عنك من هذه الضرر.

ـ آمين. آمين. ادعُ لي يا منذر، أنا أتبارك بك.

ـ الله يعلم أني أحبك في الله.

ـ وأنا أيضًا.

فاستكمل حديثه عن أبي تمام، بعد ما طلبتُ منه؛ كي أنفي من نفسه أي هاجسٍ بأنني غير راغبٍ في استكمال حديثه. فمع مثل طبيعته الحساسة؛ لا بدَّ لي أن أحاذر وأُبيّن دقائقَ الأمور بين المشاعر الدقيقة المختلفة:

ـ هذا الرجل مظلوم. ما رأيتُ أو سمعتُ عن ظلمٍ إلَّا وقد وقع عليَّ... لا أقرأ كثيرًا، ولكن يهديني الله بفضله إلى نصوصٍ بعينها، تردُّ على ما جالَ دومًا بخاطري؛ حتى ولو فتحتُ الكتابَ من منتصفه...

لقد وصفتُ الشاعر الكبير يومًا بأنه: مظلوم. وإذ بي بعد سنين من وصفي هذا أقرأ لناقد معاصر أفْنى حياته كلها في الشعر القديم وتذوقه، يقول لفظًا في كتابه: أسأنا إلى حبيبٍ بعرضنا أسوأ شعره...

كدتُ أُجنُّ، كدتُ أجري في الطرقات صائحًا: يا كُرْبة الظلم. كيف لك وأنت بعد ثلاثين عامًا بذلتها -في أقل تقدير- بين الكتب ودواوين الشعراء، تدافع عنهم، كيف لك أن تقول هذا في مثل أبي تمام؟ وليس الرجل شاعرًا مغمورًا مجهولًا ضاع ديوانه مثل الكثير من الشعراء، بل هو رجلٌ قد غيَّر في طبيعة الشعر العربي كله، كيف يقول إنسانٌ هذا على شيءٍ أفنى حياته كلها فيه؟ فماذا

إذن يقول طويلب علم عن أبي تمام؟

القضية هي ظلمٌ أراه، وما هي بشعرٍ أو غيره. على أنها دلالات شأْوها الخطورة؛ إن الذائق الحق الفطري يكتشف الدرَّ تحت بيت شعرٍ واحدٍ لشاعرٍ مجهولٍ، فما بالك بديوان كبير لشاعر كبير؟ إن الذائق الفطري يكتشف الدر بين الطين؟ يكتشف سجعًا رائقًا في كلمة قالها بائع فول جوَّال. إن الذائق الحق لا تصنعه كتبٌ ومناهج؛ ليتذوق الكلام، وإنما هي هبة مثلها مثل هبة الشعر من الله؛ يلاعبُ طنينُها النفسَ في الصغر...

فلا يومًا يصكّ السمعَ عن شاعرٍ حتى تفْصلَ القولَ فيه ذائقتُه بحسٍّ داخلي منها، وليس بدافع عقلي يأمرُه هوًى. إن الذائق الحق لا يصْرف نفسه ولا طلابه إلى شعراء بعينهم، ويترك الشعراء الآخرين.

إن الذائق الحق لا تطرح ذائقتُه شاعرًا أبدًا... فقل للذين درسوا ما يُسمَّى: التذوق، قل لهم: أن يستخرجوا من قصيدة لم يقرؤوها في مناهجهم، أو لم يتكلم عنها غيرهم من السابقين؛ استخرجوا منها الدر منفردين؟

وقل للذين لم يقرؤوا إلا شواهد الشعر في الكتب: أن يقرؤوا غيرها، ويتذوقوها إن كانوا قادرين؟

ولكنهم لا يعرفون إلا ما حسّنه وقبّحه كلام السابقين -أو كلام مَن تركوا عقولَهم عنده- وإذا ما حشوته بكلامٍ من عندك قالوا لك: آمين...

ولكنْ أبو تمام لم يقبِّحه كلّ السابقين مطلقًا، وقد قرؤوا هذا... فلماذا كان

الإصرار على تقبيحه على الدوام؟ لماذا الظلم أو لماذا إقحام... لا داعي.

من العجائب؛ لقد نصَحنا هذا الناقدُ الفاضل بقراءة كتابٍ بعينه؛ لنستخرج في ثناياه أفانين التذوُّق، فإذا بصاحب الكتاب القديم يقول نصًّا في صدر كتابه للذين ينتقدون أبي تمام على الدوام: وما عليه لو حذفَ نصفَ شعره، فقطع ألسنَ العيب عنه...

أي: لو حُذف نصفُ شعر أبي تمام، فإن النصف الآخر كله دُرر... أنا أكره الظلم. كيف ستُرجِعون في نفوس طلابكم مجدَ أبي تمام بعدما صاروا شعثًا في الأرض شِيعًا؟ وهم طلابٌ في الأصل يمشون مشيَ ظُلّعٍ في أوْهن ذائقةٍ؟ وبأيِّ قانونٍ قبَّحتموه؟ وبأيِّ قانونٍ حسَّنتموه وقانون الذائقة في النفس واحدٌ؟ ألم تفلح السنون والتحصيل في كشف در الرجل؟ لو أن الذائقة تتطور، فإن الذي تميلُ له طَربًا اليومَ لأنتَ مُبغضه في الغد، على أنَّ الجمالَ واحدٌ راسخٌ إلى يوم الدين، وإن كنّا ظلمنا أبا تمام -على قدره الذي لا يخفى- فكم ظلمنا مَن هو دونه؟

إن الذائقة يُكشف عنها... لا تتطور... وهذا على ما فيه يدلُّ على أن لديكم قواعد ما وافقها حَسُنَ وما لم يوافقها قَبُحَ.

والأصل في الذائقة الفطرية أن الجمال يخترقها بلا شروطٍ. هل يحتاج المرء ثلاثين عامًا ليُنصفَ حبيبًا؟ فإذا أنا على خَجلٍ من شدةٍ في كلامي، فعلَى حبيبٍ كان الظلمُ أجلَّ وأكبر... يتغنّون بأسماء أهل العربية النقاد القدامى، ويحتفون

بكلامهم، ثم يدرِّسون الشعر بالمناهج الغربية. ما هذا؟ تتغنّون بأناسٍ لا تأخذون بكلامهم؟ ثم يتبرأ الواحد منهم من تلك المناهج، ويرجع لكلام السابقين أهل العربية الحق، بعدما كان ينافح عن تلك المناهج، وبعدما درسَ الشعرَ بهذه المناهج.

أي ذائقة تلك... تستفتح كلام العرب بمعاني العجم؟ ألا تستحون؟ لا سيدي... أنَّى لنا الحياء... إنَّا معنا الرعاع أينما تَوَلَّينا طافوا بنا طائعين... إنْ همُ إلا مُسبِّحون (طب وأين الفذلكة حين كنتم تتغنون بالمناهج الغربية وسعة الاطلاع التي تبرَّأتم منها؟ ألم تدرِ أن في الجهل نعمةً؟ إذ لو كنتَ تجهل تلك المناهج؛ لما لوَّثت الشعر بها، فكلّما وسع اطلاعك أفسدتَ. فلن تزول آفة منك: إخضاع كل شيءٍ تحت قوانين ما تملكه، ثم تدرك أن ما تملكه كان فاسدًا).

وهل يصنع ذائقةً كتابٌ؟ كما... هل يصنع كتابٌ شاعرًا؟ إنما يقول لك الكتابُ: إن لديك ذائقة، أو أنت موهوبٌ. لا يعطيك الكتاب أكثر من هذا، أو قد يعطيك مجادلةً إذا كنتَ من عبيدها. لديَّ أطنانٌ من الكلام في هذا، ولكنِّي أستكينُ راحةً في اليأس.

لقد بثَّ في روعي ظلمًا يستشعره، فأردتُ أن أُدير الحديث لوجهٍ آخر. فلم يأتِ في خاطري غير ما كان سألني عنه في الأمس.

ـ على فكرة، لقد سألتُ لك عن دكتورة عظام ولم أجد.

بدا على وجهه مَن يعرف جوابي:

ـ أعلم هذا، ستُحل إن شاء الله، وشفى الله أمي.

ـ آمين.

فأراد هو أن يُدير الحديث:

ـ إني على يقين؛ لا تخلو أسرةٌ من بغيضٍ أو كاذبٍ أو حقودٍ أو منافقٍ. إذا ما أرّقَ ثائرَ الحواس شيءٌ... فلا بد يومًا أنه خارجٌ... ما أشأم أن تكون ابتسامة مَن يخيطُ حولك القيودَ من المبهجات... ولكن على الإنسان أن يبحث عن أقل الأضرار، وأن يحاول تكوين أسرة خالية من كل هذا، ولو فكَّرتُ في كل آفات مَن سأرتبط بعائلتها، فلن أتزوَّج.

على كلٍّ... لم أكن أريد الزواج، ولكن أمي تُريد ونيسًا لها، فلا ينفك عني إلحاحها، هي لا تقبل أن أُساعدها في أعمال البيت، ولكنها بحاجة إلى مَن تحدثه، غير أنها تُريد أن تفرح بي، فأخي الأكبر يرفض الزواج ويرفض الرجوع من الخارج. فلا تنسَ اليوم خِطبتي...

فقال على حرجٍ:

ـ لقد قلتُ شعرًا على المعنى الموجود في أول كلامي.

فقلتُ متهللًا:

ـ أسمعني.

ـ وكمْ مِنْ بغيضٍ قد شقيْتُ لزامَهُ ... لأجلكِ إلّا لم يكنْ من نِعالي

وأخْتلقُ الحاجاتِ مِنْ قُرْبِ دارِها ... فأدْنو بأفعالٍ عليَّ ثِقالِ

فلستُ أُبالي دُونها الناس جِيْرةً ... بألّا تكوني جارةً لي أُبالي

فلم أدْرِ ما الدنيا وممّ نعيمُها ... إلى أنْ تراءتْ لي عرفتُ ضلالي

تُريني تمامَ النُّعْمِ فيها زيادةٌ ... على كلِّ حُسْنٍ قد رَبَتْ بالجلالِ

أنا لا أنكر أني إذا اجتمعتُ و(منذر) أتأهب حسيًّا وفكريًّا لمجاراته في أحاسيسه ومعانيه، وأكون على وَجَلٍ منه. فقلت له محاولًا أن أُضاهيه:

ـ جميل... حقًّا؛ الأناس العاديُّون يتمتَّعون بلذائذ الدنيا قاطبة. أما الأفذاذ... فهم فقط القادرون على وصف هذه اللذائذ مع عدم معايشتها. ومحاكاة التمتُّع بها بما يفوق الذين عايشوها على الحقيقة. ولكن لِمَ ترفض الزواج؟

ـ أرى أن الأكثر استمتاعًا بالنساء في هذه الدنيا هم الأنذال. مع النذل تتجلّى تضحيات الأنثى، مع النذل تطلق الأنثى عنانَ طاقاتها القصوى: إما في تحمله، أو تغيره –واهمةً في تغييره– أو إظهار حقيقة أبعد مدى في أنها بنت أصول. مع النذل تحترق الأنثى حتى يفوح أطيب عصارتها. أما مع الكريم –القوي وليس الضعيف– الذي يعطي الأنثى مقاليد التحكم في طاقاتها ومشاعرها تنفقها كيفما شاءت وفي أي باب شاءت؛ يرتدُّ كل هذا في أغلب الأحيان بصورة «نكدية» عليه. وكأنَّ المرأة لا ينبغي لها أن تتحكم في أي باب تصرف مشاعرها، لا بد من حَكَمٍ لها، موجّه لها... ولا موجّه لأبواب طاقات النساء –رغمًا عنها–

إلا الأنذال... إن ما يدور بين النذل والمرأة أشبه بساحة حروب؛ كما تُدكُّ الأرضُ بالقنابل فإنها تدك مسامع المرأة بدويها؛ فتجري ترتعش خوفًا تتعلق بثياب زوجها المعلقة، وتشتمّ منها ريح الأمان إلى أن يرجع إليها حيًّا. وهي تجري ترتعش خائفةً يتساقط منها كل العُقد الأنثوية. فالنذل والحرب سببان في تَنَسُّم أطيب عصارتها... ومع هذا... بل وهو سبب شيطنة الكثير من النساء: إن كل أنثى تَسمع أو ترى رجولةً حُرمت منها؛ تشبُّ بها النارُ إما لأنها ليست تحت قوامته، أو لأنها تذكرها بأنوثة تعجز في الإحساس بها. لقد خُلقت تبحث عن سيدٍ تنقاد بتغنّجٍ له؛ فالمرأة الميتة هي التي قادتْ من حيث أرادتْ أن تُقاد... لا بد لكل المعاني أن تتجسد إلى نماذج بشرية، بكامل تفاصيلها وحياتها اليومية، حتى يفهمها ويعي ما وراءها الناسُ... إن هذا الأمر كله يستحيل أن يُحل في هذا الجيل.

ـ وأنا أرى أنك أكثر مني تشاؤمًا.

ثم قال لي: (دعنا من التشاؤم في هذا اليوم... لقد حدثَ لي أمرٌ مع هذه الأبيات...).

وقبل أن يتمَّ كلامه... قطعَ حديثنا زائرٌ، وتحرَّج (منذر) بطبيعته الحساسة من انقطاع الحديث معي، كلّ شيءٍ يتحرَّج منه حتى الأشياء التي تحدث دون إرادة أحدٍ...

١٢

عن يساري ابتسامة (يوسف) الجالس مع مجموعة تلعب (الطاولة)... والذي يبدو لي أنه أصاخ بسمعه لكلام صاحبه في الجامعة. إن مدينتنا من الصغر أن نتلاقى جميعًا، وهذا المقهى من معالمها الشهيرة في أرجاء المدينة وخارجها؛ إذ تُقام فيه مسابقات الشطرنج.

وإن لـ (يوسف) بسمة، لم يُخلق مثلها في العالمين إلا لِمَن هو من جنسه الفريد. بسمة العارفين السابحين مع الله... بسمة الكاشفين عن الغيب. بسمة تقول للناظر إليها: ما زال أمامك الكثير والكثير.

ثم ترجع فتقول للناظر: أنتَ وإنْ تجاوزتَ الكثيرَ والكثيرَ، فلن تصل أيضًا يا مسكين. بسمة تقول: أنتَ لا تعرف شيئًا، ما الذي أقحمك في الذي لا تحسنه، وإن ظننتَ أنك مُحسنُه، لا بد أن تمرَّ وتمرَّ وتمرَّ على بلايين الأشياء حتى أقبل منك جزءًا من شيءٍ وسأنساه لك...

لكن تزول هذه البسمة، وتُستبدل بِجذْلان البشاشة ومنتهاها؛ إلى مَن هم مثله، أو مَن هم يعتنقون نفس فكره ومذهبه، أو هم مَن يتأكدُ عنهم -بعد الاختبارات الدقيقة- أنَّهم يفرطون فرطًا -لا يُخْمد دأبه- في الولاء إليه، أو مَن هم يُعرف عنهم أنهم ضد مَن يخالفون مذهبه، وإن كانوا ليسوا معه في مذهبه، ولكنهم حققوا شرطًا مهمًّا أنهم على خلاف مَن يخالفهم.

إن بسمة (يوسف) الرَّضيَّة من ذخائر الدنيا التي لا تُلقى لناظرين إلَّا بجهدٍ؛ كالبحث عن الزبرجد. كُلُّ الأرض كُلّها لديها الحق، أو بعضه إلا الفئة التي تُخالف (يوسف)، يَقْبل (يوسف) أيَّ شبهةِ حقٍّ أعرج من أيِّ كائنٍ أو غير كائنٍ إلا الفئة التي تخالفه.

ومن الجهل المكين أن نقول: هذا تعصّب... كلَّا، إنه تكوين (يوسف)... فإذا نلتَ بسمة (يوسف)، فإنك قد حققتَ أشياء عظيمة في الدنيا حقًّا؛ ليس في معنى البسمة ذاتها، ولكن دلالات هذه البسمة تُشير إلى أن فيك شيئًا ذاتيًّا؛ وهو أنك تعرفُ كيف تعيش في أيِّ وضعٍ، بل ويكون لك منزلة بين الناس.

فأقبل علينا (مُصعب)... الطفل الذي يلوِّح في وجهه أنه لن يبيت يومًا على ظالمٍ، تكسوه هيبةٌ حُرِّمتْ على ابن الثلاثين، وهو لم يتجاوز الرابعة عشرة من عمره، فقلتُ له:

ـ أتعرفني يا مُصعب؟

ـ إذا جهل اثنان بعضهما، فالعيبُ عيبُ الصغيرِ الجاهلِ.

فقمتُ من مقعدي باسمًا، قبّلتُ رأسَ الفطنِ الصغيرِ. كان أبوهما رجلًا فاضلًا مُحبًّا للأدب، قد ترك لهما مكتبة صغيرة. كلها من كتب الأدب القديم. ولكنهما من الذين ينبتُ فيهم القليلُ كثيرًا، وشجرةٌ واحدةٌ في نفس أحدهما تتشعَّب إلى أن تستظل بها الأرض...

شغلتُ نفسي، فيما تبثُّه الوجوهُ من حولي.. حتى يدنو من أخيه (منذر)، لعلَّه

مرسولٌ من الوالدة يتعجَّله في الاستعداد لِخِطبته في المساء. وكم تمنّيتُ أن تغمر الفرحة هذا البيت؛ بعدما ماتت ابنتها الوحيدة التي كانت تتمتع بجمال باهر، ماتت في ريع شبابها، ماتت مبطونة بداءٍ أقرب إلى السحر من العلة. والتي تركت وفاتها أثرًا غائرًا دفينًا في نفس منذر، حتى كاد شجن الوفاة أن ينفث خلف كل كلماته الحزينة والسعيدة معًا، كما ترك أثرًا في نفس الأم المكلومة الشجية، وغاب عنها ونيسها الوحيد.

شغلتُ نفسي فالتفتُّ بعيني إلى يساري مرةً أخرى أتأمل الجلوسَ مع (يوسف).

تتفاوت أعمار الجالسين معه؛ فهذا هو المحامي أكبرهم قد قارب الستين، لو أن طبقات الناس تُعرَف بملامحها؛ فإنه قد اجتمعت فيه ملامح خفير، ليس قبحًا أو جمالًا، ولكن هكذا أوامر الإحساس. لقد ظل حياته كلها يتصنع الرزانة، إلى درجة لو خرجت منه الحماقات؛ لأعتبرها الناس حكمة مُضمرة ومبهمة، تعجز عقولهم القاصرة عن سبر ما وراءها.

وهو الذي حدَّثني عنه (شاهين) أنَّ لديه أوراق تصفية الورث، أصبح من عِلْيَةِ القوم. ولكنه مستمسكٌ بهذا الحي حتى بعد انتقال زوجته وأولاده يُسْقونَ التَّميُّزَ من إحدى المدن الجديدة، فيأتينا ثلاثة أيام.

ما زال يهرب من تعْنيف زوجته ولومها على تعلّقه بهذا الحي قائلةً له: «يكفي هذا... لقد أفنيتَ عمركَ في المرور على طرقٍ تحت الإنشاء»... وقد يُفهم من

كلامها؛ أن المرور على تلك الطرق على مر سنين طويلة من حياة الإنسان؛ يجعل رؤيته للجمال لا يُرتاب في زيفها؛ أي أن إحساس الجمال أصبح مشوهًا... فذاك ما خطر على عقلها؛ إذ لم يكن الدافع لرغبتها هو المحافظة على إحساس الجمال، وإنما من أجل التميز فقط لا غير؛ لقد كانت قديمًا تحثه على الانتقال لتلك المدن الجديدة التي تمتلئ بالتميز الخام، وكانت تملؤها الحسرة أن أولادها قد فاتهم ركوب الباص الأصفر الخردة الأمريكاني الحضاري، حين يمر أمام بيتها فتخرج وهي مُلتحفةٌ بالروب آخذةً بيديها أطفالها، تمشي فوق ممر من الأحجار الناعمة بين حديقة منزلها الأنيقة -فكل حجرٍ في هذا الممر تدهسه بأقدامها فكأنها تقطع صلةً بجارةٍ كانت في الحي القديم؛ فانْبَجستْ في عروقها دماءُ النبالةِ- فتودعهم بعد ركوبهم باص الأمان بابتسامة: لقد ربح البيع... وقبل دخولها ممر حديقتها مرة ثانية، وهي ما زالت على الرصيف، يمر عليها شابٌّ وفتاةٌ -هم موجودون في أي إعلان وفي أي يافطة على الصحراوي، بل هم هدية مع كل مدينة جديدة- بملابس رياضية أنيقة تناغم ألوان حديقتها؛ يمارسان التدريبات الصباحية، فيبتسمان لها بأسنانٍ بيضاء لا مثيل لها. فتهز رأسها بابتسامة لطيفة رقيقة تناسب جهود طبيب الأسنان ونظافة عيادته، وتقول في نفسها: «أدي الجيران ولا بلاش». وإن كانت قد فاتتها تلك اللذة مع أبنائها، فأقسمت ألا تفوت مع أحفادها... وكلما تركها ذاهبًا إلى الحي القديم الذي وُلد فيه؛ تلكّأتْ فوق لسانها كلماتُ مقولةٍ لمجهولٍ، ولكنها فُتنتْ بها

بعدما فهمت معناها في يوم كامل، فحفظتها كرسالة دائمة على هاتفها. ترسلها لزوجها حتى لو كان واقفًا أمامها، حاولت كثيرًا في حفظها وفشلت... ترسل له: «سماؤكم قَعر كُوبري نجومُها لمباته الصفراء»... فتشعر بلذةٍ أنها أغرقته في النكد، وأفسدت زيارته للحي البلدي... في البداية كان يتغاضى عن غيظ زوجته في إيلام حبِّه للحي القديم، ولكنه شعر أنها تستخدم هذا التميز الجديد عليه هو ذاته، فقال في نفسه: «سأبحث عن كلام يضاهي مقولتها التي تنكِّد عليَّ بها في كل وقت».

فوجد كلامًا ينافي كلام زوجته فاقتصّه من مقالةٍ، فجعله هو أيضًا رسالة على هاتفه تكون ردًّا جاهزًا لرسالتها، وكانت رسالته أكبر: «تلك المدن مبتورة الأصالة، تتشابه مع العمارات التي تراها عند دخول المدن الكبرى، عمارات كأنها مخلفات صاعقة تراكمت منها كومة خرسانات؛ تجدها على خط رملي عالٍ صحراوي قحط. فتحاول أن تتخيل النفوس التي تعيش فيها، فتكتئب لهم وبهم ومنهم وحواليهم، عمارات تكاد ترى شقوق الحوائط الجاهزة على بُعد نصف كيلو. ما أحلى شروخ البيوت العتيقة، وما ألعن وأقبح شروخ البيوت الحديثة. تلك الحوائط مدة استخدامها كمدة استبدال الشاحن اللعين الذي ينبغي لك استبداله كل شهر. فصارت جدران البيوت لا بد من استبدالها كالشواحن»... فلمّا شعرتْ أنه تغلّب عليها في جولة الرسائل؛ وقفت خلف شجرةٍ في حديقة منزلها ذات صباح، والتقطت خفيةً صورةً للشاب والفتاة

الرياضيين، وطبعتها بحجم كبير ووضعتها على جدارٍ مميز المَرْأى في حجرة النوم، وكتبت تحتها: «أدي الجيران»... وفي الحقيقة الزوج لم يكن مقتنعًا ولا شاعرًا بحرفٍ واحدٍ من رسالته الطويلة، ولكنها مجاراة النكد بينهما. إنما ذهابه وإيابه لهذا الحي من أجل أن إحساس الشيشة على مقهى بلدي لا يقاوم. فهو صموتٌ إلا قليلًا. لطالما أراه يجلس على المقهى بالروب دي شامبر الشتوي.

من الذين إذا ما تحدَّثوا في أيِّ أمرٍ مع أي إنسانٍ؛ كعمل أو علاقة اجتماعية... يُبدي للمتكلم أنَّ ما يتفوَّه به هو أمور تافهة جدًّا يمكن حلّها، ومحض خيال سيتمّ القضاء عليه، وأنَّ تلك المخاوف مبالغات أنضجها عقلٌ سقيمٌ... ولكنَّ العجيب أنَّ هؤلاء ينسون ولا يعبؤون بما قالَ القائلُ؛ إنهم لا يستقبلون تلك المخاوف أو المعاناة، حتى لو كانت تافهة بالنسبة لهم. لا يستقبلونها بمقدار ما يعانيه الإنسان في نفسه، وإنَّما بمقدار ما يلاقونه هم في حياتهم الميسَّرة الناعمة السير.

وإن سمعوا في كل ساعة عن حظوظٍ تعثَّرتْ... لن تتبدد آراؤهم... نعم... حياتهم ناعمةٌ سَيْرُها، ليس من أجل المال وحده، ولا من أجل مهنته، إنما هم من الحظوظ التي لا تتعثَّر، وإذا ما تعثّرت، فهو تعثُّر من أجل التقاط الأنفاس، حتى إنهم ما خطر على أذهانهم أن هذا تعثّر، بل هو شيءٌ سيصابون منه بلذةٍ، وهم يدهسونه.

أعتقد أنَّ الأمر لا ينتهي عند هذا؛ إن الجهاز الداخلي في أنفسهم... الخاص

بقياس درجات المعاناة لدى سواهم من الناس قد تم تدميره. ومن دوام نعومة طرقهم الميسرة -وما هذا بحنكةٍ منهم، بل هي الأقدار شاءتْ- أصبح سقف المعاناة عاليًّا جدًّا؛ ليتنازلوا مشكورين أن يطلقوا عليها اسم (معاناة).

بالطبع ما هم بجفاةٍ غلاظٍ، فلديهم أحاسيس كغيرهم. ولستُ بمدَّعٍ أن مكان قلوبهم صفائح الصلصة. ولديهم حد أدنى لتصور المعاناة في أي إنسانٍ؛ إذ يجب عليك أن تُحرَق بالكيماوي، ولن يتعاطفوا معك أيضًا... حتى هذا الحرق... لن يزعجهم إلا دقائق... ثم يفيقون من شفقتهم على المحروق. ويتساءلون: من المؤكد أنه يملك عقلًا مليئًا بالغباوات، جعل نسيج جلده يتفاعل مع الكيماوي.

أما الثاني... رجل الأسرار؛ كاللبنِ صفيحةُ وجهِه وشعْرُ رأسٍ كبرقعٍ لم ينسدل، وشاربٌ كقطعة شيكولاتة مطبخ لم تذبْ في اللبن، كأنَّ في رأسه أثقالُ أسرارٍ تميل أمامه بأكتافه قليلًا. مع كل كلمة يقترب من محدِّثه متَّخذًا وضع التَّقْبيل؛ كأنه يريد أن يقول له سرًّا. فيبدو أنَّ كل حرفٍ هو سر الأسرار، ومن طعم حروفه يتحدَّد نوعُ سجائره.

وذاك (شحطٌ) أربعينيٌّ صديق دراسة لـ (عطية)؛ كلُّ شيءٍ ذو قيمةٍ، ورطْب، للألياف الجافة المتحطّبة المسجونة داخل جمجمته، فلو مُسحتْ أليافُه بِمُخِّ طيرٍ لكان من سادات قومه... على حظٍّ من ثقافةٍ، حَباه إياها مشاهدةُ حلقة الدكتور مصطفى محمود عن بلايين الميكروبات التي تخرج من فم الإنسان عند العطس،

شاهدها خمس عشرة مرة أو يزيد.

يتمضمض بالكلام؛ كأنَّ له مليون كلمة في اليوم بُدٌّ له أن ينهيهم قبل المنام، وإن تبقى منهم شيء استكملهم في أحلام النيام... لعل هذه الصفة قد اكتسبها من صبرِه أثناء عَدِّ الميكروبات بنفسه... لظل يتحدث لسانه حتى ولو قُطع منه، ولحلّ هذه المُعضلة بعد قطع اللسان، وإرساله في كبسولة عاجلة فضائية تنفجر خارج غلافنا الجوي، وعلى افتراض أن شيئًا عبرَ الغلافَ؛ هو أن نتأكّد أننا سمعنا الانفجار؛ إذ يحدثك عن عدد الفلاتر الموجودة في أحد سخانات المياه مرورًا بأفضل بائع سمك في حوض الأطلسي، وصولًا إلى كراك أحدث إصدارات الفوتوشوب...

كل شيءٍ صحي وطبيعي عدا شيء؛ إذ يقول حرف الدال تاءً. مثلًا كلمة: (دلوقتي)، يقول: (تلوقتي). كل كلماته يبدل الدال تاءً، ويقشعر سامعُه بنوع من التخنيث والميوعة، هو لم يقصد شيئًا، ولا يعاني مشكلة في النطق أو الحروف. ولكن أحسبني قد اكتشفتُ علاجًا لأحد المنغِّصات؛ قل عشر مرات: (تلوقتي)، وإذا لم تشعر بأن نهدك يبرز ويعلو وينبو ويرفع القميص من فوق عظم صدرك لا تزرْ قبري، فهذه نظريتي في علاج الفلات، حتى أتوصل إلى علاجٍ يكْشطُ الخصرَ بغير مشرط...

لماذا يضحكون حين يتعثَّر أحدهم في الطريق؟ لماذا يضحكون حين يضربُ مجنونٌ رجلًا على غفلةٍ منه؟ لماذا يضحكون حين يتعرَّض أحدهم للمواقف

المُخجلة؟ ما المضحك في كل هذا يا أيها البشر؟ حتى لو ضحك معكم الذي تضحكون منه؟

آخر ما أثار انتباهي نحو هذا الشحط... كانت فتاة في العشرين، علقتْ يد أختها الصغرى بيدها، مرَّتْ من أمام المقهى، ورأتْ أشعث في ثوبٍ سَملٍ عاجزًا... يمشي قاعدًا... تستعينُ أقدامُه بكلتا يديه، فتركتْ أختَها ورجعتْ تُعطيه، فأشاح بيده رافضًا ما رغبته في الإحسان، فلفحتها ريح الحياءِ، التي تُسكت العقل والتنفس عن عملهما، كلفح ظمآن في قحط الصحراء، وقهقهتْ أفواهُ العجول الراكدة أمام المقهى، فثار كل ما بين أحشائي خجلًا بها احمرارُ وجهِها عند إشاحة الأشعث لها، وهي لا تدري كيف ومتى رجعتْ إلى أختها. وتعالتْ أمْيزهم قهقهة الشحط، الذي فيه من الحُمقِ ما أبْدى منه على ما يخفيه يسيرُ... جلجلة ضحكته كمراهقٍ بليدٍ تحدث له أتفه الأشياء، يظل حياته يضحك كلما تذكره بذات الانبهار الأوّلِ.

وهذا هو الذي هو (عبد الحميد)... يشعر بأنه غير موجود، ولكنه غاية في السعادة من هذا الوجود. يعيش في التصوير المتهالك البطيء. لقد وُهبَ ذاكرة نسائية؛ لديه حكاية في الثانوية، وأخرى في الجامعة، وأخرى في المصنع الذي يعمل فيه، وأخرى في المواصلات، وكل طبقات الأرض المتغيرة تحت هذا الأسفلت، وكل الزجاجات التي تهشمت من هذا المقهى على مدار الحقبة، وكل الطاولات فيه، وكل الكراسي وكل حجر في هذا الجدار يحفظون جميعًا

هذه الحكايات، التي يحكيها مع الحركات ذاتها، حتى لو حك أنفه أو عظمَ استه كل مرة.

ولو أخطأ في حرفٍ من تلك الحكايات لردَّ عليه أيُّ الجمادات من حوله مُصحِّحًا له، ولكن لا ينطق أيّ جمادٍ، ليس لأنه معدوم المنطق، وإنما لأن صاحبنا لا يخطئ. جلسته ميَّزتها حتى القطط المارة تحت الطاولات: (مياوو هذا عبحميد)؛ بوضع قدمٍ على قدمٍ، حتى أن الساق المرفوعة يمكن لها أن تلتف قدمها حول الساق الحاملة، وهذا من نحافته النحيفة، لا يرتدي إلا الشبشب على المقهى، وليس بحاجة إلى جوربٍ يقيه البرد؛ إذ إنَّ لحمَ قدمِه يكسوه عظامُها.

ولا بدَّ لـ (عبحميد) عند إشعال سيجارة جديدة أن يرشفَ رشفةَ شايٍ من أيِّ شاي موضوعٍ أمامه بعد أن يستأذن صاحبه طبعًا وهو رافعه على شفتيه. فمِن الظلم أن يطلب شايًا مع كل سيجارة جديدة.

لا أعتقد أن رميمَ جسدِه سيخلِّف ترابًا بعد تحلّله في قبره، وإنما سيؤول إلى كومة من طافية سجائر الكيلوباترا، أَضرَّ ذراها أعينَ الثعابين. فإذا ما استُشيرَ في أمرٍ أخذتْهُ الجلالةُ ربع ساعة قبل أن ينطق أول حرفٍ. ولا يبالي إذا اشترى إنسانٌ في بحبوحةٍ من ثراءٍ سيارةً، ولكنه وجمَ وجهُه اختناقًا إذا اشترى مَن هو دون الميسور درَّاجة. نحَّى جلالتَه جانبًا، ناطقًا مسرعًا إذا شكى أحدهم زوجتَه أمامه حازمًا بقوله: (طلقها).

وهو من القلائل الذين يجمعون بين الحزم والرقة، ولقد شاهدنا حزْمَه. أما رقته؛ فهو حين يدخل بيته على أظافر الأصابع مانعًا حفيفَ ملابسه إصدارَ أدنى صوتٍ حتى لا يؤرِّق مسامعَ زوجته وهي تتصفَّح أحداث الساعة، كلّ شيءٍ لديه (عادي)، فلو أنَّ مُذنَّبًا (لطشَ) الأرضَ ذيلُهُ... أحْلى (عادي) سنسمعها جميعًا من بين شفتي (عبحميد) المشقوقتين بلا رسمٍ حول شِقّيْها... إنَّ أكثر ما بدَّلَ مطعمي وهوائي الذي أتنفَّسه أشواكًا هو أنِّي أشترك في حسٍّ أو شعورٍ مع (عبحميد)؛ إذ ما كرهتُ شيئًا في حياتي كمشاركتي أنا وهو إحساسًا واحدًا.

١٣

ودّعَني (مُصعب) وذهب، ولكي أزيح عن (منذر)... الذي بدأ كلامه باعتذاره لقطع الحديث، وأيضًا حتى لا يشعر أني ثاقب النظر في عينيه لأتكهَّن ما الذي دار بينه وبين أخيه... ليس بنوع من الفضول، إنما هي طبائع البشر؛ إذا تحدَّث اثنان في موقف اضطراري كمثل هذا، ثم توجَّه أحدهم للحديث مع آخر، فإذا كان هذا على قدرٍ مهولٍ من الحساسية، فإنه سيرى -سواء أكان وهمًا أم حقيقةً- في وجه الآخر استفساراتٍ عمَّا دار بينهما، وإن لم يكن على الحقيقة يُريد معرفة هذا الحديث. ولعلمي طبيعته كنتُ أتجنبُ مثل هذه النظرات بإحكام؛ حتى لا أصبّ أرقًا على أجيج حساسيته تجاه كلِّ شيءٍ. فقلتُ مسرعًا:

ـ لم تقل لي ما الذي حدث معك فيما يتعلق بالأبيات؟

فقال وهو ينزع الكلام من قلبه انتزاعًا، كأنه يطلب من أيِّ سامعٍ له أن يشعل كل مجامع حسه لشعور لما يدور تحته كلامه داخل نفس صاحبه، طريقته هذه دومًا تُذكِّرني أنه يائسٌ بأن السامع لن يصل لدرجة غليان المعاني المتشعبة والمتداخلة تحت معنًى واحدٍ داخل نفسه كما هي في نفس (منذر):

ـ إن شعوري أو انفعالي لشيءٍ ما؛ هو شعور أعلى درجة يصلها الإنسان من الشعور تجاه هذا الشيء، وإن غيري يشعر بأول درجة من درجات هذا الشعور، وأنا أكون في آخر درجة؛ لذلك قد تسبّب لي آخر درجة نوعًا من الاضطراب،

وتزاحم المشاعر أو الغضب (قد يترتب على أعلى درجة من الشعور غضب ما؛ غضبٌ لا يستشعره مَن هو في أول درجة، فنكون أنا وهو في غاية التباين)، وأعلى درجة من هذا الشعور قد يصل إليها غيري... لكن مع الوقت.

فكأني أختزل وأضغط الزمن لشعور درجات كبيرة في شعور بسيط، أنا عملي جدًّا في الشعور، أقصى درجات العملية في الدنيا... لكني خمول لأقصى درجات الخمول في الحياة العملية نفسها... (لقد أنفقتُ عمري كله، في ترتيب طبقات درجات الشعور الدقيقة في الشعور الواحد؛ سواء أكنتُ مستقبلًا أم باثًّا له، وترتيب ما تستدعيه الطبقة الواحدة من المشاعر الأخرى، ولأني استنفدتُ كل طاقةٍ لي في الشعور الواحد، ودفعتُ روحي دفعًا لا مزيدَ عليه في مداه حتى كأني أتخبَّطُ في مجاهيل غيب؛ فأُريد تخليدَ جميع مشاعري)... وقد رأيت ما رأيت على أنِّي لم أَرَ أنَّ العملية في الشعور، والعملية في الحياة العملية نفسها لا يجتمعان قط...

إنَّ سرعة جريان المعاني في جنبات نفسي تفضحُ تكاسلَ لساني المتثاقل في اللحاق بها... لتفضحنَّ أيَّ لسانٍ. فتضطربُ ألفاظي. وأصبح في عِناد الحيرة كحَكَمٍ بين متعاركين لا ينبغي لهما الخصام.

فيحتدُّ من معترك العراك بينهما أن واحدًا منهما بحاجةٍ إلى وقتٍ ليفهم عن الآخر، على أن الأمر في عجلٍ بإنهاء التفاهم بينهما. فكان المتثاقل يلحق آخر كلمتين من تلك المعاني. فلا المعاني تنتظرُ ولا منّي اللسان يفيقُ.

وكل هذا يحدث حين ينبغي لي الرد على سؤالٍ أو شيءٍ يحتاج كلمةً واحدةً... كثيرًا ما يحدث لي أنَّني أنسى مسميات الأشياء، ولكنِّي عليمٌ بمعانيها كلها، فما من كتابٍ مثلًا حفظتُ اسمه، أو إذا تذكرتُ اسمه دائمًا لديَّ شكّ أنَّ نطقي له غير صحيح، ولكن هذا الكتاب متغلغل في نفسي كلِّها إذا كنتُ قد أنهيتُ قراءته...

أصبحتُ معتادًا على نكدِ هذا العِرَاكِ. حكماء كلّ العصور قد نصحونا بألَّا نجالس الحمقى والأغبياء، والبُعد عنهم فضيلة؛ ولكنهم نسوا أن يخبرونا كيف هو الحال إذا تعاملنا مع الحمقى في ظرفٍ طارئٍ، وقد نسينا في البعد عنهم كيف يُدار الحديث معهم؟... إنَّها الحيرةُ الكبرى... لا تظنّ -وأحسب أن مثلكَ غير محتاجٍ لتأكيدٍ- أنَّ كلامي هذا أعذارٌ لما هو آتٍ عن أمر الأبيات. يفضِّل أن تنسى ما قلته.

كأنّي أنكأ جروحًا، وأُسعِّرُ نبضَها إذا ما سألته عن شيءٍ...

ـ لم أكن على علاقة به، إلَّا أنه يمتُّ بصلة قرابة إلى صديق لي، فأصبحنا نتبادل السلام... إني لأتملق قليلَ العقل ضامر البصيرة في بعض آرائه حتى لا يمسسه مني آلام حين أظهر حقيقة آرائي التي قد تشعره بالضعف، أو قلة الحيلة، أو ضيق العقل، أو التبجح عليه برجاحة العقل، أو حتى أقصر من الخلافات التي يمكن التجاوز عنها، والتي مع كثرتها تؤول إلى غُصّةٍ وجفاءٍ حتى في كلمة: «صباح الخير»... نظرتُ في نفسي حتى أغرقني الإرهاقُ بلا حراكٍ، وحين

فتشتُ في الناس انتهيتُ في لحظتي... النفوس الحساسة لا تمتلك الصمود أمام أتفه الأشياء، وتخرج منها بندمٍ وحنقٍ ووعودٍ قاسيةٍ على ألّا تعود. ثم تعود. ولكنها تمتاز -بما لا يمتاز غيرها من نفوسٍ- بالجَلدِ على عظيمِ الأمورِ، فإني أتملقه لا لشيءٍ إلا لأنني غير قادرٍ على الصمود. أما مع هذا، فلقد أَعَارني من تبجّحه جَلدًا ومن برودِ بلادتِه صمودًا... وجدني مرةً.. لا أذكر فيما كنتُ أفَكر... واقفًا في طريقي، فإذا به وهو بعيد عنِّي، وقد سمع كلامه مَن بالطريق، وقبل أن يقترب مني -بصوت عالٍ- يقول لي: أنت علاجك الزواج...

فاضطربت أشدَّ الاضطراب، فنظرتُ سريعًا إلى مَن حولي؛ حتى أتأكدَ هل من نسوةٍ ظننَّ أنّي كنت أراقبهنَّ... ولكن ما حدث في الظرف العائلي الذي اجتمعنا فيه، أنه رأى في يدي ورقةً، قد كنتُ أكتب فيها بعض الكلمات، فسألني بإصرارٍ: ما المكتوب؟

فتحرّجتُ، وقلتُ له: أنا ما زلتُ مبتدئًا في تعلُّم علم (العُروض)... فما إن قلتُ هذه الكلمة حتى فتح فاه عن آخره؛ كأنه تنينٌ يَبْغي ابتلاعي، قائلًا: عا عا عَروض...

فقلتُ له: عَروض... فتذكَّرتُ في لحظتي، أنَّ إنسانًا كان يعيبُ على مَن ينعون المبجّل محمود شاكر في ذكرى وفاته؛ فهو يعيب عليهم أخطاءهم النحويَّة، بل كاد يقول لهم: أنتم ليس لديكم ألف حاشيةٍ على ألفية ابن مالك؛ فلا يحقّ لكم أن تشعروا، والميت لن يقبل نعيكم، ونحن أحقُّ بالحديث عنه من غيرنا من

أمثالكم الجهلاء...

ألم يفرض فرضًا خُزعبليًّا أن القائل الخاطئ المارق الماجن قد يقول قولةً ما؛ يغيّر بها وجه الدنيا كلها بكلمات قبَّحها وعرَّجها اللّحنُ؟ وهل وَقفَ الشافعيُّ -رضي الله عنه- عند اللحن فقط؟ لَمَّا تكلَّم مَن يعوده في حضرته وهو ينازع الموتَ، فلَحنَ في كلامه، فلم يُنسِ الموتُ الشافعيَّ أن يردَّ صاحبه مصحِّحًا. فهل يُعقل أن الشافعيَّ الإمام وقف عند اللحن وتغاضى عن معنى كلام القائل؟ أم أنَّ الشافعي أسقط صاحبه إلى أبد الدهر، وماتَ وهو ممسكٌ بذلَّةٍ له -حاشاه؟

هبْني كنتُ إمعةً؛ ويشفع لي أنْ قال سيِّد الخلق -صلى الله عليه وسلم: **«الحكمة ضالة المؤمن»**، فخذ منِّي يا مؤمن... عَلِّي أُناجي ما لا تُناجيه، وما أنتَ بمدركه. وما صحَّحَ الشافعيُّ كلام صاحبه إلا ليستفيد بمعانيه، أوَكانت بُغيتكَ تُسقطني قبل أن تسمعني أتلفَّظُ وصيتي الأخيرة؟ وما هو بمستعجبٍ: أنَّ كلَّ هؤلاء يتغاضون عن أخطاء أصحابهم... ملاعين... إنني أنتظرُ سؤالًا منذ تلك الحكاية...

ـ هل طلبَ منك رؤية الأبيات العَا... عاروضية؟

ـ يبدو أن اليومَ مباركٌ... الحمد لله أنِّي سمعتُ السؤال قبل موتي... لا...

فقال وهو كأنه يُخرج من فمه ريقَ غيره:

ـ ولقد بغّضني في الحياة ريقُ فمِه لَمَّا فاح في وجهي كلامُه: عا عا عَاروض...

وتصدَّقَ مُهْدِيًا إليَّ شجاعةً أن أقول له: أستاذ محمد... هل نظمتَ بيتًا قط؟
فأسالَ مِن حولنا حسرتَه متنهِّدًا: أنا شريعة وقانون... ودرسنا العا عا
عاروض، وكان نفسي أنظم بيت شعر... فقلتُ في نفسي: فدعْني ومُناجاتي.
فقلتُ في نفسي: (سأستخدم هذا التركيب في يومٍ ما: فدعني ومناجاتي).
وشُغلتْ نفسي بحادثةٍ دارتْ بين مَن هم عن يساري، مع ترك (منذر) في التقاط
أنفاسه.

سقوطُ الأندلس ما أجْهدَ ذهنَ (يوسف) كسقوط ذبابة... بعدما سقطت في
كوب (السحلب)... يشربُه رجلُ الأسرار، فظهر عليه الاشمئزاز، فقال له
رجل التاء: (هئ هئ هئ... غطّسها بقى في السحلب واشربها، أحسن الجماعة
اللي واقفين قُتام المسجت هيتخلوا يشربوهالك بالعافية. هئ هئ هئ).
فرد عليه رجل الأسرار... بما أنا أراه وما أنا بسامعه... فلن يُسمع صوته حتى
لو كنتَ على بُعْدِ نصف متر. وأنا تجاوزتُ هذه التغطية. فكأنه مركونٌ في ركنٍ
بشاشة التليفزيون يتحدَّث عن أخبار الطقس إلى الصم والبكم، وفهمتُ من
إشاراته الموجَّهة إلى عِلج التاء: أنِ اصمتْ.

أما (عبحميد)... رايق... فكان صامتًا، أغلب الظن أنه كان في حساب كم
مضى من الوقت على آخر كلام عن إحدى حكاياته منذ ساعة... فقال في نفسه
لما أراد إشعال سيجارة ولم يجد كوب شايٍ مليءٍ أمامه على الطاولة: (عادي).
ورفع سيجارته إلى شفتيه اللتين تلتصقان بينهما طرف سيجارته على الدوام.

وجلس جلسته المفضلة الثانية، يحرم فيها القططَ رؤيةَ إحدى أقدامه، التي لا يعترض عليها عظمُ جسده، والذي يمكن ترجمة طقطقته على أنها: (مَرِنٌ أنا معك في أي جلسةٍ يا عبحميد)؛ رفع قدمَه فوق كرسيه، وتغلغلت أصابعُ يده اليمنى في أصابع قدمِه لذات الجهة يتعاشقان.

ولن ينزل المحامي من عليائه ليخوض مع الخائضين؛ إذ كل مَن هم دونه هم من الخائضين، وكل مَن هم غيره فهم دونه.

على أنه كان في شياطٍ من حريق أعصابه مع (الطاولة) أمام (يوسف) المُدرك للحادث، فلم تنزعه (الطاولة) من تأملاته، فابتسم (يوسف) من أقوال هؤلاء العوام. ولكنه رجع فأطرق يفكر... كديدنه في دقائق الأمور التي لا تُرامُ من ضنكاء العقول.

تمتم لنفسه كنوع من الدُّربة: (لقد أرْهبوا العوام من الدين. وقد قيل: إنَّ من المدافعين عن الدين مَن يُبغض الناس فيه... ولكن إذا سلَّمنا أن هذه الذبابة موجودة فعلًا، وكل هؤلاء رأوها. إذن الذبابة موجودة.

ولماذا يعتقد بعضهم أن فوق جناحها داء، والآخر فوقه الدواء، وهم لم يروه هذا ولا ذاك؟ ما زال لهؤلاء العوام الكثير والكثير... وإن قالوا كلامهم لضعيف الدين لأخذ في ساعته.

هل فكر العوام أنَّ الذباب ممَّا ركب مع نوح أم أنه خُلِقَ في بطن السفينة – كالخنزير من أُذن الفيل؛ ليأكل روث جميع الحيوانات، وكالقطة من أُذن الأسد؛

لتطارد الفأر الذي كان يأكل الحبوب- ليُنبِّههم أن يقوموا بغطاء الأكل المكشوف حتى يرجع الغراب ومن بعده الحمام المتَّسخة قدماه بطين بعد أن قلعت عنها السماءُ وغيضَها؟

أم جاء من خلية كآدم كانت متخلِّفة في بركة ما من أمم البشر التي كانت تعيش قبله؟ أم لم يُخلق الذباب لغاية؟ كالكون؛ لماذا ينتظر ضيقو العقول غاية من هذا الكون؟ ولا يلتفتون لمتعة؛ أن تتفاجأ بشيءٍ لا تعلم غايته؟ ما زال لهؤلاء العوام الكثير والكثير.

وقد يُقال: لماذا يُجبرُ كائنٌ حيٌّ هو شريكٌ لنا في الحياة على شيءٍ قد يكره بإغراق جناحه؟ أو أن هذه الذبابة روح كلب مات في القديم... كان يجلس أمام جد سابع لأيٍّ من هؤلاء الغوغاء... جاء ليقرئه السلام، ويقول له: إنَّ جدّكَ كان يبول على النار إذا سمع الصارخَ الفَزِعَ... هل يعلم هؤلاء العوام أروع ما قيل في الذباب... ذبابة عنترة:

وَخَلا الذُّبابُ بِها فَلَيسَ بِبارِحٍ ... غَرِدًا كَفِعلِ الشارِبِ المُتَرَنِّمِ

هَزِجًا يَحُكُّ ذِراعَهُ بِذِراعِهِ ... قَدحَ المُكِبِّ عَلى الزِّنادِ الأَجذَمِ

هل يعلمون ماذا قال الأصمَعي عنه: هذا من التشبيهات العُقْمِ. وقد قيل: إن امرأ القيس لو أراده لافتضح... هل يعرفون الأجذم؟... هل يدركون صياغة عنترة للفعل الثلاثي في أشعاره؟... يعلمون أن من مكونات السحلب الماء، لكنهم لا يعلمون لماذا تم تَغْليب التمر على الماء إذا جمعناهما، وقلنا:

ـ الأسودان...

هؤلاء العوام لا يُقبل صحة كلامهم عندي لأسباب، منها أنهم يكذبون في أحيان كثيرة، وسبب آخر؛ هم يجهلون لماذا سُمِّي الذباب ذبابًا. فهو كُلّما ذُبَّ آب. هم جاهلون بالـ (ذُبَّ آب). أليس لهم عقول ينظرون بها لحقيقة هذا الداء وهذا الدواء من قبل أن يخوضوا جدالهم؟ هل سيسري الدواء نفعًا في جسد كلِّ مَنْ يجهل حقيقة أن أصل الذباب ذُبَّ آب؟ وهل كل مَن له رجوع يُسمَّى آب؟ هل يعرفون مقابل آب في كل قبيلة من قبائل العرب؟ كان الناس يعبدون الله في هدوء، وهؤلاء أشغلوهم بما ليس لهم طاقة به).

وما زال (يوسف) في الصراع مع ذبابة... حتى جاء (رُمَّانة) القهوجي بنظرة الجيلِ كله، حطَّ حِمْلَ شايٍ تَباشرتْ منه أسارير (عبحميد).

وما (يوسف) بهذا الديدن مع كل الناس، فهو مُحكمٌ بميزان الإنصاف، ذو مروءة، فلديه صديق يعتز بصداقته شَادّهُ بنياط قلبه، يسمع كلامه بصدر أرْحب من المعمورة؛ هو أخ ملحد، يرى (يوسف) أن في تساؤلات الأخ الملحد كثير من الوجاهة، ولا بد أن تُقابل بكثير روية وتأنٍّ.

إن من الأحاديث الصحيحة التي يعتبرها (يوسف) صحيحة: دعوا السنة تمضي، فإن فيكم منفِّرين... حتى إن خاطره يحدِّثه أثناء حديث الأخ الملحد: (حقيقة؛ هو وصل لذروة الشك. وإن بعدها لمنعطفٌ حميدٌ... إنه في مرحلة الصفر، وغيره في مرحلة السالب؛ ومرحلته هذه قد تكون مطلبًا إلزاميًّا في

بعض الأحيان؛ ليبدأ من بعدها الإنسان دون تحيُّز لأيِّ جهة... إن بعد هذه الذروة إيمانًا عنيفًا حقيقيًّا، إيمانَ يقين، إيمانَ التئام العقل بالقلب، وليس كمثل رُغاء الأغنام... ما هذا؟ رغاء الأغنام. فعلتُ كما فعل أَوَّلي: استنوق الجمل. أعني: رُغاء الإبل. كما قال الفحل:

رَغَا فَوْقَهُمْ سَقْبُ السَّماءِ فَدَاحِضٌ...

يا لنذير شؤمهم... حتى لو لم ينزلق في المنعطف، يكفيني أنه رأى خُلقًا وعقلًا قادرين على مجاراته، بل وسبقه في وضع الشبهات).

ـ تقبّل مشكورًا اعتذاري؛ لن أطيل معك في درس الشيخين، أعلم أنك ما كنت ستحضره لولا إصراري عليك بالأمس... سأذهب للبيت استعدادًا للخطبة. هل تعلم...؟

ـ ماذا؟

ـ أُريد أن أقصَّ عليكَ أشياء كثيرة دفعة واحدة. من يوم معرفتي بك، وأنا أحمد الله على هذا، كنتُ أظن أن ما يدور في نفسي من أحاسيس لن يجري يومًا على لساني، ولن يُفهم عنّي، حتى التقينا مصادفةً، وقلتَ كلمة لن أنساها، فهمتُ من ورائها أني قادرٌ على الحديث معك، وستفهم عني. هل تعلم سبب التزامي؟ يجهل (منذرُ) أني أكثر منه سعادةً بمعرفتي إياه. إذ قد يظن أننا نُجاري بعضنا في المعاني والأحاسيس. يجهل أني أَسْتَلْهِمُ منه الكثير، يجهل أني أنا الذي بحاجة إليه؛ حتى لا تموت تلك الأحاسيس داخلي دون إفصاحٍ.

١٤

نظرتُ عن يميني، فإذا بـ (فؤاد) مُقبلٌ نحوي، فسلم وجلس، وانقطع (منذر) عن حديثه، وظل (فؤاد) ينظر مترقِّبًا كالذي يعلم أن حديثًا قُطع بسببه. ومع هذا، استمر في الجلوس، وعلى شفتيه شهيَّة الكلام، ثم قام بحركة سريعة، وطلب الحديث مني منفردًا. وقال:

ـ أنا معرفش أنت مهتم بالأكل ليه؟ أنا ممكن أعيش تلت تيام من غير أكل... بس بشرط؛ في اليوم التاني متكلمش ولا أحرك بطني خالص، لكن برضو ماقولتليش هنطبخ إيه؟ بما إننا رجعنا نعيش مع بعض تاني، يا سلام يا جدع لو بابا غنوج بيتزرع.

ـ طب ما احنا هنشتريه برضو... أي حاجة يا فؤاد... ويا ريت تغير، أنت بتهريني فاصوليا بيضة. هو علشان أنت بتعرف تطبخ تعمل اللي على مزاجك؟.

ـ أصلي دايمًا عندي صداع.

ـ والفاصوليا مالها؟

ـ أنت مش شايفها عاملة زي النوفالجين إزاي؟ فقررت إنها تبقى علاجي وملاذي بعد صداع مع المرض.

ـ نفسي أعرف حجم السحلية اللي بتسرح في جمجمتك. قابلت خالك وأنت

جايلي؟

ـ لأ.

كان يكذب، وهمَّ أن يمشي، ولكنه نظر في أحد الطرق الممتدَّة من هذا الميدان، ورأى شيئًا فجلس مُبيتًا النية، فرجعنا للصمت جميعنا.

وقد لُمته على ما صدر منه لومًا شديدًا بعد خروجنا من المسجد. فلم يكن متاحًا لي أن أُعاتبه أمام (منذر)... فأجاب على لومي قائلًا: صحيح أن هيئتي لا تُوحي بأن أنتقد شيئًا كهذا، ولكني لستُ فاسدًا لأتعود على مشاهد العرض الجسماني النسائي في الطريق يوميًّا. غير أن النساء لا تنحرف، وينحرف الرجالُ لهن. على الرجل أن يفسح الطريق أمام أي امرأة، وإلا أصبح ذكوريًّا... قال لي قديمًا رجلٌ عجوزٌ مازحًا؛ يوضح لي الفرق بين الفتاة والمرأة في الطريق: الفتاة تكاد تلتصق في الجدار من حيائها، وبعد زواجها تمشي في عرض الطريق تنطح من يقابلها... مسكين مات ولم يدرك عصرًا لا يُعرف فيه المرأة من الفتاة فالكل ينطح؛ كمصارعة الثيران المندفعة وانقلبَ الراكبُ مركوبًا... ألم ترها... إنها امرأةٌ ذات نفوذٍ... لستُ فاسدًا لأغفل عن هذه الملاحظة؛ كانت تشق طريقها داخل المجموعات الواقفة أمام المسجد، هي لا تسير وفق الفراغات الكثيرة الموجودة للمارة، ولكنها تمشي في خط مستقيم. فالآن أصبحت النساء يمشين في كبد الطريق بجرأةٍ تنعدم لدى الكثير من الرجال. كطريقٍ مفروش جانباه بكراسي الذين يؤدون مراسم العزاء لأحد الموتى... وأصبح من الواجب على

كل الجالسين على اختلاف مشاربهم واختلاف مناهجهم وأفكارهم المتباينة، واجب عليهم جميعًا أن يقتنعوا ويسلّموا بأن مرور امرأة بينهم في هذا العرض المسرحي الاستعراضي شيء طبيعي. لا بد من رضوخ الجمع المختلف لرغبة امرأة واحدة، وأصبحت هي المعيار... فقلت له: سبحان الله. أتقول لي مثل هذا الكلام ثم تقوم بمغازلتها؟... فأشاح بيده اليمنى وأمال برأسه إلى الأرض، وهو يرجع خطوة إلى الخلف كما فعل سابقًا في بداية يومنا، وقال: ألم ترها... إنها من ذوات عباءة ديل السمكة... ثم ذهب مسرعًا إلى (رُمَّانة) الذي كان يُنادي عليه...

فنظر (فؤاد) موضِّحًا لنا أنَّه ينظر إليها أمامنا، وليصاب بنشوة وهو يقول لها: ـ جرا إيه يا دنيا؟ كل الفرسان مع المغفلين.

فتحرَّج (منذر) من كلامه، وخجل خجلًا شديدًا، فطلبت من (فؤاد) أن يذهب سريعًا، ولكنه تباطأ، وقال لي قولًا جديدًا مجهولًا غير بيت شعره المفضل (أضاعوني):

فَرْحِي مِنَ الدنيا رَهافةُ خَصْرِهِ ... وَهَمِّي ثَقيْلٌ في ثَقَالِةِ عَجْزِهِ

فأصْبحْتُ أدْعو زيادةَ ثُقْلِهِ ... على ثقةٍ؛ هَمّي يزولُ بهزّهِ

ثم قال:

ـ كل المشاعر واوا، واختفى.

إن بين الذين وُهِبوا إحساسًا مرهفًا شديد التأذِّي؛ تفاوتًا كبيرًا. والتفاوت ليس موجودًا بين الحساس وغيره من جفاة الطبع، بل إن ذوي الحس أنفسهم متفاوتون، وتُقاس الدرجات بينهم بمعيار: تأذِّي الغير... ما من حسَّاسٍ إلا ويراعي شعور غيره قدر الإمكان.

ولكن هناك من ذوي الحس الذي يعرفون أنهم حساسون في مواقف معينة، ويتباهون بذلك؛ سواء داخل أنفسهم، أو يعلنون صراحة -ليس من نوع الفخر- أنهم يراعون مشاعر الغير في هذه المواقف.

ولكنَّ الحسَّاسين الذين يتفوَّقون عن هذه الدرجة؛ هم دائمًا في حالة تأهب لكل جديد من المواقف، وأيضًا إعادة كل قديم من المواقف؛ تحت جهاز إحساسهم على الدوام مخافةَ أن يغفل عن شيء يفعله، حتى لو كان حقيرًا يتسبَّب في أذى غيره؛ وعسى أن يكونوا قد أضروا بغيرهم ولا يدرون.

فإن النوع الأول يجهل مواقف أخرى كثيرة قد تؤذي مشاعر الغير غير المواقف التي ينتبه لها جيدًا في عدم إيذائهم، ولعلَّ سبب هذا الجهل هو التركيز الشديد على المواقف التي يكون فيها حساسًا، وعدم مراعاة غيرها من المواقف باستمرار... لا يكفي للإنسان الذي يُريد أن يرتقي في منازل الحس أن يرتكنَ في منزلته على الدوام أو على غفلةٍ.

كان (فؤاد) من النوع الأول، يعلم أنه حساس في مواقف شتى، ولكن يجهل أنه قد يؤذي غيره في مواضع أخرى، ولكنه في هذا الموقف تتحكَّم فيه نزواته

بلذة عنيفة؛ إذ هو عظيم الجنوح إلى النقيضين في آنٍ واحدٍ.

وإذا ما غضب؛ كان شديد الوفاء للغضب، وإذا كان حسَّاسًا؛ كان شديد الحساسية، وإذا تباهى وفرح بتعليقاته كمثل هذا الموقف، أفنى نفسه في إظهار تباهيه لذةً. هو هنا لم يعمد أن يؤذي (منذرًا)، ولكنه يخضع للذَّته التي فيها كثير من الأنانية، بل وعلى استعداد أن يجادل بأنه غير مُخطئ؛ لأنَّ وقع اللوم على الحسَّاس شديد.

ومن عجائب النفس الحسَّاسة أنها قد تُدلِّس عند مواجهتها بعدم إحساسها في موقف معين، مخافة وقع اللوم، بل منهم مَن يصف نفسه بألفاظ قبل أن يسمعها من الذي ينتقده، يقول الوصف هو نفسه لنفسه: (كالذي يصف نفسه قبل غيره قائلًا: أنا دبش) بدلًا من سماعها؛ لأنَّ سماعها شديد مرير. وإن خرجت من غيره؛ ستقتله بعد أن تمزِّقه، فلا تتحدَّث عن تفاصيل بعد وصف نفسه بأمثال تلك الكلمة.

إن أشياءَ كثيرةً تضاربتْ في نفس (منذر)... قد كان يبالغ فيها في الماضي. وما زالت المبالغة مستمرة، ولكنها متقطعة. وقد علم بعد ذلك أنه كان حادًّا شديدًا فيها... إذْ كان يضعِّف ويوهن صوتًا ما في أعماق نفسه، مجهولة المدى، يضعِّفه راجيًا ألَّا يسمعه... إن هذا الصوت كان يدعوه ألَّا يبالغ، وأن يقيِّم تقييمات صحيحة بمعزلٍ عن الشُّذوذ.

كانت مبالغته تجاه الناس تحديدًا؛ إذ دائمًا يفترض الخير في أفعالهم، مع أن هذا

الصوت الدائم يقول له: (هذا منافق)... كان يحْمده ويفترض السلامة والخير في كل الناس، ويعذر أخطاءهم، بل يتذكر أخطاءه، التي يظن أنها أعظم من جميع ذنوبهم، وهذا أمر عجيب؛ لأنه يعتقد في نفسه أنها قوية، وأن عقله مدركٌ لأشياءَ كثيرة؛ إذن: إذا هو أخطأ عاقب نفسه، ولامها على أن جُرمه أعظم من جرم الناس؛ لأنهم ليسوا على هذا الإدراك الذي عنده، وأن جرمه جُرم خبيث. أما جرائمهم، فهي ساذجة، فما أكثر الأعذار التي قبلها من أعدائه من قبل أن ينطقوا بها.

وكان يطير فرحًا مستعظمًا محاسنَ الناس، حتى لو كانت غرفة في بحر عيوبهم وجرائمهم. كانت طبيعته البكر تؤذيه وتمزقه في التناقضات؛ التي يُقيّم بها الناس... تناقضات الصوت الداخلي الذي ينكر عليه مبالغته في فرض الخير في الناس، وبين التكلفة النفسية التي تفرطها فرطًا هذه المبالغة من مشاعر وأحاسيس هي في الحصيلة كل ما يملك من طاقة...

ولكن بعد مدة من الزمن... سأل هذا الصوت: (أين هم الأخيار؟). فانطلقَ عن قيوده الصوتُ فَرِحًا: (أنتَ الذي كنتَ تصبغ عليهم الخيرةَ؛ ليتسنَّى لك العيش معهم، فلما أَجْهدتَ نفسك في الكثير من الصبغات، أصبحت تراهم من خارج نفسك وليس من داخلها...

أنت فرضتَ صورًا وأشياءَ من داخلك على خارجك. أنتَ كنتَ ترى داخلك، وليس خارجك على الحقيقة. أنتَ لم تخرج من نفسك قبل هذا السؤال. والآن

قد خرجتَ... كنتَ تتوهَّم في نفسك بعادات وعلاقات ومشاعر وأخلاقيات لم تكن موجودة خارجك؛ فرضتها لكي تقدر على المعايشة، مجرد أنك تعيش فقط، مجرد أن تتنفس.

أنت أضعف من أن ترى الحقيقة. مع علمك أنها غير موجودة، ولكن شيئًا ما؛ قد ضَعفَ بداخلك؛ فأصبحت لا تفرض شيئًا بداخلك لخارجك. فرأيت الحقيقة (وأخشى أن أقول لك: أنت عرفتهم تمام المعرفة، بتمام اليقين، فرأيتَ ما لا ينبغي أن يراه إنس في صدورهم، فأوهمتَ نفسك أنك تُبالغ من هول ما رأيتَ)، ولكن كنتَ تغض الطرف عنها؛ لأن تغييرها يحتاج لعالم آخر، وليس بإمكانك أن تغير كل هذا العالم؛ مثلما كنت تحلم وأنت صغير؛ وقتما تخيلتَ أن خطًّا طويلًا أبيض يمشي معك فوق رأسك متصلًا بالسماء.

كنتَ في أحلام طفولية ساذجة. فلا تلم إلا نفسك، فهم ليس لهم أدنى علاقة بما كنت أنت تعانيه داخلك. أنت لم تعرفهم في يوم من الأيام حق المعرفة، وإن كنت تدَّعي أنك خبير في معرفة نفوسهم...

قل لي: أقادرٌ أنتَ على وصف شعور حاسد؟ أو شعور قاتل؟ أو سارق؟ نعم... ستصف ما يعجز عن وصفه الحاسد والقاتل والسارق، ولكنك لن تصل للدرجة التي تكونان فيها قلبًا واحدًا.

ولكن في مرات كثيرة ستعجز عن تفسير كلمة قالها حاسد أو حاقد، لا تعرف إلى أين يرمي. ولو أردتَ الحقيقة التي هي كالشمس بعد عجزك هذا؛ فاسأل

حاقدًا آخر أو حاسدًا، اسأله عن ماذا وراء تلك الكلمة، ستجده ينطق بسجية كأنه كان مستحضرًا إجابته...

إن محاكاة معرفة هؤلاء داخل نفسك لن تصل في يوم من الأيام مثل قلب حاسد على الحقيقة... حتى وإن كنتَ ترى صدورهم... أنت تفرح لفرحهم أعظم ما يفرحون، وتحزن لهم أحزن ما يكون. وتُزال عنهم الأفراح، وتُزال الأحزان، ولكنهما يظلَّان في داخلك باقيين. وكل هذا لأجلهم... ولا يعلمون... إن قلبك قُدِّرَ له أن يسع كلَّ شيءٍ؛ فتحمَّلْ ما اختيرَ لك؛ لأنك تستعذبُ كلَّ هذا... وإن ضاقت نفسك في حين...

أنتَ ساذجٌ غرٌّ، تظنُّ دائمًا أن الشر أو الحاسد إذا قرأ دَناسة نفسه، أو رأى روحه القذرة في أي أدبيات، سيخجل من نفسه أنها خرجت للنور... ويقرؤها الناس... ويشاهدونها.

أنت غر... بل سيعيب هذا الشريرُ القارئُ –سيعيبُ– على الشريرِ المكتوبِ أنه أخطأ في موضع كان سببًا في اكتشافه أو سجنه، أتدري ماذا سيقول؟ سيسخر قائلًا:

لم يتقنوا دوري، فأنا لا أُتقن إلَّا بوحي أيها الحمقى، وقد أضعتم على أنفسكم فرصةَ ظهوري، سترون فيها الإبداع الحقيقي للبشرية... ومن فرط سذاجتك. تتساءل كثيرًا: لماذا يحسد الحاسد؟ ولأنك جاهل بالإضافة إلى سذاجتك، لا تعلم أن الحاسد ذاته يقول: لماذا الناس لا يحسدون؟ وكذلك السارق: لماذا لا

يسرقون؟ ويستعجب منك كما تستعجب منه، جاهل غر).

ولكنه هذه المرة تغلَّبَ على تحرُّجه وخجله. كأنه يقول: مرَّة عليك ومرَّة عليَّ... وأن يرفع عني أيَّ حرج؛ لأنَّ الذي تأذَّى منه كان (فؤاد)، وهو من بعض أهلي. فبادرني الحديث:

ـ هل تعلم سبب التزامي؟ بالتأكيد لا، أنا أتذكَّر أني لم أقصص عليك هذا.

ـ نعم... لمْ تحدِّثني عنه من قبل.

ـ كنتُ راجعًا من بلدٍ فيها بعض أقاربي... قد غرستْ أمِّي في نفسي صلةَ الرحم منذ الصغر... فأمِّي سيدة بسيطة، وعظمة النِّساء خُلِقَتْ من البساطة... شفاها الله وعافاها من ألم العظام. فأنا بين مشاعر كثيرة تدور داخل نفسي، مشاعر مبهمة تجاه أقاربي.

فلن أكن صريحًا معك في حبهم أو كرههم... ولكنّي أطيع أمِّي مهما كان الأمر إذا ما كان شيء لا يخالف قناعاتي ورؤيتي الرجولية... ركبت السيارة عائدًا من عندهم، ثمَّ على بعد مسافة قصيرة جدًّا لا تتعدَّى خمسين مترًا وقفتِ السيارة، وفُتِحَ البابُ، ثمَّ تفرّس مَن فتح الباب في جميع الراكبين، ونظر لي، ثمَّ قال: (انزل).

فنزلتُ وأخذ بطاقتي. فقال لي: ستذهب إلى القسم خمس دقائق وتمضي... كان واقفًا بجواره أمين شرطة... من أين يأتون بهذه البودرة؟ مَنِ الذي ابتكرها،

ومَنِ الذي صنعها، ومَنِ الذي استوردها؟ كأنها بودرة مخصوصة لنوع مخصوص لحلَّاقين مخصوصين يضعونها لأمناء الشرطة بعد حلاقة الذقن...

مررنا على سوقٍ... قلبي ينقبض منذ الصغر من الأسواق... ومن قبل سماعي حديث: «**إِنَّ شَرَّ الْبِقَاعِ الْأَسْوَاقُ**». ومع انقباضي من السوق، وانقباضي ممَّا أنا مقبل عليه... هل رأيتَ ظلَّ رموشٍ يومًا على الأرض؟ ولا أدري إلى اليوم... كيف كان الوقت يتَّسِع مع تلك البرهة الخاطفة لكل هذا؟

هل لأني استمسكتُ بألَّا يفوتني الأمر، فانصاع الزمن لجموح تلك الرغبة؟ أم أني طرتُ من جسدي، وزال الزمن تِباعًا... فتلك لحظات أشعر ببطء الزمن فيها. كل شيء أراه بطيئًا متناهيَ الكسل مع سرعته الخاطفة في الواقع.

لعل ذلك سببه طوفان الأحاسيس في نفسي، والذي يكون في وقت أقل من اللحظة... قلتَ لي أمس ونحن نتحدث عن الأدب: (إن الزمن في نفس الأديب يختلف كليًّا عن أزمان الناس... له ميقاته ودقات لحظاته المختلفة تمامًا عن الزمن المعروف... مُتباطئٌ يكاد يصل حدَّ الجمود، من أهوال ما يشعره كثرةً وتضاربًا في آنٍ واحدٍ... وعلى كُلٍّ؛ من المحال في الدنيا أن يقتنع الناس أن الأدب الفريد يحمل في ثناياه قواعد تقييمه. ولم يحط من منزلة أي أدبٍ فريدٍ أكثر من وضعه عنوة تحت قواعد غيره. وكلما كان الأديب فريدًا كان أدبه ذاته يتكلم عن طريقة إبداعه).

لكني لا أحسب نفسي أديبًا، أو الرموش جعلتني أديبًا؛ أمزح معك...

فأخذتني هذه الرموش لمكان آخر لذيذ. إنَّ تلك الرموش يُمكن أن تُستخدَم بدلًا من آلة النقش على الكعك في العيد... (مُدة اللذَّة)؛ هذه الكلمة كادت تغيِّر حياتي كلها، لا أدري ما ستكون عليه، ولا أدري ماهية التغيير، ولا أدري الفرقَ بين الحياتين، ولا أدري تحديدًا متى جاءني أوَّلَ مرَّة هذا الإحساس.

كنتُ أمشي بين أراضٍ زراعيَّة، ورسمَ ظلَّ أعوادِ الذرة الطويلة على الأرض القمرُ في ليلة التمام، ولولا ظِلِّي المرسوم بين ظلال الأعواد ما كانت مازجت بعضها البعض تلاقيًا، ثم تعود بعد سيري عنها إلى أصلها النحيف، والرائحة التي كادت تصنع من كل نسائم جلدي أنوفًا عند ملامستها له؛ هي الرائحة المعروفة عند سقي الأرض بالرطوبة الشديدة الممزوجة مع جذور أعواد الذرة... باردٌ هواؤُها، ثقيلٌ بخارُها، يسحرك برهانُها؛ إنَّ كل شيءٍ حواليك غضٌّ نديٌّ.

ولستُ بقادرٍ على عبء مشاعرٍ قد تفنيني؛ كرعشةِ قلبِ ابن حزام لو حسَّ العفراء بين ساعديه، وطَرب القادر عند سليمان على جلب العرش قبل أن يرتد الطرفُ، ونشوة يقين المعتصم حين وضع كأس الماء دون شرابه ثقةً مع الإياب بالنصرِ، وتمكين يوسف لمّا: {آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَاْ أَخُوكَ فَلاَ تَبْتَئِسْ}، وثقل نفس الشافعي في نفسه؛ إذ تجاهله أهل العراق فأنشد مترنِّمًا، وفرحة من الجنان غمستْ قلب كعب بن مالك لما عرف أنها من عند الله...

أنا أمرُّ بلذّاتٍ غير أرضية. أنا أُقابل الشيء الأرضي بشيءٍ غيبي، فتتجمَّع بي

ذرات النشوات الغيبية... فانتشيتُ كمخمورٍ ما ذاقَ الخمرَ يفوقُ معاقريها، وظل صاحبي طوال الطريق في حديثه الذي لا أتذكره حتى أثناء كلامه.

ومن نشوة سكرتي، سألني لأُجيب عما قاله، فقلتُ له بعض ما بي، فقال: منظر ورائحة جميلان حقًّا. ثم تلا على سمعي ما بدأه.

واستيقظتُ في اليوم التالي، والرائحة ما زالت على جلدي، هكذا شعرتُ، وحدث الشقاق في نفسي؛ تارة أن صاحبي شعر كما شعرت، ولكنه أفاق سريعًا، إذن أنا سقيمٌ لا علمَ لي بِعِلَّتي.

أنا أُبالغ... لا ينبغي لهذه اللذة أن تستمرَّ تُعكِّر صفو حياتي حتى لليوم التالي، حتى أنها استقرَّتْ في ذاكرتي. بل نفسي هي التي استقرَّت داخل ذاكرة اللذة.

لم أسمع كلام صديقي، وفي يوم غيره سيكون صديقًا آخر، وسيكون طريقًا بنشوة أخرى... إذن ما الحل حتى لا أكون مريضًا؟ ما المعيار في تحديد مدة اللذة حتى أستكمل الحياة؟ ما الحل في إيقاف مرور الحياة ذاتها داخل لذَّتي تُعكّرها ما دامتْ لذتي لا تنتهي منِّي سريعًا؟

لا غضاضةَ لديهم حين يتنقَّلون من حالٍ إلى حال، وآخذُ حالي الأول معي إلى الثاني، مهما تنقَّلتُ بين الأحوال... يخرجون من إلهامهم، فيرجعون إلى زمرة النفوس العادية، فيرون في إلهامهم إنجازاتهم، وأنا أخرجُ من إلهامٍ إلى إلهام...

فسرنا معًا جنبًا لجنبٍ إلى القسم غير بعيد... ومع كل خطوة... ينظر إليَّ خِلسةً بطرف عينه، لا أعلم حينئذٍ وهو ينظر لي، هل هذا آخر قدرته في المداراة

والمداهنة في نظرته المتمكنة؟ أم أني سواء أكان محترفًا في سرقة النظر أم في غيره؛ كنت أيضًا سأقتنص نظراته؟

وشعرتُ أيضًا حينها أنه يترقَّب خطواتي مخافة أنْ أهرب عدوًا وسط الزحام؛ إذ لم يكن ممسكًا بيدي... على أنَّ صوت الزحام كان عاليًا يذوب منه أيّ صمتٍ، لكنِّي شعرتُ أننا معًا في صمت مطبق، وأفكارنا نبتَ لها أيادٍ تتعارك بيننا... حتى مستقبلي صار تهدده هواجسي التي مزّقتني في تلك اللحظة، أبصرتُ رُؤًى شتى مُتضاربة لمستقبلي خلال لحظات... وعشتها... وتذكرتُ أمي، وأنا على ثقة ويقين أنه سوء تفاهم، أو أني ليس عليَّ أيّ شائبة، فلم أدخل أيَّ قسم في حياتي...

فلما دخلنا... ملأ العينَ ساحةٌ كبيرةٌ دون سقفٍ... أحسبُ أن هذا القسم كان مدرسة في القديم... ملعبها تلك الساحة، وتظهر أبواب الفصول من وراء سور يحيط بها، من فوقه سياج حديد... فهذا الممر، الذي كان بين السور وأبواب الفصول مزدحم عن آخره، فقلتُ في نفسي: (ما هذا، أيعقل أنهم كلهم مذنبون؟ أم الكل في سوء تفاهم؟).

قادني حيث آخر ساحة يسارًا... وليس كمثل صاحبة امرئ القيس لمّا أجازوا ساحة الحي، فتضوَّع منها المسك. وجدتُ شخصين أحدهما جالسًا، وآخر يقف بجوار طاولة صغيرة. ليس عليها غير دفتر تسجيل أسماء... عليه ضَرَائر الغضبِ وهبَّة الانقضاض، يشعَّان من وجهه قبل أن تتَّضح قسماتُ الوجه في

عينك، يرتدي بنطلونًا واسعًا من قماش لونه حمصي، يتعلق في حزامه جِراب الموبايل، ولذة تغشَّتني من هذا الجراب حين تأملته، كأنه أخذني لموضع آخر، ويملؤني بلذة اشمئزازي منه ومن صاحبه.

أخذ البطاقة، فنظر فيها، ثم نظر لي نظرةَ ساخرٍ... لم أُسأل: أين كنتَ؟ أو إلى أين تذهب؟ وبصوت خفيض مع ابتسامة صراع لا يظهر منه إلا وميض: (امم مهندس).

كنت خلف السياج مع انتهاء دقيقة، وأبواب الفصول... هي ليست فصولًا الآن... مفتوحة تعجُّ بالبشر، على جميع مشاربهم، فلاحين وعمال وطلبة جامعة مثلي، وجزء كبير منهم ملتحون. دخلتُ من أحد الأبواب، واستلقيت على ظهري واضعًا يدي اليسرى تحت رأسي.

كنتُ أتأمَّلُ هلعةً قُنِّعتْ عنوةً بها الوجوهُ؛ فهذا يمشي من الجدار للجدار، قابضًا في يده مصحفًا يقرؤه، وهؤلاء افترشوا الطعام على الأرض يأكلون، وهذا كبابٍ للحمام يسْترُ آخر يقضي حاجته، وحشود في الزوايا نيام.

وبعد ساعة؛ جاء شابٌّ مُلتحٍ يرتدي جلبابًا رصاصيًّا، طيب السمتِ طَلق المُحَيَّا، نفذ في قلبي... نظرتُ إليه بعد أن بدأ كلامه، فكان يضع كلتا يديه على طرفي حلق الباب المفتوح، قائلًا: (يا جماعة... المُبتلى في الله يثبت)...

كانت الوجوه والحركات والتعبيرات لِمَن كانوا أمامي وحولي في هذا الحجز، لم تحرك فيَّ شيئًا. كنت أشعر بالفتور والجمود والضجر... أنا لم أكن أكره الملتحي

إطلاقًا حتى لو كان زنديقًا، فاللحية لها عظيم التعظيم كما لِمَن أمرنا بها صلى الله عليه وسلم، ولكن هزَّني الفرق في الأحاسيس من صاحب الجملة. شعرت بالصدق، قال جملته واختفى.

في لحظة شعرت أنَّني أحلم حقًّا... أو هذه رسالة لي... فخرجتُ أبحث عنه، فإذا هو جالس متَّكئًا ظهرُه إلى الجدار دون أن يلامس الأرض، فجلستُ بجواره. وألقيتُ عليه السَّلام، كان ممسكًا ببعض الأوراق الصغيرة ينظر فيها، فقلت له من باب الحرص عليه: لو فيها أسماء... ارمِها.

فقال لي قولًا أعجبني: دي أسماء عمَّال بتشتغل تحت إيدي، أنا ملاحظ أنفار، وكلهم بيشربوا بانجو، يروحوا في ستين داهية... أعجبتني نظرته للأمر. فصارحته قائلًا: أنا مهزّش قلبي أيّ فعل، أو وجه من الناس اللّي جوا دي معايا، لكن كلمتك هزّت قلبي... فبكى الرجل...

ثم بعدها بقليل تحدَّثتُ عن الشَّيخ الذي أحبَّ أن أسمعه حتَّى وأنا لم أكن منتظمًا في الصلاة مع حزن أمِّي الشديد من ذلك... فبكى الرجل، وقال لي: أسلوبك في الكلام عن الشيخ لم أسمع مثله... للأسف تاه منِّي بين الزحام كأنْ لم يكن. فخرجتُ بعد ١٢ ساعة، أنا وجميع الناس، فقلتُ في نفسي: أكون مُبتلًى في الله...

أنهى الحديثَ اضطرابٌ بين حشد الشباب عند حضور الشيخين. وصاروا كأنهم دوامات صغيرة تدور حول نفسها في الماء؛ وتجمَّعت كلّها لتدور حول

الشيخين. فطلبتُ منه الانصراف؛ لألقى (شاهين) قبل دخولي المسجد كما طلب مني... فأخبرني (منذر) أنه يحفظ لي مكانًا بجواره داخل المسجد.

فلمَّا تركته ورائي وأنا ذاهب سريعًا إلى (شاهين) التفتُّ مناديًا: مُنذر. فنظر إليَّ... فقلتُ له: عا عا سلام... فابتسمَ حَيي الفؤادِ.

١٥

ألحَّ عليَّ (شاهين) إلحاحًا شديدًا في دعوة الشيخين لِخطبة ابنته التي ألحَّت في طلبها، قد فرحت بهذه المناسبة، وموعد الخطبة معها.

بينما أتأمل قسمات وجهه، وهي تتداعى مع الحروف، وما يصيحُ منها من ملالةٍ وضجرٍ -وقد أكون واهمًا- تذكَّرتُ كلمة (منذر) منذ قليل، والَّتي لم أرد أن أسأله تحاشيًا مني، على الاستفسار عن كل كلمة تستوقفني: إذا ما أرّقَ ثائرَ الحواسِ شيءٌ فلا بد يومًا أنه خارجٌ...

أعتقد أنَّني فهمتُ مغزاه، أو مُدَّعٍ أنّي فهمتُه...

إنَّ نوعًا خاصًّا من القلوب الحساسة وليس كلها؛ الذي هو حواسّهُ خَدَمُ كل شيءٍ... ما من شيءٍ إلا وهي تتألم منه، سواء أكان حزنًا أم فرحًا أم ما بينهما. فلا بد للمشاعر التي تكوَّنت من هذا الشيء داخل نفسه؛ لا بدَّ أن تخرج في يوم من الأيام إلى العلن. ولكن هذه الصفة فيها من اللعنات ما فيها.

فإذا ما تكوّن حسٌّ ما داخل هذه النفس عن منافق أو خسيس؛ إن يومًا لا ريب في مجيئه؛ ستُفصح هذه النَّفس عن نفاق المنافق وخسَّة الخسيس... هي نفسٌ لا تبيتُ على الضّغنِ؛ تنفض عنها الأحاسيس الكريهة؛ لتظلَّ في النقاء تتمتعه، فلا تقدر على تحمُّل تبعيات أحاسيسه التي لا تقف عند حد تجاه خسيسٍ. فأين

اللعنة؟ أنْ تجتمع تلك النفس مع غيرها في عملٍ أو صحبة ما، وتحدَّثت عمّا يجول في نفسها مع غيرها.

فهذا الغير لا يبيح الأسرار، ولكن يظهر عليه أنه كشف ستر صاحبه بخائنة الأعين فقط. إنَّ بدء كشف المستور عن سرٍّ هو فيض العيون منه. فكلّ المكان قد علم أن هذه النفس الحساسة تشعر تجاه إنسان في نفس المكان شيئًا ما، فتزيد اللعنة على النفس الحساسة، بعوامل خارجية؛ كوغد يعلم عن صاحبه شيئًا يصيبه بالضيق، فيفعله في صورة مزاح. وما أكثر المتع التي يجدها الناس في التلذُّذ برؤية غيرهم خارجين عن طورهم.

قد قِيل؛ والضِّدُّ يُظْهِرُ حُسْنَه الضِّدُّ؛ فإن أصحاب المكائد صدورهم لا قعرَ لها، لا يألمون من كتمان شيءٍ، سواء تحت التنفيذ أو قد تم تنفيذه.

أما النفس الحساسة، فهي دائمة التقلُّب لكل ما في نفسها، وتنبذ كل ألم كريهٍ إلى خارجها. فهم الذين يستخلصون مخلصين لهم للتعامل معهم فقط؛ ليتعايشوا على سجيتهم، وطرح باقي البشر؛ لأنهم سيكشفون سوءات النفوس الدنيئة، والنفوس الدنيئة لا تتوقَّف عن دناءتها؛ إذن سيظلون في حروب دائمة. فيستخلصون مخلصين فقط لهم.

لو عُرفت الحقائق؛ لتغيَّر سير الحياة كلها، بل لتوقَّفت الحياة عن المسير. فلو عرف مثلًا (منذر) أن (شاهين) قديمًا قد تقدَّم لخِطبة السيدة والدته ورفضته؛ ما كان فكَّر لحظة في الإقدام على تلك الخطوة، ولا حتى وافقت السيدةُ

(سميحة). ولم ترغب السيدة والدة (منذر) أن تقف أمام سعادة ابنها في أيِّ خيارٍ له، وإن كان فيه شقاؤها.

ـ أطلب منك أن تدعو الشيخين لِخطبة ابنتي؟

وما زلتُ أُقْحَمُ في هذا الأمر. ثمَّ صمتُّ مع إظهاري دلالات الحيرة. فقال:

ـ لن أدخل المسجد ما داموا فيه، سأظل على بابه حتى يخرجوا.

ـ يا حاج، اجعل (عليًّا) ابنك يدعوهم، أنا لم أحضر في يومٍ من الأيام أيَّ درس، ولن أعرف كيف أقوم بالأمر.

ـ أنت ترى (عليًّا)، فهو لا يرتاح لهؤلاء الناس، غير أنِّي سأرسله في أمرٍ.

ـ كلّف (أحمد ماهر) بدعوتهم، لن يتأخر عنك، كان تلميذًا عندك في المدرسة.

ـ يا ولد... أنت مثل ابني... لا تجعلني ألحّ عليك.

رأيتُ شيخًا بسّامًا بلحيةٍ ناصع بياضُها، عن يساره شيخٌ آخر يبدو أصغر سنًّا منه، وعن يساره شابٌّ يرتدي ملابس مختلفة عن كل الآخرين. يتعلَّق في ذيل الشيخ الذي جاوره. عرفتُ بعدها أنه يظهر على مِنبر دعوي للشيخ الصغير.

إن مشيةَ المُسترزق بجوار كَفِيْله ووليِّ نعمتِه، ومشيةَ الموظف الحاذق الخبير في متطلبات العلو بين الدرجات الوظيفية بجوار مرؤوسه، وخير مثال على سرعة الضوء في عقل هذا الموظف؛ عند استعداده في التقاط (طفية السجائر) إذا سقطت على حذاء مديره.

قد تدنو كلتا المشيتين من مشيةِ هذا الشاب بجوار شيخ مِنبره... وكانت على

وجه ذاك الشاب علامات الأريحية من تحقيق بعض الآمال في الدنيا؛ إذ تمتَّع بكرسيه المريح الذي يمتصُّ امتصاصًا مطبَّات الطريق داخل سيَّارة شيخه الكبيرة الفارهة.

فكلَّما نظر من زجاج سيارة شيخه النظيف المتين؛ تذكر بصمات بخار العوام على زجاج المواصلات العامة، حتى أنه راعَ انتباهه متانةُ وعرضُ بابِ السيارة الفاخرة. جعلته يتفادى اتساخ حذائه وطرف جلبابه، وتحْمِله الرفاهيةُ إلى المسجد، كانت خيرَ ملاذٍ من التزاحم اللعين مع العامة في المواصلات؛ حيث تفوح منهم رائحة العفن...

تظن بعض العقول أن تحقيق مراد الله في الأرض لا يتمُّ إلا بالتقشف أو بؤس العيش، ولكن بعض العقول الأخرى ترى في العقول الأولى عتهًا وقلةَ عقلٍ ورائحةَ عفنٍ؛ حيث إن من رضا الله على عبده أن يجمع له بين خصب عيش الرفاهية والدين، بل هذا هو عين التوفيق وتمام التمكين وعلامات رضا الله على عبده؛ في كلتا الدارين.

إن أكثر ما يعيبه هذا الشابّ على شيخه الذي يقود السيارة؛ هو إذا امتلك في يومٍ من الأيام مثل هذه السيارة؛ فإنه سيجلس جلسة أخرى مختلفة عن جلسة شيخه وهو يقود، جلسة تليق بثمنها.

صعدَ الشيخان سُلّم المسجد، وقبل أن يصلا إلى الباب، نظر الشيخ البسام عن يمينه، فرأى عجوزين، فاستحى السلام عليهما بعيدًا، فنزل على السلم، وتبعه

الشيخ الآخر، وصعد (حسين زايد) خطوتين بعد هبوط الشيخين، ثمَّ نظر إليهما وهما ذاهبان، فاستكمل الصعود، فوجد (أبا عبيدة) في زاوية من باب المسجد يدهن المارّين بالمسك، فبعد أنِ استنشق (زايد) يدَهُ، دهنَ لحيتَه مِسْكًا، وتمسَّح بزيِّه الرسمي، وبشَّ إعجابه بالمستنشق. وقد اكتملت نزاهته بعدما حملته السيارة الكبيرة المريحة للشيخ، وحافظ على حذائه وطرف جلبابه من الاتِّساخ. فسأل (أبا عبيدة):

ـ جميل هذا المسك يا أخي، من أين لي شراؤه؟

تصعّر وجه (أبي عبيدة):

ـ كيف يا أخي تسألني هذا السؤال؟ لا تسألني هذا السؤال يا أخي. خذ...

فأعطاه زجاجة مسكٍ من جيبه، فلمّا رأى آخرين ينظرون إليه، قام بتوزيع ما تبقى معه من مسكٍ عليهم. وفرح (زايد) بزجاجته كفرح الطفل بالحلويات الموزعة عليه بعد صلاة العيد.

إن حادثًا غريبًا قد وقع في الوقت المتاح للشيخين في النزول من فوق السّلّم، والذهاب إلى العجوزين؛ ليسلِّما عليهما، هو سماعي لأول مرة صوت رجل القطعة بوضوح تامٍّ. قلتُ في نفسي: (لعله رأى القطة). لا أدري تحديدًا ما الذي كسرَ عنه جمودَه. ذلك عند رؤيته لـ (حسين زايد)، وهو فوق السلم ينتظر الشيخين... قال رجل القطة بعصبية:

ـ انظروا لهذا العاق... شابٌّ ترعرع في أروقة الأزهر. الأزهر المؤسَّسة الوطنية الرسمية الشريف، هذا الصرح العظيم الذي قاد شيوخُه عوامَّ الناس ضد جنود بونابرته، وأرغموهم على انسحاب مُخزٍ، هرول الجنود خوفًا من عصا العوام، ونسوا أن يحملوا معهم المطبعة.

ولكن هذه عصور همجية ما قبل الحضارة، وقد ولّت. ولا تُنسى قيادة هذه المؤسسة التاريخية لهذا الحدث الجليل. فلهذه المؤسسة فضلٌ على هذا الشاب، بل هي أبٌ حقيقيٌّ له، ولكنه ولدٌ عاق، ترك الولاء لها، وتبرَّأ منها بكل جفوة العقوق بعدما صنعت منه طالبَ علم، وليته اكتفى؛ بل ذمَّ بكل جحود وإنكار الفضل، ذمَّ المؤسسة التي ترعرع بها، ذمَّها وهو بين أقرانه الجدد؛ يُشنّع على المؤسسة التي آوته وهو يرتدي زيها الرسمي، مع لحيته التي ما أنزل الله لها من سلطان. إنَّ الأزهر مؤسسة وسطية، وهذا يرتدي زيها الرسمي مع لحية وهَّابيَّة يصل شعرها إلى الأنف مرورًا بسفح الخد.

وسلّم الشيخ البسّام على (شاهين) بكلّ ترحاب، وتبعه الشيخ الآخر، وأزاح عني همَّ دعوتها لِخطبة ابنته بنفسه.

١٦

تحدَّث الشيخُ البسَّامُ في أشياء كثيرة مختلفة، أمَّا إذا تحدَّث الشيخ الآخر، تشاغلتُ بالأفكار في أشياء أخرى. فلمّا تكلّم البسَّام عن أضرار الاختلاط، جرتْ دمعاتٌ رقراقةٌ رأيتُها في عين (ماهر) متأثرًا بالكلام، الذي كان قريبًا من مكان جلوسي، طربًا يتمايل مع حروف الشيخ كأنها أنغامٌ يُستحَلُّ الطربُ منها.

وحين تطرَّق الشيخ بلفتة سريعة عن محنة الإمام أحمد -رضي الله عنه- قال (شاهين) وهو يجلس على كنبته خارج المسجد، موجهًا كلامه إلى رجل القطة الذي يوافقه بالإيماءات فقط: (صدعونا، القرآن مخلوق ولا مش مخلوق، هنستفاد إيه بس، ما تخلّوا الناس تعبد ربنا وخلاص).

وتداعت المعاني مع الشيخ عن النصيب والحكم الإلهية في الزواج، فذهب به الحديث إلى سيدنا (زيد بن حارثة) وما دار بينه وبين أمِّنا -رضي الله عنها- (زينب بنت جحش)، وطلاقها، وزواج النبي -صلى الله عليه وسلم- منها بأمر من السماء. وكأنَّ (شاهين) لصيق بجدار المسجد؛ ليعقِّبَ على كلِّ خبرٍ؛ إذ قال عن هذا الخبر الحميد المجيد نصًّا: (كان النبي عينه منها).

فنظرتُ عن يساري، فإذا بي أرى (فؤاد) يتخطَّى من فوق أكتاف الشباب، يخترق الجموع، لا يُبالي بالوصول إلى الشيخ ليسلِّمَ عليه، فرآه الشيخ البسَّام منذ البداية، وصمت دقيقةً، وبدأت على محيَّاه الدهشة من القادم الذي لا

يراعي أدب الجلوس، مرَّ بين الجلوس باندفاع وهمَّة الأطفال، الله وحده يعلم الغرض من هذا.

هل هذه نشوة طارئة وحماسة عفوية؟ أو لعله يعتقد أن الشيخ سيسأله عن اسمه، ويدعو له، فيسمع اسمَه عبر الميكرفون النساءُ اللاتي يسمعنَ الدرس، هو لا يعنيه كلّ النساء، بل آنسة واحدة؛ أن تسمع اسمه بين الملتزمين، وبصوت شيخ كبير، خاض ما خاض... ما قد يعرّضه للإحراج والنهر من الشَّيخ أمام الجميع، لكنّي أعتقد أن الشيخ يراه غير طبيعي.

فالتفت عن يساره وعن يمينه كالأهوج الطائش يبحث عني، فلمّا وجدني أبتسم ابتسامة أقرب للبلاهة من الخبل، وجاء رافعًا طرف جلبابه، واكتملت رؤية أسنانه في عيني، فحشر نفسه بيني وبين مَن على يميني، و(منذر) عن يساري، فقال لي: (عايز أسأل الشيخ سؤال).

فقلت: (أبوس إيديك، روّح وهجبلك الطبق).

فقال: (لأ، أنا مش همشي غير لما أسأل الشيخ سؤال).

فقلتُ: (طب أنت جبت الجاكيت دا منين هو والجلابية البيضة دي؟).

فنظر للجاكيت كأنه غير مُصدقٍ أنه هو الذي ارتداه، ولم ينطق جوابًا لسؤالي.

فلم أتذكَّر من الخطبة أكثر من هذا، إلا أن ما راعَ انتباهي هو أسئلة الشباب عن أشياء لا تحتاج إلا إلى قدوة، أشياء فطرية، أو قل: هي أشياء لا بد أن تكون ذاتية بصورة محضة، تجربة شخصية. ولم يفعل (فؤاد) كالآخرين بإرسال سؤاله

من غير معرفة المرسِل في قصاصات الورق.

لقد قام مرة أخرى، وذهب إلى الشيخ؛ ليعطيه سؤاله في يده: (ممكن واحدة ملتزمة تقبل الزواج من واحد غير ملتزم، لكنه بيحاول؟ ... فؤاد). فضحك الشيخ، وأجابه في حينها: (والله يذهب لها، والرأي رأيها... هداك الله إلى ما يحب. يا فؤش).

فضحكت فتاتان، وابتسمت أخرى من قول الشيخ.

وبقت لفتةٌ قالها الشيخ في منتصف خطبته، لفتةٌ سطعتْ بها أنجمُ النحسِ والسعدِ؛ إذ قال: (يعني: ماتبقيش لابسة نقاب وتلبسي جزمة حمرا).

من خلف شيش إحدى النوافذ؛ كانت ثلاث فتيات يصغينَ لحديث الشيخين أسماعهنَّ. إنها (فاطمة). شَرُفتْ بها الكنبةُ الراكدة تحت النافذة، بل شَرُف بها كاملُ حَيِّنا. إذا ما ذكرتُها، نازعني فيها حرفي تشابكًا باسمها مُتزيّنًا عَطِرًا به؛ يتباهى ويختالُ على إخوته باسمِها.

ولكن على مَن يختالُ وهو في نيّة كل حرفٍ؟ فأمحوه معتذرًا: دَعْني كريمًا وإنهاءَ كلامي. ألا تجاوز الله عمَّن رُزِق بفتياتٍ ولم تكنْ فيهنَّ (فَاطمة)... قد حسرتْ عن وجهها قِناعها، والشمس دونه أمام أترابها، وها هي تجلس مائلة برأسها قليلًا إلى الأسفل، تنظر إلى أرضية الحجرة بسجادها الأحمر، على حافة تلك السجادة، وتحديدًا أسفل تسريحة (مروة)، قد وضعت (فاطمة) حذاءها الرياضي.

إن من سُننِ (فاطمة) التي اُتّبعتْ عنها، إذا دخلتْ مكانًا، واُضطرتْ من حذائها تركه؛ أخذته إلى المكان الذي ستجلس فيه، بعيدًا عن أيِّ بابٍ؛ حتى لا يُنظر إليه من أيِّ عينٍ مهما كانت.

وجدتْ (فاطمة) مؤخرًا خطابًا قديمًا من أبيها كان يحاول عبثًا وصفها: «أنتِ المثلُ الذي عجزتُ أن أضربه إلى الناس، أنتِ المعنى الذي لم أجد له ألفاظًا في تبيانه فتجسّد يحيا كائنًا، أنتِ الوضوحُ لما اِنبهمَ مني؛ إن جميع تصرفاتك وأفعالك هي ترجمة لما كنتُ غير قادرٍ على توضيحه للناس، كل شيءٍ وفعلٍ لهما ظاهرٌ وباطنٌ، وأنتِ الباطنُ لكلِّ ظاهرٍ لي»... وفي ذيل الخطاب: «كأنَّها حضرتْ يومَ خَلْقها، ولم يُردِّدِ المولى مُناهَا، سَقَى اللهُ أرضًا خُطاهَا... يأْبى عليها حسنُها إخفاءَهُ، فتستَّرتْ بجمال فوق جمالٍ، فإذا استحتْ وهبتْ زهورًا خدَّها، نقلتْ إذا خجلتْ بطونَ جبالٍ، لو صافحتْ يدُها قَعودًا مرةً، كادتْ تبثُّ بها رجاءَ مُحالِ»...

لقد أعجبها هذا الحذاء من خلف الزجاج أثناء عرضه، وعلمت كيف ستُواري خطًّا دقيقًا بلون البينك الملتفّ حواليه فوق نعله... فهي تعرف ما الذي يعجبها سريعًا... ألا إن الذوق المرهف لديها حاضرٌ دوامُه.

كأني أرى حبر القلم الأسود العريض فوق هذا الخط الذي نَقَبْتهُ... تنظر بعينٍ سوداء واسعة غارقة بإحساس الإدراك الحزين، تظلِّلها أهدابٌ طالما تشاجرتْ مع طرف النِّقاب فوق عينيها، تُرى ما الأفكار والخواطر الَّتي تجول الآن في

خاطرها؟ يُضيءُ كلَّ شيءٍ خسوفُ نقابِها.

لو نظرتْ إلى شاشة هاتفها المُضاء؛ فلا يدري الثقلان أأضاءَ الهاتفَ وجهُها أم أضاءَ وجهَها الهاتفُ؟ إنْ هِيَ؛ التي نقَّبها من تحت النقابِ حياءٌ؛ فسترَ ساترًا مستورٌ؛ سترَ الحياءُ ذاك النقاب الذي فوقه! وهذا هو أصل الخليقة.

تجلس أمامها (مروة) على سريرها، وعن يسارها تجلس (سارة) فوق كرسي بجوار السرير... إنَّ النقاب بالنسبة لـ (فاطمة) كاسمها؛ لا يتغيَّر. قد غير الكثير أسماءَهم، لكن اسم (فاطمة) لا يتغيَّر.

إن النقابَ لُبابُ نفسِها، ليس حالة مزاجية، ولا هو شيءٌ تصبر عليه، وتجاهد عند كل خروجٍ في ارتدائه، وإنما هو شيءٌ مخلوطٌ بنفسها المفطورة عليها. هو شيءٌ قُضِيَ الأمر فيه من قبل ميلادها؛ لذلك علمَ الشيطانُ لأجل ألّا يحترق؛ ابتعدَ عن أن يأتي حتى في أحلامها بذكر هذا النقاب.

إن أمر النقاب لدى (فاطمة) ليس في المقام الأول مسألة طاعة، ولا مسألة: (نقابي عفتي وجنَّتي)، ولا حتى فيه حظٌّ من النفس في التمايز، ولا مسألة ألوان، ولا مسألة خلاف. إن النقاب في نفس (فاطمة) مسألة أنثوية محضة. فإذا ما ضلَّت البشرية في نصوصها، وهي في الضلال تَسْتنْقِعُ؛ فالحَكَمُ الأمينُ الذي لا ضِلَّةَ فيه أبدًا هو: يدُ الله؛ يومَ صبغتْ فطرتها.

مسألة أنثوية خاصة، لا يحقُّ لأيِّ نفس بشرية التدخُّل فيها، إنَّ المسألة أبعد من ذلك بكثير من قبل سماع ماذا يقول الدين أصلًا... إذا رأيتَ إنسانًا يمشي من

غير أقدامٍ، وإذا رأيتَ إنسانًا يعيش بغير قلبٍ؛ إذن لتراءتْ (فاطمة) بغير نقابٍ شرعيٍّ... فالأمر محسوم من قبل ولادتها... الأمر خارج قِيح الخبث ومُهْل الضلال. هي في عليين مع هذا الأمر، كيف لها أن تنظر إلى أوباش أحفاد أوباش؟ وأن تسمع ماذا يقولون؟

منذ اللحظة الأولى التي عرفت فيها (سارة) صديقتَها (فاطمة)، أصبحتْ هي النبراس، هي القدوة، هي المثل الأعلى، هي ماء العين الذي يُرى به. كما توجد هذه العلاقة بين الرجال وبعضهم، فإنها بين الفتيات وبعضهنَّ... تجد الشابَّ عبدًا لشاب آخر، يرى به، وفيه الدنيا كلها؛ كأنه خُلِقَ عند التقائهما... ويزيد في الفتيات شيءٌ آخرُ؛ كأنَّ مشاعرَ بعضهنَّ حملٌ ثقيلٌ هائلٌ، ولا بدَّ أن تضع هذا الحمل فوق مَن تراها نبراسًا لها.

وتحمَّلتْ (فاطمة) الحِمْلَ عن (سارة) الَّتي تسألها في كلِّ شيءٍ، والَّتي تشاركها أدقَّ أدقَّ سفاسف أمورها اليومية. كانت (فاطمة) تئنُّ من مثل هذه العلاقات التي تستهلك منها طاقة نفسية عظيمة، وتتحمَّل في صمت حتى لا تجرح الطرف الآخر، ولا يدري الطرف الآخر، ولا تسعى أن تكون نبراسًا لأحدٍ؛ فهي لا تحيا إلا في الخفاء الصامت.

بكلمة واحدة فقط من (سارة)؛ تتوقَّف حياة (فاطمة) بالكامل، كلمة واحدة فقط؛ أن تُرسل لها: أنا أحتاج إليكِ... فقط.

عقرت الحياة عن المسير عند (فاطمة)، وعند الاطلاع على شكوى صديقتها؛ تستيقن أنها أرهقتْ نفسها، وكتمتْ أنفاسها من أجل معاناة صديقتها التي بعد أن عرفتها؛ وجدت أن الأمر لا يتعدى أن يكون خيالًا داخل خيالٍ داخل خيالٍ مرَّ عليها وهي لا تجد شيئًا تفعله في فراغها الدائم، وقد تُرسِل بأمثال تلك الكلمات، وتتعطَّل حياة المسكينة (فاطمة)، وصديقتها قد نست أنها أرسلت شيئًا لها، أو حين يتحدَّثون تتحدَّث (سارة)، ولا تذكر شيئًا عن الذي أرسلته.
اللحظة الأولى التي بدأ فيها كلُّ شيءٍ، كانت في أحد المساجد. أيامَ كان النقاب في كل الأرض لا يتعدَّى هيئته وتفصيلته ثلاثة أشكال معروفة ثابتة، قبل أن يصبح بعد ذلك لكل منتقبة عرض أزياء خاصٍّ قد أبدعته لما يناسب جسدها أو لمسات ثناياها الحنونة... أيامَ كانت تعتقد كل المنتقبات اعتقادًا لا ريب فيه؛ أن لا إشكالَ ولا عائقَ ولا أي شيءٍ يشوبُ في الزي الذي يرتدينه. قبل أن تسطع علينا الأنجمُ النّحسُ. (إذا دُجْنةٌ حطَّتْ عليه وثاقَها، أضاءتْ، فما إلَّا من الأنجم النّحس).
في تلك اللحظة؛ رأتْ فتاةً تلومانها فتاتان على نقابها الَّذي تشابه مع إحدى الملل الأخرى، وتحدَّرتْ من الفتاة الملومة دمعاتٌ. فتدخَّلتْ (فاطمة)، وألانت القول لتلك الفتاة التي التصقت بها بعد ذلك، ونصحت الأخريَين ببعض اللين والرقة.
وقتئذٍ صارت (سارة) ظلًّا لـ (فاطمة) قبل أن تنقلب وتصبح ظلًّا لـ (مروة)،

لا أدري لماذا تُصرّ على أن تكون ظلًّا؟ ولكنَّه ظلٌّ يؤثر وقد يُغيِّر وجهةَ صاحبه، وإذا تمردَ الظلُّ يومًا، فلا يعني هذا أنه سيصبح كائنًا مستقلًّا بذاته، ولكنَّه يتمرد على كائنه القديم؛ ليصبح ظلًّا لكائنٍ جديدٍ. هل رأيتَ ظلًّا يمشي وحده؟

إن هذا الظلّ فراغٌ في فراغٍ قد غُبّرَ لونه، ولا يرى نفسه من داخله، بل يرى نفسه من خلال كائنه، كائنه الذي رسمه على الأرض. إنَّ هذا الظلّ لا يمر عليه ساعة واحدة من دون كائنٍ يحمّله كلّ همومه، وهي في الغالب ليست همومًا. فأضحت (سارة) إذا وهنَ منها الإيمان لا ملجأ لها إلا (فاطمة)...

وتعتبر (سارة) اكتسابَ صداقة (فاطمة) إنجازًا حقيقيًّا في حد ذاته؛ إذ تقيسُ أشياءَ كثيرةً في حياتها على: معيار الإنجازات. ويا ليت (سارة) تقتنع بأنه هكذا يكون النقاب، وليس لأن (فاطمة) ترتديه، ويا ليتها تمتلك القوة الذاتية للاستمرار على هذا النمط، وليست بحاجةٍ إلى دفعات نفسية دائمة من (فاطمة) للاستمرار...

يا له من خطرٍ جسيم أن تُترَك (سارة) وحدها بين آلاف الخيارات التي قد تُدمِّر أمثالها تدميرًا. ويا ليت (فاطمة) كانت حقًّا مُقرّبة إلى (سارة) كما تدَّعي الأخيرة، ولكنَّ (سارة) دائمًا تُجدِّد المقرَّباتِ إليها، والقدوةَ حسب أهوائها، ولأنَّها تبحث عن شيءٍ لا تعرفه، ولن تجده؛ انغمست بشراهةٍ في الأنشطة الطلابيَّة، وأصبحت من أوْلى أولياتها. لا أدري لماذا كلّ شيءٍ في بدايته يصبح عندها أولى الأولويات؟

وخفَّفت (فاطمة) من حدَّة شراهة صديقتها، من أجل الحفاظ عليها، بشقّ الأنفس؛ ولولا أنَّ كلَّ كلمة تقولها (فاطمة) تتغلغل في قلبها؛ ما كانت رجعت عن تلك الشراهة، ولم تيأس (فاطمة) يومًا في أن ترفع (سارة) من منزلة الظل، ولكن الطبيعة تسخر من الجميع بهزيمتهم.

لا يستمر مثل هذا الظلُّ متبوعًا لكائنٍ على الدوام، فهو دائم التمرد، وإنما يستمر لظلٍّ آخر من نفس جنسه، لا يختلف عنه اختلافات كثيرة، ظلّ مُعدّل، وهذا الظل المُعدّل (وليكن إنسانًا مشهورًا) لديه لذة في استجماع الظلال من حوله، الظلال التي هي أقل منه.

إذ لن تجتمع الظلال بالآلاف إلا على ظلٍّ مثلهم، لديه لذة في استجماعهم، يعرف طبعهم الذي هو أصل طبعه؛ والذي يصل بهم: ألَّا يختلفوا عليه. إذ لديه (الكود الظلّي) المنحوت داخل نفسه، والذي بمجرَّد كتابته؛ تنهال عليه الظلال، وإنما الفارق بين الظل المُعدّل وغيره من الظلال، أنَّه تعلَّم قراءة الكود للعميان. إنَّ الذي يفرح بالنُّسخِ المنسوخةِ منه، لهو نسخةٌ لا أصلَ لها...

ولكن إذا استمرَّ ظلٌّ مع كائنٍ، فإن هذا الظل يحتمي فيه أمام كائن آخر؛ إذْ يرى في الآخر مُضاهاة الأول، والصمود أمامه. يا بؤس عادة كلّ ظلٍّ... يصبح غيّاظًا كيّادًا لكائنه القديم؛ قد يكون رأى حقيقته على حقيقتها لأول مرة معه، أو لعله شعر أنه مُستغنٍ عن خدماته وعبوديته له، شعر بذلٍّ بالإهانة، وبقدر هذه الإهانة يكون دأب وحماس هذا الظلّ في البحث عن كائن جديد -أو

انتظاره بفارغ الصبر، وهو مع الأول- ليخرج الغيظ ينفثه على المستغني عنه... وهذا الكائن لم يستغنِ... ولم يطلب يوما ظلًّا. وكل هذا يدور في فراغ نفسية الظلّ؛ التي لا تهدأ قط من طواحين الهواء الفارغة بداخله.

ولم تكن علاقة الظلال مكشوفة التَّفاصيل كما هي الآن؛ إذ كانت قديمًا تتمثَّل في تقليد الكائن في ملابسه وكتبه المفضلة وعلاقاته الاجتماعية... أمَّا وبعدما فُتِحت الأبواب للظلال؛ لينطلقوا ويعبِّروا عن أنفسهم؛ قد تفنّنوا في إفشاء تفاصيلهم عِيانًا في كلِّ شيءٍ، حتى أصبح لكلِّ ظلٍّ مذهبًا فريدًا؛ يلعن كائنَه القديم، ولا هو يهدأ قلبه اطمئنانًا مع الجديد... كان الله في عون الظلال؛ قد كان لهم الكائن القديم ستَّارًا على عيوبهم.

إن الأكثرية من الفتيات قديمًا؛ إذا ما انتقدت إحداهنَّ نقابها خجلتْ وبكتْ وشعرتْ بالضعف والعجز والذنب جميعًا، أما الأكثرية الآن... {قُل أعوذ برب الفلق}... اوعى وشك...

إذا انتُقِدَتْ بسبب نقابها الضيق، أو نقاب الكمامة الذي يخفي الأنف والفم وبادي صدغيها ويتطاير مع الأنفاس؛ (كشّمتْ) لمنتقديها وجهًا حجريًّا لا يتفجَّر منه الماء، وصعقتهم بالصواعق الكهرومغناطيسيَّة. اهربْ يا ولد... إنها مُحصنة بالثقافة.

ترى أن نقابها لا يمنعها، ولا يحرمها من (الشقلطة)، ولا يحرمها من الحداثة وما بعد الحداثة، مُحصنة بكلِّ أساليب الرد على منتقديها بعدما كانت حَصانًا

وبمنأى عن (الشقلطة)... (أَبتْ إلَّا الشقلطة يا جدع)... بل أصبحت تتغذَّى غذاءً يمْريها، تتغذَّى على هذا الانتقاد الذي أصبح طاقةً عظيمةً في استمرارها على ذاك الوضع، فهذا النوع إن تُرِكَ دون انتقادٍ؛ سيتآكل من نفسه... والقلَّة هم فقط مَن يحتاجون الدعم، وسيثبتون بعد ذلك.

(فاطمة) هي (فاطمة) لا تُعلِّق، ولا تتحدَّث، ولا تلفت نظر إحداهنَّ على نقابها، أو سلوكها... لماذا؟ يكفي وجودها فقط بوجهٍ باشٍّ وَضَّاح المحيا؛ ليكونَ هو الضمير الصارخ دون أي كلمة عن أيِّ انتقاد. وهذا ما يحيِّر... وتُجَنُّ منه الكثيرات ممَّن يخالفنَ مبادئ (فاطمة) أكثر ممَّن ينتقدنَ بالقول والفعل.

بكَّرتْ (فاطمة) في مجيئها مخافة الزحام كعادتها، ثم تبعتها (سارة)... قد حكت الأخيرة عنها: قد تتخطَّى محطتها؛ لأن الطريق من مكان جلوسها إلى باب الأتوبيس مزدحم... وقبل نزول (شاهين) إلى ساحة المسجد، دخل إلى حجرة ابنته (مروة)، وبعدما طرقَ الباب، زاحمَ رأسه كفأرٍ دون جسده من فتحة الباب الموارب، ولمعت عيناه، وأضاف لهذه اللمعة إحساس أبوة منعدم الأصالة.

عند طرق الباب؛ كلمح البصر كسفتْ عنهما الشمس بإسدال نقابها على وجهها (فاطمة)، وتبعتها (سارة). فقال: (ازيكوا يا بنات)... فردَّت (سارة) بصوت مندفع سرعان ما تباطأ قبل انتهاء جملتها بخجلٍ متكاسلٍ، وخدَّر رأسَ (فاطمة) الخجلُ ثاقلَه إلى الأرض، فلمّا لم يسمع صوتها في الترحاب، أعاد

عليهنَّ كلامه مع علمه باختلاف الطبائع بينهنَّ وبين غيرهنَّ، فعلمتْ أنَّه يبغي ردًّا عليه بإصرارٍ باردٍ؛ فأخملها الخجلُ.

فلو سُئِلَتِ الفتاتان: هل سمعتما صوت (فاطمة)؟ لقالتا: كُنّا كأنَّنا لا نراها، فكيف نسمعها... ثم يقول: (إيه يا بنات مكسوفين مني ولا إيه؟). فغضبت مع كبح غضبها (مروة) قائلةً: (بابا).

فيقول: (مروة هاتي عصير للبنات). ثم نزل.

فابتسمت (سارة) لما سمعت كلمة الشيخ عن الحذاء الأحمر مع النقاب، وكادت تكون ابتسامتها ضحكة مكتملة، ونظرت إلى (مروة) التي كانت تبتسم لها هي الأخرى. ابتسما كلاهما كأنَّ الشيخ قال شيئًا طريفًا خياليًّا، شيئًا من اللَّامعقولات بين هذي الفتيات وأمثالهنَّ. أمَّا (فاطمة)؛ فكأنها لم تسمع، لكنها دعتْ بالهداية في خاطرها لجميع المنتقبات وغيرهنَّ وهي تنظر إلى الأرض.

١٧

ذهبتْ (فاطمة) عند لحظة انتهاء الدرس سريعًا قبل الزحام. ذهبتْ كعطرٍ سَابٍ ليس بمستعادٍ إلا في الآخرة. وظلتْ (سارة) بجوار صديقتها تنتظر سيارة أخيها.

كان (عطية) في انتظار الشيخين أمام المسجد؛ ليصعد بهما شقة (شاهين)، وأول ما خطف نظرَ الشيخ البسام هو: الصورة المعلقة على الجدار، هي ذات الصورة الضاحكة التي تجدها بجوار السائق لسيارات نقل الدقهلية. صورة الشيخ الشعراوي –رحمه الله– فقال:

ـ رحم الله الشيخ.

فقال (شاهين) ولا يدري أحد ما الغرض وراء كلامه:

ـ رحمه الله رحمة واسعة. قد أخبرنا: لا عذاب قبل الحساب.

فظهر التعجب والانتباه على وجه (أحمد ماهر)، لصيق الشيخ البسام، كما ظهر على الرجل البني لصيق (ماهر). ونظر الأول لشيخه؛ كأنه يقول له: (رد على هذا). أما (حسين زايد)، فمعروفٌ لصيقه؛ صاحب السيارة الفارهة. فقال الشيخ البسام:

ـ غفر الله لنا وله. وأسكنه فسيح جناته.

ـ هل صحيح يا شيخ، أن هناك عذابًا في القبر؟

ـ نعم، العذاب مذكور.

ـ أنا لا أعتقد بهذا.

فشعر الشيخان والذين معهما، أن الأمر أشبه بسجال وليست مجرد خِطبة.

فابتسم الشيخ ابتسام الواثق. ونظر لعين (شاهين) بكل وضوح وقال:

ـ مذكور.

ثم دعا الشيخ مباشرةً لمباركة الزيجة، فأشار (شاهين) لابنه (علي)؛ كي يحضر المشروبات مسرعًا، ومال المحامي الذي كان أول الصاعدين مع صاحب البيت على أُذن صاحبه –وكان صوتهما لا يبعد عن سمعيهما، وكأنه لا يرى اكتظاظَ اللحى من حوله، كالذي يتعمَّد سخرية تجرح، ولا مكسب له إلا إحراج مَن أمامه:

ـ إيه يا حاج، هو مفيش موسيقى ولا إيه؟

ـ إسلامي يا سيدي، إسلامي.

ـ مش كنت تعقّل بنتك؟

ـ نصيب، هي اللي طالعة شاذة عن إخواتها، كويس إنها واحدة.

فلما دخل علينا (فؤاد)؛ أغْشى الصمتَ الجميعَ هيئتُه... لم يكن على علمٍ بتلك الخِطبة إلا منذ لحظات... أخبره إياه (رُمَّانة) القهوجي، الذي هو على دراية بكل خبايا الحي.

ولقد آثرتُ عدم إخباره بنفسي، وتركتُ الأمر لـ (شاهين)... وبالمرصاد ترقبًا

وحذرًا؛ لمعتْ عينا (شاهين) الضيقتان من خلال زجاج نظارته، وتأهُّبًا لانفلات أعصاب (فؤاد). جلس هادئًا والعيون راكدةٌ عليه؛ حيث إنه آخر ضيفٍ حلَّ، ابتسم له الشيخ البسّام، وتذكره حين أعطاه سؤالًا في المسجد.

فشق الشيخُ الصمتَ، بكلمةٍ كأنها كشْفُ الغطاء عن بركان، لم تكن تلك الكلمة هي الفاجعة، ولكنها نظرته إلى (فؤاد) خصيصًا؛ إذ ظنَّ أن أطراف العرس جميعًا قد اجتمعوا، نظر الشيخ إلى (فؤاد) في أوَّل كلمته، وأدار وجهه لـ (شاهين): (أين العريس لنبارك له؟).

احمر وجه (فؤاد) احمرارًا، لم أره من قبل، من دموع كاوية يهيج غليانها في قلبه، تبحث عن مفرٍّ من جحيمٍ مُستعرٍ في فؤاده، إنَّ الاضطراب والارتباك اللذين هزَّا كلَّ كيانه قادران على هز البيت الذي يظلِّلنا سقفُه، كانت كلمة بمثابة إصدار حكم عاجل بالجلْدِ وتنفيذه في الحال.

أمَّا المحكوم عليه؛ فكان مصعوق النفس تمامًا؛ إذ يرى في كلِّ نظرة تقع عليه سخرية، حتى لو كانت نظرة عطف، عاجزًا من بأْسِ تحطمِه وانهيارِه في أن يُبين لغيره أنه مظلوم، أو حتى على أن ينطق بحرفٍ واحدٍ. كأنَّ الفمَ قد خِيط على لسانه...

وعجزٌ آخر على حمل رأسه من قروح الأفكار التي دارت فيها كلها دفعة واحدة، لكأنَّه تمنَّى أن يُطعَنَ حتَّى يسيل منه غليان دمعاته وأفكاره على الأرض؛ ليستريح، وإنَّ العيون المستطلعة التي كانت تراقبه، لم تكن تراقبه في

الحقيقة؛ لأنهم يجهلون ما خفيَ من الأمر.

إنَّ تلك العيون هي سياط عذاب الجلَّاد، ومِمَّا تستزيد به جرعةُ الأسى مرارًا واحتقانًا أن يمرَّ المرءُ بتلك الحالة، وهو مرْمى لأعين الغرباء عنه؛ فانتفخَ قلبُه صراخًا مكتومًا.

لقد وقع فريسةَ حلمٍ من تلك الأحلام التي فيها الإنسان يكون مشلولًا عن أدنى حراكٍ، ومن حواليه الثعابين والأشباح الخُنَّث تلهو بروحه المكبَّلة. يا ليت (فؤاد) يبكي، فأنا أكاد أسمع طنين ازدحام المشاعر في قلبه المُعتلّ، وأَزِيزًا كأزيز الرّحى لعواطف الخيبات. لو اقتيدَ من يده لسقط ككتلة واحدة افترشت الأرض؛ كالنشوانِ تبسَّمَ فيه الحزن.

وأخيرًا أراقَ مَنفوهُ الفؤادِ دمعاته الحارقة على العين... الفؤاد الذي كأنَّه وقع تحت يدِ أعمى ظنَّه قطعةَ إسفَنْجٍ... ظهر تلألؤ غرائر الدمع عالقًا يُخفي عينيه، فلو سقطتْ لسالَ على النحر صبيبٌ. وانفلتت على غير إرادةٍ منه صرخةٌ مكتومةٌ كالتي تخرج من قطةٍ دُهِسَتْ بعجلات سيَّارة مَن لا يبالي إلَّا بالاستحواذ على ركن سيارته، ولكنه ما يزال يتنفَّس بعناءٍ؛ كالخارج من تحت الحطامِ لبيتٍ قد تهدَّم فوقه. لا يزال التراب في أنفه وحلقه المتصلّب فيه ذرَّات التراب الكبيرة حتَّى بعد أيام من إنقاذه.

كان الغرض من دعوة والد (فؤاد) لهذه اللحظة. لم نسمع كلامًا مفهومًا من (فؤاد) قبل أن يستردَّ هبةَ النطقِ وتركيب الحروف. وطارَ أولُ المنقضِّين عليه...

والدُه... كأن المشهد مدروسٌ قبل الآن، وكلٌّ على خبرٍ بدوره... إلا الغافل (فؤاد)، وأول ارتطام حدث؛ كان وقع قبضة عَجُولٍ من يد الأب القوية على فم الابن المُهيَّأ للدمار، فجرحَ شفتَه السفلى انغراسُها في أسنانه، حتى الدم كأنه تدرَّبَ على هذا المشهد، وينتظر الانفجار.

لكنَّ سِبابًا خاطفًا ممزوجًا بالدَّمِ انبجسَ من فمِّ (فؤاد)؛ لعنَ به خالَه... فسقط (أحمد ماهر) مغشيًّا عليه. لقد بلغَ انصعاقُه قبل سقوطه أنْ كاد يُنسيني (فؤاد)، ورفع (حسين زايد) يده يداعب لحيته، وهو يغمز بعينه، فاستنشق المسك فيها، ثم وضع قبضة يده فوق جيبه؛ يتحسس زجاجة المسك هدية (أبي عبيدة)، فلمَّا تذكر أنه سيتسنَّى له ركوب سيارة شيخه الكبيرة المريحة في العودة؛ استكان في ريعان الرفاهية...

فقاما (علي) و(عطية) كأنهما لصيقان ينقضان ضرْبًا عليه، فحجَّمتُ عنه (عطية) بكلِّ قوةٍ مؤازرًا ابنَ عمِّي، ونظرتُ له نظرةَ متوعِّدٍ؛ ألَّا يتدخل بين (فؤاد) وخاله، فعرفتُ من رجيع نظرتي أنَّه لن يغفر لي.

أما (علي)؛ فقد هدَّأتُه سريعًا، وقلت له بصوت خفيض: يكفي والده عليه. فلمَّا اقتربتُ أغيثه مُنجدًا من بطش أبيه، وَخزتني في صدري فَتكةُ عمي الغضوب، وقال لي: أنتَ مَن أفسده... فتبدَّلتْ نظرتي إليه إلى نظرة صدمة وحيرة.

فتفلَّتَ الجريحُ من قبضة أبيه، وآثار حزٍّ طرف جلبابه حول عنقه كأنَّها محاولة خائبة في النحر، وخرج كالسَّهم من باب الشقة، فسعيتُ غيرَ وانٍ أواسيه،

فدفعني بشدة للخلف، ووقفتُ لبرهةٍ وهو ينزل أمامي سريعًا على السلم، فزلَّتْ قدمُه، فسقطَ بضعَ درجات يتدحرج، فقُطِعَ جلبابه؛ حتى ركبته التي سال منها الدم يدمغ الدرجات. فخرجتُ وراءه أناديه، فأشاحَ من دون النظر لي: أن ارجعْ.

رجعتُ... وجدتهم لاطمين وجه (ماهر) بالماء، وغمزتْ أناملُهم أطرافَه؛ الذي خطفَ إغماؤُه بطولةَ المشهد، لم تتحمَّل رقَّته كلّ هذا الانهيار، وجاء السِّبابُ يفتك رقةً كرقَّة العذراء خاتمةً لتقضي على وعيها.

ولكني أثناء سقوطه، سمعتُ صوتَ (شاهين)، وحسبتُ أنْ لم يسمعه غيري... صوتٌ وأسلوبٌ عجيبان، قد يُنسيانك ما أنتَ فيه من دواهي مكر هذا الأسلوب.

تذكَّرت أسلوبًا له بنفس الطريقة قد حكى لي (فؤاد) عنه، درجة الصوت فيه كأنَّه يُفضِي بسرٍّ لكائنٍ غير مرئيٍّ...

سمعتُ السِّرَّ وهو ينظر إلى (ماهر) المرهف المغشيّ عليه: أومال هتفتح عكا إزاي؟... يقصد ليلة الدخلة... وما حكى (فؤاد) لي قريب جدًّا من هذا، كان هو وخاله في طريقهما إلى المحامي، فنسيتْ فتاةٌ محطَّتها بعدما تجاوزتها بقليل. لا تزيد على أن تكون في الثانوية العامة أو في ربَق الجامعة، فنادت على السائق؛ ليقف بصوتٍ حَيي. فمرتْ بالقرب من (شاهين)، فقال بصوت السِّرِّ، وبذات الطريقة التي تحتاج إلى الحاذقين في التقاطها، ولم يسمعه غير (فؤاد):

ـ إيه يا بِه بِتحبّي ولا إيه؟

أفاقَ (ماهر) مُثابًا، وإفاقته تدعونا إلى سجدة شكر. اتَّسع له الوقت أن يمرَّ في حلمٍ سريعٍ، قد سجَّله في مذكراته، حلم أنَّه يمشي على أرضٍ ملساء؛ عبارة عن قشرة رقيقة لسطح كيكة برتقال...

لقد كاد يُغشى عليه داخل الحلم ذاته من سعادة لا يقدر على وصفها سكَّان وادي عبْقر كلهم؛ من ملمسها الإسفنجيّ، الذي يرفعه لأعلى مع كلِّ خطوة، كأنَّ قلبه يلامسه السلسبيل، فلا يحتاج المرء أن يرتدي حذاء خشية ممَّا يدهس عليه في الأرض.

وأصابه خدرٌ لذيذٌ من الروائح المنبثقة من خليط الكيكة. وفجأة شعر أنَّ الأرض تنهار من تحته؛ إذْ غرست قدمه اليسرى في فجوة لا يدري أحدٌ أهي نقص في الفانيليا، أم البيكنج بودر، أو هي فقعة من غازات كتكوت لم يكتمل في البيضة.

أفاق مذعورًا قبل أن يغرق كلّه تحت القشرة السَّطحيَّة للكيكة، ورأى كلَّ الوجوه من حوله للوهلة الأولى، كأنها قشور البرتقال. ما أشدَّ ألم نفسه حين يتذكَّر أنَّه أفسد غشاء كيكة في حلمٍ ذات يوم.

جاهدَ (ماهر) جهادًا عظيمًا بعدها في تفسير الحلم، فلم يجد في قاموس ابن سيرين خبرًا عن الفانيليا...

وغاب عن المشهد كلِّه الرجلُ البنيّ؛ إذ تسلَّل في غفلة من الجميع مع بدء انهيار

(فؤاد)، لَّمَا تذكَّر أنه من الواجب عليه شراء السكاكر؛ لتكون حاضرةً دائمةً في جيبه. لقد شعر بالتقصير لما أخرج (ماهر) سكاكره لـ (عبيدة) في أول اليوم، ورأى التقصيرَ يزداد تقصيرًا في كلِّ تأخيرٍ عن امتلاكها... ونسيانها كان خطيئةً لا تُغْتَفَرُ، وسيعاقب نفسَه على هذا.

كان في انتظاره مشهد آخر. سُمِعَتْ ضجَّةٌ كبيرةٌ من ارتطام صينيَّة كانت مملوءة بالزجاجات، متنوِّعة المشاريب، يحملها (رُمَّانة) القهوجيّ، وسقط جسدٌ على الأرض كأنَّ شقّاه يتنازعان، فهذا داعيهِ للمماتِ، وهذا يُبقيهِ بالحياةِ... كنتُ أعلم أن نظرته اليوم تزداد حمية، وريبة، وعدم تحمّل مشاعره الكاوية الحامية من عجزه النفسي الذي يهيجه أيّ شيء، ومن رؤية أنواع كثيرة من الشباب؛ إذ يرى في شبابٍ مثلي أنَّهم على قدر كبير من غواية الشيطانِ عند إقدامهم إلى الملذَّات (خاربينها) كما قلتُ عن نظرته.

ثمَّ يرى النقيضَ في هؤلاء الشباب ذوي الجلابيب البيضاء؛ يرى الإيمانَ، وهو لم يصل لهذا ولا ذاك؛ يرى أن شيطانه كسيحًا عاجزًا على دفعه في اقتحام عالم الملذَّات، وأن يعيش حياته كما يتصوَّرها في المتع، وكما نسجها خياله، ومع هذا يرى في ذاته أنَّه هو الشيطان بعينه إذا قِيسَ بهؤلاء الشباب حول المسجد... قُبيل سقوطه كان يُجالس إنسانًا، كساكب الزيت على النار، ينتظرني لمواعدةٍ سابقةٍ بيني وبينه، هو حلقة الوصل بيني وبين (رُمَّانة)، هو الخيط الذي أخبرني كيف يراني (رُمَّانة)... وكيف يرى هذا الحشد من الشباب، هو الخيط الذي

أخبرني ما تحويه نظرة (رُمَّانة) التي هي نظرة جيل بأكمله للدنيا.

(ولكنَّها تجلَّت، وكانت كالشَّمس في تصرُّفات (رُمَّانة) المسكين الضعيف عن غيره ممَّن هم قادرون على إخفائها عن الأعين، لم يدرِ (رُمَّانة) أنَّ الكثير ممَّن هم حوله هُمْ مثله، ولكنَّه لا يملك الأدوات التي بها ينفث حرارةَ نفسه، وحمله الثقيل، وتشغله، ولو بعض الوقت عمَّا يدور فيها، ولا ينبغي له أن يُترك وحيدًا مع الفراغ الذي لن يجد فيه إجابة لأيِّ شيء، وكل التفسيرات التي تُفسّر فيه خاطئة).

هو إنسانٌ لديه لذة عجيبة في أن يُظهر لـ (رُمَّانة) عجزه بصورة فائقة الخفاء؛ كالذي يتحدَّث معك... يُخبرك: أنا ذهبتُ (لهنا ولهنا)، وفعلتُ كذا وكذا. والغرض الوحيد من إخباره إياك: أنتَ ما فعلتَ كما فعلتُ. أنتَ يا (رُمَّانة) لم تفعل ما فعلته... يا هول ما كان يقع على روح (رُمَّانة) الناظر للدنيا على أنها تدور من حوله وهو لم يفعل شيئًا.

وكانت من أساليبه الخفية تعاليه على (رُمَّانة) بأنه يعرف فلانًا ويجالسه، ولا يقف عند هذا الحد، بل يخبره بالأفكار والمعاني التي كان يسمعها من فلان، يخبره كأنها خارجة منه هو وليس لغيره. كانا هو وصاحبه على درجة واحدة من التعلم وحدود العقل.

لو كان (كامل) أمله الوحيد أن يُفسد ما تبقّى في نفس (رُمَّانة) من اتزان نفسي؛ لما فعل أكثر مما كان يفعل بوازع التعالي؛ يخبره بما يسمعه مني من أفكار أو

مزحات أو آراء في الدنيا، كان يُفتن حين يرى لهفة ودهشة (رُمَّانة)، ويُصرّ على إلهاب مشاعر التَّحفيز في نفسه.

ولقد أخبره الأخير كثيرًا عني: أنا أحسدك لأن في حياتك شخصًا مثله... ليس من الغريب أن يكون في الحياة نفوس فارغة، ليس غريبًا مطلقًا، ولكن من الكوارث أن يتعرَّض -أو يُعرِّض نفسَه بنفسه- هذا الفارغ إلى أشياءَ لا تقدر نفسه على إدارتها. لكن من العجيب... ليس هناك فرق كبير بين (كامل) وصاحبه، ولكنَّ الأول عمله يشغل عقله بالكامل، ويرى في هذا العمل أنه كلّ الحياة، فهذا كان حائط المناعة بينه وبين أن يصل إلى حالة (رُمَّانة) الذي يعمل هو الآخر، ولكنه لم يجد شيئًا يُطلق عليه: (هذه هي الحياة).

ستجد مَن هم حصَّلوا العلوم، ويعملون ساعات طويلة، وتفوق عقولهم عقلَ (رُمَّانة) مئات المرات، ومع كلِّ هذا يشعرون بالفراغ الذي يشعر به (رُمَّانة).

إن الجهل كان نعمة على (رُمَّانة)، إنَّ الصرع عند غيره تختلف أشكاله، والسبب في هذا الاختلاف هو الجهل، جهل (رُمَّانة) قد منعه من استخدام أساليب في إخفاء صرعه. الذي هشّم الزجاجات التي كانت فوق صينية (رُمَّانة) هو (كامل) الذي كان يجالسه، فلمَّا انتهى من سكب زيته المغلي في رأس صاحبه المحموم بالطبيعة من كثرة ما رآه في الدنيا، ولم يجد له تفسيرًا؛ أصابته إحدى نوباته في الصرع.

فالتفت الجميع نحو ضجيج الزجاجات، ورأوا (رُمَّانة) وسط الزجاج المهشَّم

ممتدًّا على الأرض، يتدرَّب على الاحتضار، إنَّ الناظر إليه ليرى قوَّة عظيمة هائلة سجينة داخل هذا الجسد المُكبَّل بقيود لا تُرَى، تمنعه الصراخ أو الانفلات ممَّا هو فيه، سرعان ما نفض عنه حلقُه الزّبدَ، وجمدت عيناه مائلةً إلى السقف، وشطر جسده يرتعش كأنّه يُنعش الشطر الثاني قبل إعلان موته.

ولم يزل (أبو عبيدة) أمام المسجد ينتظر نزول الشيخين مع آخرين، فشقَّ طريقه بين الجميع، ووصل إلى (رُمَّانة) في أقل ما يكون من الزمن، وجلس عند رأسه، ورفعها فوق فخذيه، وأدخل يده في جيبه مسرعًا ليخرج المسك، فوجده فارغًا، وتذكر أنه قام بتوزيع الزجاجات كلها عند مدخل المسجد، فبحثتْ عيناه بين الواقفين عن (عُبيدة)، فرآه واقفًا مدفونًا بين المشاهدين يبتسم ببلاهةٍ.

فقال له: (عُبيدة اطلع فوق عند أمَّاه... هات منها المسك). فرفع كتفيه هازئًا (عبيدة) بالرفض، فالمشهدُ لمثله يصعب فواته، أعادَ عليه والده ما قاله، وما زال (عبيدة) يتمنَّع على أبيه، فقال بصوتٍ مِنبريٍّ مُشيرًا إلى ابنه أصبعُه: (عبيدة، سأحاجيك أمام الله).

فقال الشحط الأربعينيّ رجل التاء وهو يكبت ضحكه: (هئ هئ... سأُحا... هئ هئ)... فوخزه رجلُ الأسرارِ في جنبِه: أنِ اِصمتْ... أما (عبحميد): (عادي).

لم يكن المشهد فيه أيّ سعادة، ولكن ما أسعد الرجل البنيّ في أنَّ تقصيره سيزول اليومَ، واعتقد أنَّها إشارة على أنَّه مُسدَّد البصيرة؛ لَّما رأى أنه من الواجب عدم

التأخُّر أكثر من هذا في الحصول على السكاكر. واقترب من (عُبيدة)، ودسَّ في يده من السكاكر ما دسَّ، قائلًا له: (اسمع كلام أبيك يا عبيدة)... فصعد مسرعًا إلى المسك جالبًا إياه. أمَّا (عبحميد): (عادي).

وسأل أحد المشاهدين قبل مَجيء المسك: (وهل ينفع المسك يا أبا عبيدة؟).

فأجابه: (كيف يا أخي تسألني هذا السؤال؟ لا تسألني هذا السؤال يا أخي... أفسحوا يا إخوة من أجل الهواء). أما (عبحميد): (عادي).

وما زال الزبدُ يسيل من فم المصروع يبلِّل شهامةَ (أبي عبيدة)، الَّتي تَظهر في مثل تلك المواقف، أمَّا وجوه الشاهدين، فقد تنوَّعتْ قسماتها بلا حراك. وخانت الذاكرة (يوسف) في أن يجد صلة بين أرسطو والمسك وفساد رأي (أبي عُبيدة)، فرفع جانب شفتيه الأيمن؛ لتُضيّق الرؤية على العين التي فوقها، رافعًا كتفه من ذات الجهة قليلًا؛ كأنه يحقد على فطرته.

نزل الشيخان بعد إفاقة (أحمد ماهر) مباشرةً، فانسحبت الجموع خلفهما تاركين المصروع وصرعه، وكان (حسين زايد) فرحًا بفرحة خاصة؛ إذ سيركب سيارة الشيخ الفارهة على الأقل نصف طريق العودة، والذي كان ينظر لأقرانه من طلبة العلم على أنه هو المُقرب الذي يتمتَّع بمزايا الجلوس في مثل تلك السيارة المُرفّهة.

١٨

على خلاف ما كنتُ أتوقَّع؛ وجدتُ (فؤاد) عند عودتي إلى البيت، خائرًا كالذي أنهى عدوًا طويلًا يستعيد أنفاسه. كنتُ أحسبه أطاحَ جنونُه بكلِّ شيءٍ في البيت تكسيرًا. لا يرْتقُ الغضبُ يومًا ما فتقَ؛ إذ هو من الذين يشربُ عقلهم سورة الغضبِ عن آخره، وفيها لا يفكِّر بأيِّ عواقب تنتجُ من اندفاع كلماته العاصفة، التي لا يكون بينها أيّ رابط، وتطيح بكلِّ شيءٍ بالماضي والمستقبل...

إنها اللحظة الحاضرة... ينهك نفسه كلها في غضبه إخلاصًا لهذا الغضب. شرسًا عنيفًا. لو نظرَ هو لنفسه أثناء غضبه للامَ نفسه فيما تبقَّى من عمره. كأنَّها لذة يصعب عليه أن تفلت من يده دون أن يفني نفسه قربانًا لها، أو أن هذا الغضب سيتجسَّد إنسانًا، ويأتيه بعد هدوئه؛ ليقول له:

(لقد قمتَ بعملٍ جيدٍ في حضوري، والآن استرحْ، واستعدّ للقاءٍ آخر).

ومن طبائع (فؤاد)؛ أن إحساسه بالمظلمة أو عدم التقدير له؛ يرفع عنه كل ذنب في عدم مراعاة شعور غيره، فهو داخل هذا الإحساس، كأنه هو الوحيد الذي لا بد أن يرعاه الجميع، وأنهم كلهم بلا إحساسٍ مرهفٍ مثله. فيحق له أن يلقى الكلمات الجارحة على مسمع من حوله وليغضب من يغضب، بل يتبدّل غضبُ من حوله في نفسه إلى لذة وطاقة؛ يُشبعان إحساسه بالمظلمة.

كان هادئًا ملتفًّا ببطانيَّة؛ يظهر عليه أمارات سخونة البرد؛ جالسًا على سريره

الصغير بلون الخشب الأبيض اللامع؛ الَّذي يكاد يجد المرء عليه مكانًا يسع جسده في النوم من عبث الملابس المتناثرة في كل جنب، فلا يستبين لعين راءٍ حقيقةُ هذه الملابس تحت إضاءة لمبة تدهن الجدران بلونها الأصفر الخافت، والتي اكتملت منها كآبة المكان.

فالإضاءة الصفراء قد تزداد بها حديقة مترامية جمالًا في إنارة ليليَّة، ولكنها هنا تحدُّ رحابةَ العقل في التدبُّر والخيال.

كم من مرة أقول له أن يأتي بكهربائيٍّ. فيقول لي:

ـ الصنايعية دول أخبث الخلق، دول بيحسدوك ع الفلوس اللي في إيديك، الفلوس اللي أنت بتدِّيهاله، الفلوس اللي هي بقت بتاعته، دول كائنات مشوهة.

وها هي نوسة، تمشي بقدميها الصغيرتين، على ثنايا الملابس المتراكمة فوق السرير، بسرعة كسرعة عقارب ساعة الآلام. يلتصق بقائمة السرير اليُمنى صورة صغيرة، قُصَّتْ برهافةٍ من مجلة لجسد امرأة ترتدي جيبة قصيرة.

ولكن كانت الغاية من الصورة ما ترتديه في قدمها (شبب بإصبع) أنثوي عذب رقيق. هكذا قِيل لي. فالذي أمامي الآن إنسان آخر، فما أن سكتَ عنه الغضبُ؛ حتى أصبح إنسانًا غاية في الهشاشة والعجز. قد هدهده الخجل الشديد، والتفَّ به حزنٌ عميم... هشاشة وصلت أنَّه إذا سمع صوتًا خافتًا بعيدًا خارج البيت يفزع ويحسبه لومًا وتقريعًا على ما أُصدِرَ منه في غضبه، فهذا ما يكفيه من لوم؛ فمِنَ الجور على أعصابه أن يضاف إليه لوم آخر منطوق.

وأمامه طاولة صغيرة عليها كتاب (رياض الصالحين)، فلما أبصرته فزعتُ بشفقة كبيرة على (فؤاد)؛ أن هذا الإنسان يزعم أنَّه سيتغيَّر، وهذا هو حاله الآن؛ بعد الحماسة والأمل إلى الخور والضعف، والذي أعلم عن طبيعة نفسه أنه لن يفتح هذا الكتاب جرَّاء ما حدث، هكذا عقله وتكوينه، فكان الكتاب كملابس العيد يحتضن بها فؤادُ فتاةٍ يَنْبضُه الفرحةُ، وماتَ أبوها في ليلته.

وبجوار الكتاب (طفاية السجاير) مملوءة. لقد رجع إلى التدخين منذ ساعته، عند دخولي البيت سمعته يتحدث مع أحد، فظننتُ أن لوثةً جزعتْهُ، ولكني وجدتُ عنده صديق الفترة الحالية.

إن (فؤاد) من الذين يصاحبون كل الأجناس وكل الأعمار وكل المذاهب وكل المهن والحرف: بيولوجي أنثربولوجي ميكانيكي.

كلٌّ يأخذ فترته ويمضي، وينتقل (فؤاد) لغيره. ومع ذلك، فليس له إنسان يقال عنه: صديق بحق... كلها فترات... مع الأسف... مع كل معرفة جديدة؛ يكون هو نفسه (فؤاد) مع كل هؤلاء بنفس طباعه.

أما الطرف الآخر، فيعلم أنها فترة وستنتهي، فيتعامل مع (فؤاد) بحرص أو بعلاقةٍ لن تدوم، وصاحبنا يتعامل مع كل هؤلاء كأصدقاء مخلصين منفتح القلب، وبحماقة وسذاجة؛ إذ يُبدِّد طاقاته الشعورية في اللاشيء.

لطالما أفرط في الاهتمام والانفعال لأيِّ أمرٍ يعرض له، وأيّ موضوعٍ يتكلم فيه بحماسة، والإنسان الذي بدأ الكلام في الموضوع أصبح فاترًا، أو يرغب في

انتهاء الحديث عند منتصفه.

والغريب أن (فؤاد) ليس غافلَ الطبع، أو منعدمَ البصيرة، ولكنه من الفاشلين في العلاقات الاجتماعية على ذكائهم؛ الذي إن طربَ قلبُه بنشوةٍ ما في حضور صديقٍ يُفضي بسريرته لصديقه بأدقِّ أسراره، حتَّى يظنَّ الصديق أنَّ (فؤاد) يكذب عليه؛ لأنه يرى فيه من البصيرة ما يمنعه أن يُفْضيَ ما أفضى.

فكان صديق المرحلة الحالي، والذي يتوافق معها، هو (عمرو) لم يُكمل الثلاثين من عمره، ولكن لِشيب في شعره غزوات؛ ليست همومَ أهوالٍ، ولكنها وراثة. كان يجلس على كرسيٍّ بلاستيك بنفسجيّ، يضع وسادة خلف ظهره، قُتِلَتْ ضغطًا من مؤخِّرات الأصدقاء السَّابقين، وبيده قرأتُ سريعًا دون تدقيق: (رواية سيبوداناموس. الطبعة العاشرة).

لعلي لم أفلح في جمع حروفها، أو الحقيقة التي أُخفيها عن نفسي: أنا أعجز في قراءة العنوان... مع قيامه ليصافحني استقبلتني ابتسامته، وكان (فؤاد) نظر إلى الأرض سريعًا عند رؤيتي، ثم رفع رأسه، وقال لي بصوتٍ صاغرٍ: (طبعًا تعرف عمرو... أنا أعرفه since كانت الـ LM بثمانية وعشين)... ثم قال: (تشرب شاي معانا؟). فقبلتُ.

ومع محاولة (عمرو) البحثَ عن بداية حديث، وتردّدات ابتساماته الساذجة التي تُرحِّب بي، أراد (فؤاد) أن يبدأ بزمام الأمر معي، لعله يسمع منِّي تقريعَ لومٍ صامتٍ، ولكني لم أرسل إليه شيئًا من نفسي. فقال:

ـ الجواز دا كان في التلاتينيَّات أو الأربعينيَّات... لما أرجع البيت في يوم مطير ألاقي واحدة زي قَطعيَّة (فردوس محمد) قاعدة ع الكنبة، اللي لها كرانيش دي، وقدامها عِدّة القهوة مفحفحة، وأنام مرهقًا على رجليها، فتقول لي: (مالك يا سيد الناس). وتكبّسلي ضهري لحد القهوة ما تغلي...

وشممتُ رائحة القهوة الممزوجة براحة المطر مع رائحة التراب الرطب حين تسقط حبة المطر تفترش كزهرة على التراب... مجرد رؤيتها في قاعدتها... تحس إنها بتشفط الهم، راحت فين القطعية دي؟ كل المشاعر واوا. أي واحدة غيرها هتخبط في بوزها أول ما تدخل شارعكو. أنتوا عارفين الشوارع زحمة ليه؟ من طرطقة الأبواز برا البيوت.

بص؛ أنا نفسي أرجع التسعينيات أجيب علبة سجاير ومرجعش... مفيش فرح حضرته في قاعة أفراح أو مرّيت عليه؛ إلا وقلت في نفسي: (يا ترى كام واحد في القاعة كان مصاحب العروسة؟ يا ترى العروسة راحت لكام واحد تعزمه وتديله دعوة الفرح يدًا بيد؟)...

أنا حاسس إن جوايا حاجات عظيمة. معرفش إيه هي... والجواز هيعطّلني عنها... الناس تلت أنواع يا عم: أعزب، متزوِّج، محكمة الأسرة... بمناسبة محكمة الأسرة: بصت إلى فرشها المفروش أمام المحكمة...

(لكن أعتقد إنها مكنتش بتفتكر إصرارها النكدي في وضع حاجات معينة من الفرش في مواضع معينة في الشقة، وياما جعلت الحياة بائسة من إصرارها

الكئيب دا).

لكن هي كانت بتبص لكنبة وسط الفرش بنظرة محدَّدة... كأن عقلها الذاهل كان في حاجات تانية. يمكن افتكرت أشياء هتغيب عنها. وكأنَّها بتقنع نفسها بغياب الأشياء دي، وبتقول في نفسها: (بس ماما قالتلي استحمل... ماما عارفة كل حاجة... حتى بابا لسه مستحمل لحد دلوقتي)... عملوا فوتوسيشن وبرضو اتطلقوا...

فابتسم (عمرو) وهو ينظر بعين لامعة إلى (فؤاد)، مع أنه صديق المرحلة، وهي مرحلة التَّثقُّف والثقافة، وهو الذي سيهدي (فؤاد) لبعض الكتب والأفكار الواجب عليه الإلمام بها، ابتسم من طرافة (فؤاد).

ومن عادة (فؤاد) إذا لمسَ وقعًا حسنًا من كلامه فوق آذان ساميعه؛ ازدادَ طربًا في الحديث، وأمدَّ السامعين بالمزيد، فزادَ قائلًا:

ـ أنا هتجوّز أربعة، بيبيعوا مناديل، وهخلّي كل واحدة تمسك منطقة علشان ميتخنقوش مع بعض... أنا هتجوز عقلي... أنا عايز أشوف مِعصم (المتجرِّدة) قبل ما أموت.

إن من عادات (فؤاد) التي فعلًا حزنتُ أنَّه لم يحسن استخدامها حقًّا، فلم يطوّرها أو يتحكَّم فيها، هي موهبة أصيلة حُرِمَ منها المثقَّفون، أو ينفقون فيها الغالي لتحصيلها، ولكنها تظلّ غير ركيزة مذبذبة، يفتضح منها الشطط وعدم

الاتّساق؛ كان يمكن له أنْ يقول الشيء ونقيضه في نفس الحديث، بصورة قد تقنع السامعين بكلا الرأيين، لا من أجل غاية خبيثة، ولكن من أجل لذة الطرب التي يستشعرها أولًا، وثانيها: تمايل السامع إعجابًا بالحجج في كلامه، ثم قال:

ـ أنا هروح أعيش في قرية بعيدة عن الأسفلت، هي المدينة إيه غير زيوت الديليفري؟... المطبخ هو النيش الحديث؛ هيبقى ملوش استخدام غير حفظ المعالق. ما زال الذين شربوا من الترع أحياء أصحاء، ولَمَّا أرادوا مواكبة الحضارة بتوصيل المواسير من مياه النيل جالنا سجق في البواسير.

ما أكفر الإنسان... كلما وضع يده في مكوّنات الطبيعة أفسدها، وأفسد نفسه بإفساده... (فرح فؤاد من توافق الألفاظ معه) حتى حدايق المدينة سمجة، شيء زي القشور غير دايم ولا أصيل، وبحس إن شوية هوا هيطيروا الشجر اللازق بدون جذور فوق الأرض.

مناظر خُضرة فالصو زي الخُضرة الديكور البلاستيك في البيوت اللّي بتجيب حرّ دي من منظرها. حدايق زيّ لعب الأطفال بتتركَّب وتترفد ويدخل المساكين يتبسطوا شوية على البلاستيك المفروش، وبعد كدا يلمّوا اللعبة.

منظر قبيح لَمَّا تشوف أشجار بين الخرسانات. متعرفش مين غلط يكون جنب التاني... مش بعيد يجي يوم والناس تاخد فوَّار علشان يهضموا الإندومي، دول بيشمّوا هوا طالع من شجر بلاستيك.

فلمّا ارتحتُ وفرحتُ لمزاجه الرائق، وهدوء أعصابه... أزاح عني همَّ ملاطفته؛ فقلتُ مازحًا:

ـ أنت هتعمل إيه ولا إيه؟ ما تِرْسى على حل.

فلم ألقَ جوابًا، وقام ليرفعَ برّاد الشاي من فوق سخّان سلك حقير، قد حذّرته مرارًا من أخطار السلك العاري الذي قد ينسف المكان نسفًا، ولكنه ينظر لي كَمَنْ ينظر إلى إنسانٍ أهلكهُ التَّرفُ، ضعيف لا يتحمَّل أعباء الحياة ودواهيها.

وهو يقول:

ـ مفيش بقى غير (مواقع التحاسد الجماعي) أنسى فيها أحزاني... الدنيا كلها زي الطين، لكن التكنولوجيا سهلت الدنيا، وبقت بترسل الطين بسرعة... وبنصح العذارى نصيحة هتعرف قيمتها بعدين: حاولي تتعلّمي وإنتي فاضية الصياغة الأدبية في كتابة مشاكلك الزوجية اللي تكتبيها ع الفيس، من قبل ما تتجوّزي، علشان دا هيفيدك بعد الجواز.

١٩

لعلَّه كان يتخبَّط، ولكن كلّ هذا وافَقَ هوًى في نفسي؛ إذ تركته يأتي بكلِّ ما عنده. على أنِّي شعرتُ أنه أحسن حالًا، وأصفى ذهنًا، كالتي يشعرها الإنسان بعد انتهاء استيلاء ألم شديد في الضروس على مكامن الحسّ، فيريد أن يفعل كلَّ ما يحلو له، وكأنَّ ساعات الألم كانت تحرمه من كلِّ ملذات الحياة، وقد فاته الكثير منها، فعادَ يستلذها قبل نسيانها. ثمَّ رجع لأوَّل أمرهِ:

ـ البنت تفضل تحلم بالجواز... لأ... دا كان زمان... دلوقتي البنت تفضل تحلم إنها تتخطَّى مرحلة البكارة، وتخلّف...

(ويا سلام بقى تكون محدّدة المغفل اللي هتقلّبه في قرشين، ليه إحنا مُصرّين في تدمير طموحهم؟ من حقِّها تكوّن نفسها يا جدعان، دا القرشين دول مايجوش ربع شقاها وعرقها، وهي بتزفلط نفسها جوا البنطلون الجينز بمساعدة كيس بلاستيك، من حقّها تنزل بالعربيَّة اللي هتطلع بيها من الجوازة في منتصف الليل علشان تاكل في مطعم شيك وجمبها البامبينو)...

علشان خلاص كدا، الناس ملهاش حاجة عندها بعدما تخلَّصت من العبء العائق لها في الانطلاق. وبعد كدا هتشوف اهتمامها بالطفل؟ الطفل اللي أصبح هو الهدف من الزواج... بتفضل تقرأ مقالات وآراء عن التربية الحديثة، دا إذا قرأت، ولكنها ممكن تقرأ أول سطر من باب الموضة في مواكبة العصر...

وتؤجِّل القراءة لوقت مابيجيش. وكأن مكنش فيه تربية زمان، ولا شافت هي اتربّت ازاي، والمفروض يكون إزاي. ولا هي شافت إنَّها متربتش؟ وابنها جنبها كلّ شوية تبعده عن شاشة الموبايل.

ياااه على صوت رسايل الشات... بتفتت وتموّت القلوب الحيّة... وممكن تضربه، وممكن تحرق إيده علشان ميعملش كدا تاني... ولو محرقتش إيده، بتبعده بعنف. وهي بتقرأ عن أساليب التربية الحديثة في عصر ما بعد العلم، وابنها جنبها خايف يقرب من شاشة الموبايل... وممكن يكون ماسك سكّينة بيلهو بأحشائه، وأمه بتقرأ إزاي تربّيه.

ثم وقف يلتقط أنفاسه، وقال:

ـ على كل أنثى تتثاقف، أن تبحث حواليها عن أقرب جاهلة منها. اللي ماتعملش مع جاهلة ماشفش حنّيَّة. تتعلَّم منها الرحمة على الأطفال، تعلَّموا أيّتها المثقفات قبل فناء هؤلاء الجاهلات وفناء السر معهم، تعلموا منهم الرحمة بالأطفال، وتعلموا بساطة المشاعر وعدم وضع القيود على بذلها في أبسط أمورها... تعلموا قبل فنائهم... البركة في الجاهلات... أو استحضري رحمة جدتك الجاهلة، التي تركت فيكِ أحلى الذكريات.

هل ستتركين في أحفادكِ ما تركته جدَّتك فيكِ؟ أم سيمنعك عن رؤيتهم دار المسنين؟

فتدخَّل (عمرو) معترضًا:

ـ لا تنكر أن معرفة أخطاء التربية في المقالات مهمَّة جدًّا، وأناس كثيرة قد استفادوا لما قرؤوا. أنا مثلًا أعرف بعض المشاهير، الذين اعترفوا أنهم كانوا سيِّئي التربية مع أولادهم، واستفادوا من قراءة هذه الأشياء.

فقلتُ:

ـ كيف وصلوا لمرحلة الشهرة، وأن يكونوا قدوة لغيرهم، وهم محتاجون لشيء يقرؤونه؛ ليساعدهم على تربية أولادهم؟

فقال (عمرو):

ـ لم يُولَد إنسانٌ كاملًا، وكلّنا نتعلَّم.

ـ أيوا، كلّنا سنظلّ في التعلُّم، لكن لا بدَّ من أشياء هي أساسية قبل أن أكون قدوة... أشياء فطرية في الإنسان... لا تحتاج لمساعدة، وأبسط هذه الأشياء هي التربية. وبماذا إذن تقدَّموا وصاروا هُدًى للناس؟

قل لي ما الذي يحتاجه الإنسان في تربية طفل؟

ما الذي تقدِّمه مثل تلك القراءات في تربية طفل؟

ألم يكن هذا المشهور طفلًا في يوم من الأيام؟

ألم يعرف أحاسيس الطفولة من قبل؟

ألم يتعامل مع أطفال قبل أن يُرْزَقَ بأطفال؟

أم إنها نفوس خاوية جاءت لتقرأ عن كلِّ شيءٍ، وكأنهم لم يمروا على أي شيءٍ في حياتهم؟

كيف تربت كل الأجيال السابقة قبل كل هذه القراءات؟

قل لي: كم من إنسانٍ سيترك موقفًا ارتجاليًّا حدث بينه وبين طفله، سيتركه ليتذكَّرَ القاعدة الدراسية، أو ليتذكَّر ما الواجب في التعامل مع هذا الموقف بناءً على ما قد قرأه؛ ليتسنَّى له التعامل الجيد مع الطفل بهذه القاعدة؟

استحضار القاعدة أثناء تنفيذها يشغل الإنسان عن ممارستها فعليًّا... إنما على قدر صفائك الفطريّ... على قدر تعاملك الجيد مع الأطفال... الأمر لا يحتاج إلى عناء أو قدرات خاصة... روح تتعامل مع روحٍ، فما الجديد في هذا؟

إن قراءة كتب تربية الأطفال، مثل قراءة أنماط الشخصيات في كتب علم النفس، ومثل معرفة صفات الشخصيات حسب الأبراج؛ إن كثرة القراءة والتسليم بكل هذا، يُفسد التجربة الحقيقية مع النموذج البشري.

لقد تحدَّد في عقل القارئ ميزانٌ يراه ميزانًا جامدًا لا يحيد، حتى لو كذب على نفسه، وقال: أكيد ليس كل نموذج كما قرأت وهناك اختلافات... هو يكذب. لقد طُبِعَ في نفسه أنَّ النموذج هكذا يكون... فلن يرى النَّموذج الواقعي الَّذي يتعامل معه، لن يراه على حقيقته... سيراه كما قرأ عنه، فأصبح الناس يعيشون مع أناسٍ غير الذين يتعاملون معهم في الحقيقة...

حتى لو صدقت بعض القراءات على النموذج الواقعي، فهم أيضًا يتعاملون مع غير الذي قرؤوا عنه. آلاف البشر قد قرؤوا مثل هذه القراءات، وقد نسوا تمامًا ما المخطوط بها، ولكن غيرهم الكثير والكثير قد قرؤوا، وظَلَّ المكتوب

منحوتًا في أنفسهم... يُدير لهم حياتهم... فهؤلاء مَن أعنيهم بكلامي.

ـ أرى أنَّك ذو نزعة عنيفة، ترفض ابتداءً قبل أن تعلم.

فأقبلَ (فؤاد) على ما فيه من مرضٍ، يقولُ كلماتٍ تحيلُ بين جلستنا وبين شحْنها بالعَكِرة... ولكني كنتُ هادئًا حقًّا، وكثيرًا ما أندم على الدخول في تفاصيل المواضيع مع أنواع شتى من الناس، ومع أني أعلم أنني سأندم، ولكنني أستمرُّ في إغراء الكلام. فقلتُ:

ـ تسمح لي أن أقول لك قصة (الأُكشجين).

فضحك (فؤاد) ضحكةَ مريضٍ عليلٍ يُكْره نفسَه على مرضاةِ عُوّادِه... لقد كان على علم بالقصة، بل كان شاهدًا من شهودها:

ـ فما الناس بحاجةٍ لِمَن يهديهم الطريق الصحيح فحسب، ولكنهم بحاجة أكثر إلى مَن يمشي معهم طوال حياتهم خطوة بخطوة في هذا الطريق، وحتى إذا مشى معهم؛ فسيسأموه وينبذوه... هناك سيدة فاضلة أصيلة قد أنْشأتْ بناتها على طريقتها القويمة... وجنَّبتهم إلا الصراطَ المستقيم. وكلّ هذا معلومٌ عند جيرانها.

ومنهم سيدة لديها بنتان انسكب (الأكشجين) فوق شعريهما، حتى انتفخت أكياس القمامة لديهم بعبوات فوارغ (الأكشجين)، وترتديان البناطيل الجينز، تسوءُ عينَ الناظرين رُكَبٌ سوداء تتبجَّحُ من بنطالها المتهتِّك، وتصنّتت على صوتيهما أطباقُ الأقمار الصناعية... عند إخبارهما بألوان ملابسهما الداخلية

لشباب، وهما دون العشرين.

لقد شكَتْ تلك السيدة، التي هي أم (الأكشجين)، حال بنتيها إلى السيدة الفاضلة تريد نصيحتها... فقلتُ للسيدة الفاضلة:

(لو ذهبتِ لتعيشِي مع عائلة الأكشجين... وتقومي ببعض الإصلاحات في التربية لطردوكِ من بيتهم قبل الظهيرة في اليوم الأول، قائلين: هذا (أوكشجيننا) ونحن نعتز به... دعينا وشأننا)...

إن رؤية بعض المفكِّرين السابقين قبل ثورة الاتِّصالات أثبتت عظيمَ فشلها؛ ثورة الاتصالات ذاتها... إذ كان يعتقد هؤلاء المفكِّرون أن القاعدة من الناس تعيش في الخداع، وإن عرفوا الحقائق لتغيَّرَ الحال.

فجاءت فورة الاتصالات لتغزو كل بيتٍ مستكينٍ، وما زال الناس لا يرون أيَّ حقائق... غير أنَّ الجماهير لا يطيقون ما يُسمَّى (الوعي)... أثقل شيءٍ عليهم هو سماع مَن يعتبرونه وعيًا بالنسبة لهم... لذلك الكثير والكثير ممَّن يردِّدون يوميًّا ما يُسمَّى (الوعي)، وما يُسمَّى (الظلم)؛ هم أعمق المغفلين -وأكثر المغفلين- وفاءً للغفلة، فهذا الترداد ما هو إلا صيحات يصدعون بها أنفسهم قبل غيرهم، كأنه يقول لنفسه:

(أنا لستُ مغفلًا... أنا لستُ مغفلًا... أنا متابع وفاهم)...

فهو يعلم قبل غيره لماذا يواجه نفسه كثيرًا بهذا السؤال... وما يستدعيه هذا السؤال من ترديد كلمات الوعي... إنَّ العبيد كل شيءٍ جديدٍ عليهم يدخلون

فيه دخول العبيد، وبعد ذلك يكتسبون من غيرهم بعضَ ما يُسمَّى (الوعي)، فيتحدَّثون عمَّا يُسمَّى (الحرية).

ثم يحدث أمرٌ جديدٌ، فيدخلون فيه دخول العبيد، ثم يكتسبون بعضَ الوعي، فيكتشفون أنَّهم عبيد... ثمَّ يصرُّون بالكلام الكثير عن إزاحة تلك التهمة عن أنفسهم من قبل أن يتهمهم بها غيرهم... ثم يحدث أمرٌ جديدٌ، فيدخلون فيه دخول العبيد... ثم يكتسبون بعضًا من وعيٍ. ولا تنفكّ تلك الدائرة عن التَّكرار.

إذن ما الوعي بالنسبة لهؤلاء العبيد الأحرار؟

إن هؤلاء... إن تركتهم بغير ما يُسَمَّى (كبسولة الوعي اليومية)... سيكونون في الجانب المخالف لك، وسيكونون في هذا الجانب غير قلقين؛ كأنَّهم وجدوا أنفسهم... ووجدوا راحتهم النفسية ردّتْ إلى أرواحهم بعد طول غياب.

أما ما يُسمَّى (الوعي)... يقلقل نومهم... يقلقل نومهم؛ لأنهم ليس لهم طاقة تتحمَّل هذا الحمل من الوعي على الدوام داخلهم، فيقول لنفسه: (سآتي إلى جانبك -وهو الوعي- أثبت أنَّ لي وعيًا مثلك). ثم يتركون جميعًا... ما الغرض من هذا الوعي؟ أو نترك الذي سيؤول إلينا من هذا الوعي؛ لنتعارك في مفاهيم الوعي نفسه. إنَّهم أعجز الناس عن القيام بأيِّ عملٍ؛ إذ لا يوجد إلا طريقان: إما العمل، وإما إعادة (الإعادات المكرورات) التي لا يسأمون الكلامَ فيها خنوعًا من العمل، بل وضعها أهم المهمات قبل العمل الذي لن يأتي... متى

تنتهي (حرب الوصول إلى الصفر)؛ لنستكمل الحروب التي بعدها... يا له من (أكشجين) في الوعي.

فندمتُ عظيمَ الندمِ على كلامي. إنَّ مثل هذا لا يُقال في حضرة (سيبوداناموس). وإن حالة (فؤاد) لا تتحمَّل مثل هذا الجدال.

ولكنَّ شيئًا خاطفًا لم أستطع إمساكه على وجه اليقين قد لاح لي في وجه (عمرو)، لعلني أكون قد بالغتُ فيما شعرتُ. بدا لي أنه حين استمالَ فرحًا وإعجابًا من كلام (فؤاد) عن الزواج وغيره، لم يكن إعجابًا وفرحًا فقط... لقد شعرتُ بالشيء الخاطف بعد انتهاء كلامي، كأنه في قرارة نفسه يستعظم أن مثلي يقول هذا الكلام عن الوعي.

صحيح أن معرفتي به لم تكن إلا من مدة قصيرة عن طريق (فؤاد) الذي يصحب أيَّ إنسان لهذا البيت، ولكني تساءلتُ: (ما المستنكر داخل (عمرو) على أن أقول مثل هذا الكلام وهو لم يعرفني؟ وهل كل ما يدور في نفسي يجب أن يحصل على تقييمه أولًا؟)...

فألقى (فؤاد) بظهره فوق السرير دون استئذانٍ منا، بينما يُصارِع الحديث بيني وبين (عمرو) كانت مَن تُصارِعُ أوصال (فؤاد) في صمتٍ... قد شارفتِ الحمَّى على إخضاعه. ياللمسكين... ما درتْ (مروة) أنه يُعانيها.

وأحسستُ أن (عمرو) يرى في كلامي نوعًا من المنافسة معه، ولكن زال هذا

الإحساس، وأتاني شعورٌ آخر؛ هو أني أقوم بتهديم بنيان... لا يعرف (عمرو) البناء إلَّا في هذا البنيان... وإن خرج منه... يستجهل كل شيء من حوله... على كل هذا... شعرتُ أنه يشعر تجاهي أنني ما زال أمامي الكثير حتى أتقبَّلَ كلَّ هذا البنيان الذي أنا خارج عنه.

فقال (فؤاد) في شجن وعناد المرض:

ـ اقتربتُ من الثلاثين، ولا أملك مالًا، وكلّ حياتي مهددة بالدمار... أنا لا أُجيد فنَّ إمساك المفاتيح في يدي؛ لذلك تأخَّر غاية التأخُّر -وأحسبه لن يأتي- وقتُ امتلاكي سيَّارة.

ـ هناك أمثلة كثيرة عالمية... بدؤوا حياتهم العملية... وحقَّقوا نجاحات بعد هذا العمر... ومنهم مَن لاقى إخفاقات... ونجح... وأصبح كل العالم يعرفه مثل (ستيف جوبز).

فقلتُ في نفسي: (دا فندق سموّك).

فقال لـ (فؤاد):

ـ لماذا رجعتَ من السعودية، ولم تطل الإقامة بها؟

ـ وجدتُ بنجلاديشيين بلا سعوديين.

فابتسم وقال:

ـ ستصبح غنيًّا مع الإصرار، ولكن لا تتزوج مثلهم، زواج الكثير من الأغنياء من نساء مشاهير هو عبارة عن اقتناء، عبارة عن زيادة خانة في السيرة العملية

للغني المشهور... ترى في الأعياد... أو الإجازات الهندام المزركش لبعض الصنايعية... ونزولهم إلى السينما بعد العمل طوال السنة، وزيارتهم للأماكن المفتتحة حديثًا للفسح والتنزه...

كل هذا يشبه ما يفعله المشهور بزواجه من مشهورة، مع شعوره بالاقتناء والامتلاك... على أن هذا الامتلاك لا يكون كامل اللذة في نفسه... إلا أن تكون هذه الزوجة هي فتاة أحلام الملايين من الملابس المزركشة وغيرهم.

فأبديتُ إعجابي له عن زواج المشاهير، فابتسم في رصانة... وقال لي: (على الرحب والسعة).

ثم توجَّه إليَّ كلامُه:

ـ لقد شاهدتُ فيديو لأحد الكُتَّاب ومقدِّمي برامج التوعية للشباب، سجّله أمام بيت (جوبز)ـ وخاصة مخزنه الذي كان يعمل فيه.

جميل أن ترى المكانَ المجهولَ الَّذي انطلقت منه الآمال... فعلًا يعطيك طاقة إيجابيَّة على العمل.

بالمناسبة؛ لقد رأيتك اليوم أمام المسجد، اسمح لي أن أقول لك: أنا لا يعجبني أفكار هؤلاء الشباب... لقد تعاملت معهم... حتى أكثر الجماعات تطرُّفًا... وأهونهم فكرًا، وجدتهم ضيقي الفكر، وكثير منهم شهواني، لَمَّا مات (جوبز)، ما الداعي لفتح قصة النار والجنة؟

الله هو الذي سيحاسب الخلق. وهذا رجل نفع البشرية كلها... على الإنسان، أو على الذي يريد أن يصبح كاتبًا أن يُجرِّب كلَّ شيء في الدنيا، وهذا كان سبب انضمامي لهم في فترة ما في حياتي، وأن يُجرِّب كلَّ الأشياء في الطرف الآخر، لكن هل تعلم أن (جوبز) ندم وهو على فراش الموت على الأوقات التي أضاعها بعيدًا عن الأسرة؟

لكني أعتقد أنه لو رجع للحياة مرة أخرى، أو قام من سريره صحيحًا؛ لرجع لنفس حياته السابقة. سألني أحد الأشخاص... هو لديه الأفكار والمعاني... ويريد أن يكتبها في كتاب، ولكنه يسأم ويعجز عن الكتابة، فقلتُ له: تذكَّر نفسك، وأنت في حفلة توقيع كتابك.

أنا لستُ في حالة تسمح لي بالصدام الكلاميِّ، غير أني أقارن بين طبيعة (فؤاد) التي تُظهر أنه غير حاصل على شهادة جامعية، وبين حماسة (عمرو) له بذكر قصة (جوبز)، فلو كان (فؤاد) في حالته الطبيعية، لسبَّ جميع الناس الذين يتوافق مولدهم مع مولد (جوبز) ومع وفاته.

ـ جميل، هل لأجل أن يصبح الإنسان كاتبًا، فيقوم ويجرِّب كلَّ شيء لهذا الهدف. أم أنَّ الكاتب الذي خُلِقَ كاتبًا؛ حياتُهُ خُلِقَت استثنائية، وليس له أمْر ولا نهْي في تداخلاتها المختلفة عن حياة الناس الآخرين؟ هل عليه أن يُجرِّب الإلحاد من أجل أن يظهر لغيره أنه أحاطَ بالشرق والغرب؟

ـ لماذا أشعر أنكَ ضدّ أن يطوِّرَ الإنسانُ نفسَهُ؟

ـ الروح لا تتطوَّر، والعقل تبعٌ للروح، فإذا ما كانت الروح دائمة التَّعرُّف على نفسها، وفتح المغلق فيها، وإنارة المظلم، كان هذا له أعظم الأثر على العقل.

ـ آسف، سفسطة.

ـ نعم، سفسطة.

ـ أنتَ تسخر مني؟

ـ لا والله.

ـ أتنكِر أَنَّ العقل قادر على توجيه الروح؟

ـ كل إنسان مهما كان، تحدَّدت ملامح روحه وإمكانيَّات عقله، وهو دون العشرين، يتفاوت الناس فيما بينهم في أيِّ عمر تحديدًا... فلا شيءَ بعد ذلك يمكن أن يقوم بتطوير العقل.

تكون الأسئلة داخل الإنسان في هذه المرحلة غاية في العنف... لا يتحمَّل عنفها في أحيان، لكن كل إنسان على حسب مقدرته الفطرية. فمثلًا... حلّ شيءٍ ما أو مشكلة ما يواجهها الشاب في حياته العمرية تلك، على حسب عدد الأسئلة والاحتمالات -مع ضبط الروح لصحَّتها- تتكوَّن ملكات الإنسان... وتُفتح مسالك داخل روحه التابع لها العقل بغير إرادةٍ منه.

فإذا ما عرف شيئًا آخر بعد هذا العمر، هذا الشيء حتى وإن لم يكن له علاقة بالشيء الأول في المرحلة الأولى من حياته، فإنه يسقط في كل المسالك التي فُتِحَتْ من قبل داخل نفسه... المسالك التي فُتِحت جرَّاء جميع الأسئلة على كل

شيء قبل ذلك، وإذا لم يكن هناك مسالك، فلن تسقط المعرفة في أيِّ مكان في هذه الروح.

قل لي: أين المسالك في النفس التي تسقط فيها المعرفة؟

ـ كل شيءٍ يمكن اكتسابه بالممارسة، والعمل الدائب... حتى الموهبة... أتذكر كلام أينشتاين عن الموهبة، وأن العمل والاجتهاد أهمّ من العبقرية.

ـ جائز... وقد يكون قال كلامه هذا؛ لأن ما قلته عن المسالك في الروح، كان أمرًا طبيعيًّا في نفسه، فظن أنه في جميع الناس.

ـ لا يعجبك كلامي؟

ـ أنا لا أريد أن أقنعك بشيءٍ... إنما أبيِّن وجهة نظري فقط. وهل من دأب في العمل والاجتهاد صعد درجات في العبقرية؟

ـ بالتأكيد.

فقال (فؤاد)، وكنتُ أجهل حينها أنه كان يهذي؛ إذ لا فرق بين الهذيان وكلامه الطبيعي:

ـ كل المشاعر واوا... أنا حسَّاس وهي حساسة... وكل موقف مهما كان تافهًا لا قيمة له، بين زوجين مرهفي الحس... هو قرار مصيري... – ولكن ما من مشكلة لديَّ، أنا راضٍ؛ فالاثنان اللذان من المفروض لهما أن يلتقيا في الدنيا لا يلتقيان–

وإنْ كنتِ قد ساءَتْكِ منّي خليقةٌ ... فَسُلِّي ثيابي من ثيابِكِ تَنْسُلِ

آه... كم أتمنَّى رؤية نَصيف (المتجردة) حين وقع... خالي (شاهين) هذا من علامات الساعة المصرية... وعلامات الساعة في مصر غير علامات الساعة في أي بلد آخر؛ من ناحية البدء والسرعة والتزاحم والنوعية.

علامات الساعة في مصر بدأت من أيام الفراعنة... في مصر... الذي يزيد لا ينقص... والذي ينقص لا يزيد... في مصر يعيش الناس كل عام على أن العام القادم هو نهاية الدنيا... فهم على يقين أن لا مزيد من الكروب عن العام الحالي. حتى تفاجأت الأعوام كلها بتحمُّلنا... أنا مخلوق إنسان... وهو كعلامات الساعة... الساعة المصرية بالنسبة لي... أنت أيضًا يا (عمرو) تشعرني بالعجز بقائمتك الطويلة. أنتَ مُقتصد الملذات.

فأبانَ لي (عمرو) وهو مُبتسم ما المقصود بالقائمة الطويلة، وأنها ليست طويلة... إن ما يجعل (فؤاد) يفقد الثقة في نفسه: اعتقاده بأنه ليس لديه شيء... ولقد دار بينهما حوار متنوِّع الأغراض قبل مجيئي إليهما...

كان (عمرو) يعرض عليه قائمة بأسماء الكتب التي قرأها في السنة الماضية، فكان (فؤاد) يستحقر نفسه أمام هذه القائمة، لكنه جاهلٌ تمامًا ولا يعلم أنه جاهلٌ؛ أن غيره ممن حوت مكتباتهم معاجم اللغة غير قادر على قول واحد من أقواله العامية، لا يعرف المسكين قدر نفسه، فكان يُخيِّلُ له خيالُه أن هناك أغوارًا وأسرارًا عظيمة خلف هذه القراءات لدى (عمرو) وغيره، وأنه لا بد أن يتجاوز كلَّ الدروب التي تجاوزها (عمرو)؛ ليصبح مثله، حتى أنه يخجل من

نفسه حين يبتكر خيالُه معانيَ وأفكارًا، وكل هذه الابتكارات من عقله الفطري، والذي يرى أن هذا العقل الفطري لا يصح أمام معرفة (عمرو)، وقائمة كتبه، وأنها معانٍ وأفكار لا تصح، أو غير مستقيمة يعوزها المعرفة العظيمة الحقيقية.

عدد الكتب التي قرأها العام السابق ستون كتابًا، وقد كان يستصغرهم (عمرو) جدًّا، ويرنو إلى أن يصيروا مائتي كتاب في السنة، ويشعر بالحزن على ضعف قراءته. وقال لـ (فؤاد) من أجل أن يبثَّ فيه الحماسة في التعلُّم، أو أن يكتب شيئًا ليطبعه: تذكّر لحظة حفلة توقيعك لكتابك.

و(فؤاد) شغوف بالأدب مع زهده -بلا سببٍ- في اكتسابه، حتى هذا الشيء المشغوف به (فؤاد) قد كان لا يعلم أنه يُسمَّى (أدبًا)، فكان يرى في (عمرو) بابًا يلجه لهذا العالم، ولكنَّه مع هذا يجهل إمكانيَّاته تمامَ الجهل، أو هو يستصغرها، وليس له الجرأة على اقتحام هذا العالم، فكان إذا رأى (عمرو) أطرق يفكِّر أو يكتب شيئًا على أطراف كتابٍ يحمله، يقول في نفسه: (لعلَّه خاطرٌ مهمٌّ استوقفه، وسنقرؤه في كتابه قريبًا).

لقد أهدر (فؤاد) مواهب كثيرة في نفسه بغفلة عنادٍ منه، لو أن (عمرو)، أو غيره حكى له مختصر كتابٍ، أو فكرة تداولها التاريخ، فإنَّ في نفس (فؤاد) ما يصل بذاته إلى تفاصيل أفكار هذا الكتاب، حتى إذا ما تحدَّث يظنّ سامعه أنَّه قرأ

الكتاب كله، ولسهولة حدوث هذا الأمر في نفسه؛ اعتقد اعتقادًا جازمًا أنَّه شيء عاديّ يحدث لغيره، فكان شديد الزهد في رعاية هذه الموهبة بما يقتضيها.
وممَّا أفقده الثقة في نفسه؛ أنَّه يعتقد أنَّ للأمور الثقافية مجرى آخر، وخطوات محدَّدة بعينها؛ خطوات كأنَّها مرصوصة في كتابٍ ما، كتابٌ بعيدٌ عن متناوله هو لم يقرأْه بعد... وأن كلَّ مَن يتكلمون بثقةٍ عن الكتب قد قرؤوا هذا الكتاب، ووعوا جيدًا كلَّ سطرٍ فيها؛ فيحقّ لهم أن يفعلوا ما يفعلون في الفكر، وفي الثقافة، وفي حياة الناس كلها.
لم يَدْرِ (فؤاد) أنَّه لديه من الثقافة النفسية (طريقة النفس فطريًّا) ما يزيح عن نفسه الخوفَ أنه جاهل أو بعيد عن هذا المجال، دائمًا يقلل من إمكانياته. كان منعدمَ الثقة في هذا الجانب، على أنه شديد الثقة بأنه قادر على إمتاع نفسه ذاتيًّا بهذه الأشياء.
وممَّا أخبرني به (عمرو) بعد قائمته الطويلة أو القصيرة، أنه عضو في جروب (حسّاسين العرب)، فأراد أن ينقل لي اقتباسًا من هذا الجروب العظيم، ووصف مقولته بـ: (راقت لي).
وحين سمع (فؤاد): (راقت لي). همهم قائلًا بصوت ضعيف: (هو يكره: راقت لي، أنا ممتن لك، شكرًا على مرورك العطر، دمتم بخير، شغف، إحساس راقٍ والله). فتساءل (عمرو): ما الذي قاله صاحبه، فقلتُ له: (يداعب صاحبته نوسة).

كنتُ أعلم أن الحديث بيني وبين (عمرو) يمكنه أن يظل أسبوعا كاملًا، فبعد أن اطمئنَّت روحي على صحة (فؤاد)، وهو في هذا المشهد المؤلم بعينٍ مُنتفخ أسفلُها، وضمَّ شقَّ شفته السُّفلى لزقةٌ طبية، وبعد أن علمتُ أن (عمرو) سيظل معه طوال الليل في سهرةٍ أدبيةٍ، استأذنت منهما لأصعد إلى حجرتي العزيزة التي باعد بيني وبينها شقاء هذا اليوم الطويل.

فلا أدري كم مضى من وقتٍ وأنا جالسٌ على سريري، لم أخلع عني ملابسي، أُفكِّر في تسلسل هذا اليوم المشحون، ولا أدري ما الذي في عقلي العفن؛ ليتذكَّر في تلك اللحظة رائحة قدم (كامل)، ونحن في محل للملابس حين خلع عن قدمه حذاءه؛ إذ كان في انتظاري على المقهى مع صاحبه (رُمَّانة) القهوجي.

فبعد أن انتهت نوبة الصرع لدى الأخير... ذهبنا معًا بعد اتفاقٍ بالأمس على هذا الأمر، أراد كعادته أن أختار له بعض الملابس التي -أيضًا- لا يشتريها، ولكني كنتُ في غاية الحرج؛ إذ مع كل خطوة يطبع بقدمه الحافية عرقًا على الأرض برائحة نفّاذة أفقدتني صوابي.

لقد كدتُ أتراقص كبهلوان؛ لألهي الباعة في المكان عن تلك الرائحة التي يُغشي الأعينَ ضبابُها، لم يكن في خيال أحد من العالمين أن (كاملًا) سيكون زوج (مروة) الحقيقي... وأنا مع الرائحة النفاذة في هذا الوقت تحديدًا تمت خِطبة (مروة) لـ (مُنذر)...

فقطع تسلسل أفكاري صراخ (عمرو)، صراخ مثقفين خافت مرتعش أوتارُه،

كأنه صوتٌ لأول مرة يعلو عن مستواه الطبيعي... كصوت سيارة تدور بعد طول ركود سنين... فأخرجت الكاتمات من الشكمان على دفعات متقطعة... وسمعتُ صوت ارتطام بعض الأشياء، فنزلتُ عَجِلًا، فوجدتُ (فؤاد) ثائرًا عنيفَ الحركة وكأدًا قيده (عمرو) بين يديه، ونزع المُقيّدُ نفسَه من بين يدي صاحبه بقوةٍ، ولكنه لم يتماسك، من عقله المكتظ بالدوامات، وإرهاق المرض.

أراد أن يستند بالطاولة فسقطت به، فوقع كتاب (رياض الصالحين) على الأرض، وتناثر من حواليه محتوى طفاية السجائر، فأسرعتُ في حمل المسكين بجوار نوسة على السرير، المسكينة هي الأخرى التي تنظر ولا تفهم، فعرفتُ بعدما خرَّ (فؤاد) مهدودًا مُمدَّدًا من صاحبه؛ أنه قام فجأة يطيح ويضرب الهواء، ويسب ويلعن خاله (شاهين) وأباه على ما فعلوه به طوال حياته.

وآخر ما سمعته منه بصوتٍ واهنٍ وأنا أضعه فوق سريره: (أنا كمشبك غسيلٍ سقطَ من يدِ ناعمةٍ على الأرض تتناوبه الأرجلُ دهسًا بعدما كان يحتضن الساتان والشيفون)... ثمَّ أخذ برأسي يدنوها من فمه.

وكان (عمرو) بعيدًا عن السرير يلتقط الأشياء المتناثرة من الأرض. وقال بصوت لا يكاد يُسمع، وهو يُشير بعينه إلى (عمرو):

ـ حقيقة كلِّ شيءٍ هي أدْنى مما تراه وتهوله... هذا يخاف أن يترك أمره بيده، يخاف أن يترك هو والفراغ في مواجهة، يخاف قيادة هذا الفراغ، الحرية هي أكثر

ما تزعجه. لا وعي إلا القوة... وكل حرية جديدة هي ضمور في النفس... وكل المشاعر واوا... وكل الكلاب أتوا في عصرٍ أعيش فيه.

وبعد أن التقط أنفاسه:

ـ أتعرف لماذا لا تؤثِّر فيك المشاعر العظيمة، أو الأفكار العظيمة التي تسمع عنها، كما تؤثِّر بي، كأنَّك إنسان بارد؟

ـ لا.

ـ لأنَّكَ فكَّرت في كل هذا مسبقًا، فيسمع غيرك هذا... فينبهر ويشتدّ حماسة وطاقة، أمَّا أنت... فتسمع... فتزيد خمولًا ويأسًا.

ـ وكيف عرفت هذا؟

ـ أنت شغلي الشاغل... أحاول أن أتمثَّل بكَ فأفشل.

ثم قال:

ـ أنتَ لا تنتظر من أيِّ مكان أن يكون مهيَّأً لك، وإنَّما أنتَ تتهيَّأ في داخلك بما يجعلك تعيش في أيِّ مكان.

٢٠

تركته مع الهذيان... فاللغة الجادة التي تخرج من فم (فؤاد) هي الهذيان الحقيقي... وخرجتُ هرولةً تضطربُ بيَ الفزعُ من تقلُّبات (فؤاد)؛ لأجلب له بعض المهدِّئات، أنا لم أره ضعيفًا مقهورًا قبل ذلك.

وعلى ما أنا فيه من قلق واضطراب... لا أدري ما الداعي أن تُقام المقارنة في نفسي بين صيدليتين... فالأمر لا يحتاج كل هذا. الأوْلى أن يكون أقربهما، وفي ومض البرق دارتْ في نفسي معارك لأيهما أذهب... وبما أن موسوعة جينيز قد امتلأتْ صفحاتُها بإنجازات العرب، واضطرهم تكدس الإنجازات في الكتابة على غلاف الموسوعة الخارجية.

فهذه صفحة تتكلَّم عن أطول عَلَمٍ في العالم، وصفحة أخرى تتكلم عن أكبر طاجن كبسة في الكون... أما هذه الصفحة لأكبر قُرص طعميّة عرفته البشريّة... وصفحة لونها (بينك) تتحدَّث عن مطرب قدوة للنُّطف القادمة... فإن هذا الصيدلي لطالما حوَّطني بأكبر علكة (لِبان) في تاريخ البشريَّة، قد تمَّ مضغها من نساء قد اختيروا بعنايةٍ للمهمة المقدسة؛ هنَّ كلّ امرأةٍ من كل شارعٍ وزقازقٍ في مصر، يتشاورنَ في كشف غموض نميمة ما.

وقد مُضِغَتْ جيِّدًا تلك العلكة بأضراس هاتيك النسوة (تيك تاك توك) أثناء الكشف عن الغموض، وأنا التصقتُ بها كذبابة... فكلَّما نزعتُ عضوًا التصقَ

آخر، كلّ هذا من آثار لزُوجة هذا الصيدلي على نفسي بابتساماته المؤلمة والدائمة مع كلِّ حرفٍ لزج؛ فلو تحسَّستُ جسدي بعد محادثته لانزلقتْ يداي من مخاط لُزوجته... ويختم كلامه: (شرفتنا يا فندم).

أما الصيدلي الآخر؛ إذا ما طلبتُ منه دواءً، ولم أجد إلا البديل، فخرجتُ بغير شراءٍ. وذهبتْ حرارة إقناعه لي سدًى في الرضا بالبديل... حينئذٍ شعرتُ بأنِّي أهدرتُ سنين دراسته العصيبة في الصيدلة، وجفوتُ بقسوتي على كلِّ (مجَّات) القهوة التي انسكبت على أوراقه في لياليه التعليمية، حتى أنِّي أشعر بخيوط نظرته اللائمة تقرع قفايَ في كل خطوة وأنا أمشي خارجًا. وصندوق الصيدلي منّي صفر الوِطَابُ. وأردُّ على كل خيطٍ قد التصق في قفاي بشعورٍ يقول: (اعذرني... ليس لي ذنب في الشركات العابرة للمجرات التي تراءى لها إنهاء اختبار الدواء على كائنات العالم الثالث بعد ثبوت نجاحه)...

لو كان هذا فحسب... لهانتْ... ولكن اشتعلَ التأنيبُ بالضمير... لقد سمحتْ نفسي المغرورة لحاملها المتعالي التيَّاه؛ أن تتجرأ على إرهاق الصيدلي، وإجباره بفظاظتها (الفظيظة)، بأن يقوم من مكانه ليقنعني بالبديل. يا لوقاحتي... فاخترتُ اللزوجة مع الاستعداد لما سوف يلتصق بي منها، فوجدتُها مغلقة، فآلَ الأمرُ إلى تأنيب الضمير.

ولكن بين هذه وتلك، كنت أمرُّ سريعًا بين عوائق الطريق من السيارات الناعسة على جانبيه، فجاءتْ سيارةٌ لعينةٌ مُسهَّدةً، ضاقَ عنها المكان بأرقِها،

والمساحة التي يُفترَض أن أمرَّ منها؛ تسع إنسانًا ونصف إنسانٍ، فرأيتُ شابًّا قادمًا، وبالحسابات الفلكية تأكَّدتُ أنَّنا سنلتقي لنتقاسم ذات المساحة...

(لا أدري لهذا سببًا واضحًا منذ مولدي؛ إذا أقبلَ إنسانٌ من أمامي، وآخر من الخلف، تلاقينا ثلاثتنا في محاذاةٍ على خطٍّ عرضيٍّ، بشكل دائم التكرار، مهما أسرعتُ أو تريَّثتُ، وعلى حسب المساحة لنا كلنا؛ أنا الذي أتفادى كليهما)...

وكان من البيِّن في هذا الشاب؛ لم يزل عنه إحماء الجيم، كان منفوشَ الذِّراعين من انتفاخ (المجناصين). علمتُ إحساسَ كلِّ إنسان في الحياة جاء الدنيا ولم يأخذ نصيبه... لم يرضَ، أو أنا لم أستحقّ من وجهة نظره أن (يُفسِّي فردة مجانص واحدة) لأخيه الإنسان.

فأخذتُ أقلَّ من مساحة (النصف إنسان) التي تركها لي فضلَةً؛ أخذتُها مُلتويًا بجِذْعي، مُنْعرِجًا بإذعان. ولكنِّي دائمًا أعطي الأعذار... فهي من الإحسان: (أكيد خايف على سُمعته في المنطقة).

ما حزنتُ... فإنَّ نصيبي الحق كان ينتظرني، بعدما نزلتْ، عن يساري وفي محاذاتي، سيدةٌ من إحدى السيارات الناعسة... لم أرَ منها إلا خيالات. تحمل حقيبةً... لعلَّها كانت جديدة وفارغة، فلمَّا ألقتْ في جوفها المفاتيح؛ سمعتُ صوتَ ارتطام مفاتيحها بقعر حقيبتها أو بقعر جمجمتي فهمْ سيَّان...

فامتلأتْ فراغات الكون إحساسًا بالأنوثة من ذاك الصوت... إنَّ فيه ما فيه من الأنوثة. فقلتُ في نفسي: (ما هوَّةُ اللعنةِ في ذاك النصيب؟)... صوتٌ كأنه

كعبٌ عالٍ ينقرُ بنغمةٍ -فوق بلاطٍ- ليس لها ترجمان في العالمين يعي هتافها إلا آذاني... ولكنه لم يأخذني من (فؤاد)... ولكن نصيبي لا ينتظر طويلًا... فهو مَعقودٌ أبدًا كَعُقد السحرِ فوق جناح طائرٍ أهوج، ووقت استحواذي عليه هو مُدة مرور الطير من فوق رأسي.

في بلادنا، مَن يشتري سيارة، قد اشترى معها كل الأرض التي ستطؤها سيارته؛ فإذا ما جاء أحدهم من أيِّ اتجاه لي، وعينه على مكانٍ آخر في اتِّجاهٍ مختلفٍ عن الأول، وأنا عائقٌ بين الاتِّجاهين، أو عائق لعين أمام ركنة سيَّارته، حتى لا أكون متجنِّيًا عليه؛ فهو لا يراني.

وَوَجبَ عليَّ أنْ أزيح من نفسي كلَّ طاقة سلبية وميتافيزيقيَّة تُعيقني عن الطيران كي أطير من أمامه محلِّقًا في السماء، وإن كنتُ ليس لديَّ الموهبة في الطيران، ولم أحضر محاضرات إزالة الطاقة السلبية بواسطة سويت بالعسل الأسود، وإزالة الطاقة السَّلبية الموجودة في زوايا غرفتي بماء المازورد، فليس أمامي غير أن أعدو عدوَ الكلاب، ومن قبل عَدوي يجب أن أعتذر له: أنا آسف أني خُلِقتُ... فكنتُ عائقًا لسيارتك لبضع ثوانٍ.

٢١

يترامَى بين أحضان أبويه... ترامى كهُدَّابِ الدِّمَقْسِ المفتَّلِ بأيدي العذارى يومَ دارةِ جُلْجُلِ. فإذا لم يلقهما أمامه عند دخوله البيت؛ نادى باحثًا عن (الحاجَّة)؛ لينغمس في أحضانها: (بحبك يا ستّ الكلّ).

وعلى يد الوالدِ بإجلالٍ ينحني: (ربّنا ميحرمنيش منك يا حاج)... يُلقي كلماته باللين الطافح الرخو السائل المُنزلق المشهور به... قلّما، بل من النادر... وقد يكون محالًا أن يدخل (ماهر) بيته... ولم يقبّل كلتا يديهما... إن أوقات الماتشات هي من النادر الصعب.

وجدَ والدَه جالسًا في صالة البيت أمام التلفاز ينتظر المباراة على كنبته المفضلة وقت المشاهدة، فألقى (أحمد ماهر) السلام بعد الرجوع من درس الشيخين: (السلام عليكم يا أبتِ)...

إن أكثر ما يميِّز الحاج (ماهر)؛ هو نظرة عينيه، نظرة تشِعُّ تَسْبيلًا وعطفًا وحنانًا. فهو رجلٌ حبّيبٌ قديمٌ، فلعلها نظرةٌ من نظراته القديمة في التسبيل قد صُوِّبتْ منه بإتقان، فعَلقتْ عينيه حينئذٍ إلى يومنا هذا على هذا التعبير.

لكن تلك النظرة مع ما تمتلكه من هذه التعبيرات الثابتة أبدًا مع كل مواقف الحياة؛ مهما كانت درجة المواقف في الغليان أو اللين، إلا أنَّها كانت تعبِّر عن شيءٍ آخر في تلك اللحظة، تبادل الأب مع ابنه النظرات؛ كتلك النظرات التي

تحوي الكثير من الجدالات التي قد دارتْ بين صاحبيهما في الماضي، على ما تحتويه من كلِّ تلك التعبيرات؛ فإنها تحتوي على عنصر جديد هذه المرة، عنصر يشبه نوعًا من السخرية؛ التي تكون في نظرة أخٍ كبيرٍ قد أنهى مراحل تعليمه كلّها، لكنَّه ينظر ببعض السخرية الخفية للذة دفينة داخل النفس: (قد انتهيتُ نهائيًّا من الحياة الدراسيَّة ولياليِ امتحاناتها الكئيبة الملعونة).

هذه هي نظرة الأخ الكبير إلى أخيه الأصغر الذي سيصطبح باكرًا بغمٍّ أسئلة الامتحانات، وببؤس العبوس؛ وجه المراقب... ولكنها لا تخلو من عطف وشفقة على الصغير... فكانت نظرة الأب فيها بعض الشفقة على ابنه، الذي اختار الطريق الصعب (من وجهة نظر كليهما) في تحقيق الدين. فما أكثر الجدالات التي دارتْ بين الابن يقنع فيها الأب بالبعد عن هذه المباريات، التي تلهو بعقول المسلمين، وتشغلهم عن طريق الأمجاد، وإعلاء كلمة الدين بين الناس...

فكاد الابن يغمض عينيه من نظرة الوالد المستمتعة والمستلذّة والمسترخية في انتظار بدء المباراة... فلم يسمح لوالده أن يعيد عليه محاولاته في أن يظل معه يشاهد المباراة، هرول (أحمد ماهر) إلى حجرته، وأغلق من خلفه البابَ في ذات اللحظة التي أطلق الحكم فيها بدء المباراة.

فإن كان الوالد يستمتع بنغمته الصافرة -التي هي كعملية قسطرة عاجلة دقيقة الجودة لرأْبِ الصدْعِ في قلوبٍ قد شحّمها الكولسترول: هي قلوب المشجِّعين

في انتظارها- مع كوب اليانسون الذي يوصّي به عطّارَه؛ بصوتٍ يدلُّ على أنها مخدرات، مخصوصًا في الليالي الشتوية الباردة، فإن مباراة عظيمة (قد ندم عليها الابن بعد ذلك أشد الندم؛ بأن حياته قد ضاعت هدرًا) كان يدور رحاها بين الابن وبين أعضاء آخرين؛ أولها: نفسه. وثانيهما: صوت شيخه الذي لا ينفك يطارده.

وما زال (أحمد) خلف الباب بعد أن أغلقه، مُسْتندًا بظهره إلى ظهر الباب... ماسكًا مقبضه، واضعًا رأسه بميل على ذات الباب، يغمض عينيه كأنه يتألم من ألم لا يستشعره أحدٌ في العالمين مثله؛ مع شعوره بأن صدمة عظيمة جليلة قد وقعت على مستقبله (صدمة كالتي تستشعرها إحدى الفتيات، بعدما كانت تكراش على شاب عامًا كاملًا، ثم علمتْ أنه خطب أعزَّ صديقاتها... مع صدمتها تلك؛ قد اكتشفتْ أنها لم تحبّه أبدًا... وكل هذا حالة عاطفية ما، ولكن الصدمة في أن صديقتها كانت تعلم أنها تكراش على الذي أصبح خطيبها، وأيضًا لو كان قد خطب غير صاحبتها لم تكن هذه الصدمة بهذا التأثير؛ لأنها لا تبيتُ ليلةً بغير كراش).

وما زال (ماهر) يلتصق ظهره بظهر الباب، والكرة بدأت تتنقَّل بين أرجل اللاعبين الشرفاء في المنتصف (كما يسمونه تحضيرًا: وهذا التحضير يظل طوال المباراة من أجل هدف يأتي بالخطأ، فما أصبرهم).

فنادى الوالد بصوتٍ عالٍ فيه بعض الزهو وهو ممسكٌ طرفَ جلبابه المرفوع عند منتصف الساق بقدمه المستقيمة فوق الكنبة: (تعال يا أحمد اتفرج).

فيرد الابن على أبيه، لكنه يصطنع صوتَ مَن هو بعيدٌ عن الباب غير ملتصقٍ به: (لا يا أبتِ أنت تعلم)... فيردّ الوالد غير مبالٍ وهو يرفع طرف جلبابه من فوق ساقه؛ ليكشف عن كلسونه العسليّ المتغلغل فيه بعض الشعيرات، والذي يستمتع مثل مرتديه بالمباراة: (براحتك).

ثم مشى الابن مسرعًا إلى سريره، فألقى بوجهه بين الوسادات، كالتي تتألم من آلام الطلق... إذ إنَّ: القَرن طشش، والتعلب فات فات وفي ديلو سبع لفات.

ولكن الابن سيتبرَّأ من هذا الجنين بعد ذلك؛ فهو ابن سفاح، بل وسيصل أبعد من ذلك بكثير، إنَّ صوت الشيخ يتردَّد في نفسه -كأنه سمَّاعات في قاعة أفراح مغلقة، والنسوان تركنَ أزواجهنَّ ليمتعنَ المدعوّين بهزِّ كلِّ ما له أن يُهزَّ، فلا شيءَ اليومَ على الجمهور يُعزّ- يتردَّد في نفسه كلها؛ يمنعه من أن يلين أو يضعف لصوت المباراة... صوت المباراة الذي جاهدَ جهادًا عظيمًا في عدم سماعه. واخيبتاه: سيصبح الابن من أكبر المنظِّرين لكرة القدم... التي انصرف عنها قلبُه. أو كان يزعم أن قلبه مصروفٌ عنها. ولكنه لن ينظّر للشّيخ الذي صوته ملء نفسه. أيهما كان أصدق في نفس (ماهر)؟

يعضُّ بأسنانه طرفَ الوسادةِ كَمُسْتهامةٍ أَضْوَى بها غُصَص النّوى لَّما لَذَعتها النسائمُ من نحو الحبيب.

فإن كان التحضير للمباراة التي يشاهدها الوالد يظل على مدار الساعة والنصف، فإن التحضير للمباراة التي تدور داخل الابن قد اشتعل وطيسها كحرب داحس والغبراء. فها هو يتقلَّب مع صوت معلِّق المباراة على ذات اليمين وذات الشمال... (ماذا بك لكلِّ هذا؟ هل يؤلمك ضرسك؟ فهل أنت في غابة مليئة بالثلوج، وينبض في كتفك جرحٌ غائرٌ إثرَ انفجارٍ هائلٍ تحت قصف في الشيشان؟ اثبتْ يا رجل... إنَّما النصر صبر ساعة، والماتش ساعة ونص).

أخلقًا آخر أرى غير الذي أمام المسجد رأيته؟

وما زال يغوص بوجهه في وسادته، وفي قرارة نفسه، إذا ما رفع رأسه، رأى المباراة على الجدار بجوار آية الكرسي المعلّقة المكتوبة بأعواد القمح الصفراء، فقام وجلس مربعًا على سريره، وما زال يغمض عينيه، فمدَّ يده إلى مكتبته الصغيرة، فسحب كتابًا، فوضع إحدى الوسادات فوق رجليه، ووضع الكتاب عليها وفتحه، ثم مال برأسه قبل أن يفتح عينه على الصفحات المفتوحة بين قدميه، فإذا به بين سطورٍ في كتاب (سير أعلام النبلاء)، تقول السُّطور داخل المجلد الرابع: ??? ????? ???????. (عذرًا... فما زالت الكلمات مُشفَّرة بفعل المباراة وصوت المعلق المؤثِّر؛ بسطوتهم على كلِّ منافذ الوعي لدى الابن، وقد بَذَلَ هوالك الجهود في فك الشفرة).

وبعد لأْيٍ بعصفٍ في استجماع التَّركيز ظهرت الكلمات، لكنَّها متماوجة وغير واضحة، كأنها رؤية من خلف عيون متغرغرة الدموع لسيدةٍ مات زوجها، وقد

كان لها جبلًا تلوذ بظلِّهِ... فلم تُيئسْ (ماهر) غشاوةُ غرغرةِ العينِ. وأخيرًا ظهرت الكلمات:

(عن أبي الأسود، قال: يا نهار أبيض، مش ممكن، عملها حلوة قوي قوي قوي وحصلت لخمة في خط الدفاع. يا ولد يا ولدع العرضية الجميلة... كان أبو سَلَمَة مع قوم، فرأوا قطيعًا من غنمٍ، فقال أبو سلمة: اللهم إن كان في سابق علمك أن أكون خليفةً... فاسقنا من لبنها، فانتهى إليها... فإذا هي تيوسٌ كلها... قال عمرو بن دينار، عن عائشة: أنَّها قالت لأبي سلمة وهو حَدَثٌ: إنَّما مثلك مثل الفروج يسمع الديكة تصيحُ فيصيح).

فتذكَّر (ماهر) السّباب الذي سمعه من (فؤاد) فتعصَّر قلبه، وتذكر الكيكةَ التي أفسدها في حلمه؛ فشعر أنَّ رؤوس الهموم كلّها مُشرفات، وطوارق الأحزان يتكالبنَ عليه في ليلة واحدة حتى حوافر التيوس، وقد وقعت منه ورقة فيها آخر أشعار (ع ي س)، وهو يمد يده يجلب كتابه من المكتبة، أخذها منه ليحاكيها، وخاصة أنها تتمتّع بحميةٍ عربيةٍ أصيلةٍ، كان من العجز أن يقوم من مكانه ليلتقط الورقة الجليلة من الأرض.

لم تفلح محاولة (سير أعلام النبلاء) في إزالة المباراة من فوق الحائط، الَّذي طالما تغنّوا حسرةً بها داخله قائلين: (هؤلاء هم الرجال؟ أين نحن وأين هم؟)... ثمَّ يبكي... وتنتهي الليلة بعدما بلَّلت الوسادةَ دموعٌ على الرجال.

فخطف نظرةً سريعةً جدًّا؛ حتى لا يلاحظ الجدار الذي تُقام عليه المباراة؛ ليأتي بكتاب (رياض الصالحين)، فتح الكتاب؛ وإذ به يقرأ: **(لَعَنَ اللهُ الْوَاشِمَاتِ وَالْمُسْتَوْشِمَاتِ وَالنَّامِصَاتِ وَالْمُتَنَمِّصَاتِ وَالْمُتَفَلِّجَاتِ لِلْحُسْنِ الْمُغَيِّرَاتِ خَلْقَ اللهِ)**.

فما أسرع وُغُول (ماهر) في غمرة الأحلام، خاصةً إذا ما ترَهّقتْهُ الأفكارُ التي يخفق في جمع خشونة زمام أولها من آخرها... وتجرح... ولا تتحمَّلها نعومة رقته... رأى أنه دخلَ متاهةً عظيمةً، تشبه متاهات الحدائق في القرن التاسع عشر، كلَّما مشى في خندق إلى نهايته... ظن أنه سيخرج... وجد نفسه في متاهة أخرى، وطوال مشيه كان يشعر بوخزٍ خفيفٍ في جنب وركه الأيسر كوخز الإبر، وكلَّما دخل متاهة جديدة يشتد عليه الوخز، حتى أصبح لا يطاق.

وفجأة... شعر أن جسدَهُ يكبر ويكبر، والوخز يكبر معه، فأصبحت المتاهة تضيق عليه، وكان يراها وهي أسفله تصغر عليه، وقبل أن يكتمل على صورته الحقيقية؛ إذْ كان بحجم قزم من دُويْبةٍ تمشي متغلغلةً في ثنايا وشم مرسوم على جنب ساق إحداهنَّ، رأى أنَّ الإبرة التي كانت توخزه؛ هي قرْن أحد التيوس الذي كان أصله من الأغنام.

فأفاق مذعورًا ترتعش أركانه. وقبل أن يستعيد كامل وعيه، رأى شيخه يجلس بجوار المعلّق في الكبينة على الجدار، يحاول أن ينتزعَ منه الميكرفون، وأخيرًا

تملَّك الشيخُ منه، وقال بصوت يرجُّ الملعبَ كله: (لا تسمعْ له يا ماهر، اثْبتْ أنت على الحق).

واحتلّت المباراة اللعينة الجدارَ كلَّه بعد اختفاء الشيخ، وترك (ماهر) وحيدًا في أرض الظلمات، وزاد عليها مطاردة نِطاح التيوس له، والدوار الذي أصابه من متاهة وشم الساق، وأيقن ألّا مخرجَ له، وأن الخِناق يتضخَّم، وصار (سير أعلام النبلاء)، و(رياض الصالحين) أغلالًا أخرى غير جدار المباراة.

ومن النقائض في نفسية (ماهر): التلذذ بالسطور المكتوبة في (سير أعلام النبلاء)، وكتب السلف الصالح، هي نفس النفسية التي تتلذَّذ بصوت هذا المعلِّق تحديدًا الذي يعلِّق على المباراة... ما هذا؟

إن المرء الحسيس قد يحرم نفسه من الذهاب إلى رحلةٍ لطيفةٍ قد لا تتكرَّر؛ لأنَّ من بين الذَّاهبين مَن كانت رؤيته، أو صوته يعكِّر المزاج، بل سيجعل ذكرى الرحلة ذكرى بائسة. إنَّ من الناس مَن يمنع عن نفسه ملذَّات هي في الحقيقة نِعم الملذات؛ تحاشيًا من أن يُنَغِّص عليه في هذه الملذَّات بغيضٌ كريهٌ يراه حينئذٍ...

إذن... لدى (ماهر) مشكلة في تعريف: مفهوم الملذَّات ذاته، ومفهوم معنى البغيض، ومفهوم حقيقة العذاب الحق الذي يعذِّب النفس... فمستوى الملذَّات منحطٌّ. واتَّسع مفهوم البغيض؛ وَسِعَ حتَّى لم يعدْ بُغَضاء أو أعداء يؤذون النفس... إنَّ صوت هذا المعلق تحديدًا يُعذِّب النُّفوس الحرَّة الأبيَّة؛ التي

هي قلَّة قليلة في هذه الدنيا، القلَّة التي هي من قلَّتها قد لا تلتقي بأحد منها في دنياك.

توصّل عقله المنهَك من صوت المعلِّق العَذْب على قلبه؛ لحلٍّ قد يقطع عنه عذابه، أن يأتي بشيءٍ يسدُّ به خَلَلَ الباب من الأسفل، فخرَجَ من غرفته؛ ليذهب إلى المطبخ.

إنَّ (ماهر) ليس كإبراهيم -عليه الصلاة والسلام- ليكسر جميع هذه الأصنام، وإنما يعلم (ماهر) أنَّنا في المرحلة المكّيَّة التي لا تنتهي (المرحلة السرمديَّة التي إن تقلَّب الرجلُ في المناهج والاتِّجاهات الفكرية الشديدة التباين، تقلُّبًا رأسًا على عقب؛ ستظل المرحلة المكيّة هي أوْلى أوليات أيِّ منهج من المناهج التي يعتنقها؛ وحتى لا أكون قد جانبني الصواب؛ فهناك من المذاهب ليس في أدبياتها لا مرحلة مكيّة ولا مدنيّة، فهم فوق مع الله. آسف؛ فهم في كل مكان مع الله، فهم ليس لديهم أي إشكال مع العَالم إطلاقًا، إنما غُصَّتهم التي عكّرتْ عليهم كلَّ المشارب: هم بنو جِلْدتهم)...

فيعمل (ماهر) جاهدًا مخلصًا دائمًا وأبدًا بما تقتضيه هذه المرحلة من سلوكيات وردود أفعال؛ فصبرَ على أبيه في الدعوة، كالصبر على العادات الجاهلية في المجتمع الجاهلي، ومن المؤكد أنه لم يفرض على أبيه أن يخفض صوت المعلق من باب: {فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ}.

ولكنه طالما نصحه قبل ذلك... فوجدَ أمَّهُ في المطبخ تُعرِّي عن بعض البرتقال

قشورَه للأب المستلذّ بالمباراة؛ فتعمَّدت الأمُّ إزاحةَ تَلاقِي عينيها بعينِ ابنها؛ فهي تعلم حالته الآن، ولا تريد أن تحطَّ عليه أثقال الهموم الجسام، إنه فلذة الأكباد.

ولكن كان يدور في نفسها: (يا ابني، الدين يسر مش عسر، وبعدين أبوك مابيعملش حاجة حرام، وإذا كان على المشاهدات المتبرّجات في المدرجات غمّض عينك أول ما الكاميرا تيجي عليهم. أو ممكن نحط بلاستر على الشاشة في موضع المتبرّجات).

ولم يرفع (ماهر) عينه عن الأرض باحثًا عن شيء يسدُّ به خللَ الباب، فقالت له أمه بصوت شَفُوق: (ماذا تريد يا ولدي؟).

قال: (أي جلباب قديم).

فأشارتْ إلى زاوية المطبخ... فأخذَ (ماهر) ما أخذَ، وقبل أن يدنو خارجًا من باب المطبخ، رجع مسرعًا ملهوفًا ينحني ويقبض على يد والدته، حتى أنها شعرت بالذعر من حالة ولدها. وقالت في نفسها تدعو الله: (يا رب... كُن مع ولدي).

فظل ماسكًا يدها، وناظرًا إلى اليد ذاتها ما يقارب الدقيقة دون التفوُّه بكلمة، ثمَّ رفع يدها، ووضعها على رأسه، وقال: (اِرْقيني يا أُمِّي... إني بحاجةٍ إليكِ).

فابتسمتِ الأم الشفوق... إلى أن انتهتْ من رقيتها... لم يرفع (ماهر) عينه إلى عينيها، ولكنَّ عينيه كانتا في مستوى طبق البرتقال الخاص بالكلسون العسلي

على الرُّخامة، فأخذ يَعدُّ حبّات البرتقال؛ ليلهي نفسه عن النظر المباشر لوالدته، وتذكَّر من أين يجد تلك التي تُقشِّر هذا التقشير؛ ليتزوَّجها؟

لكن... ما حدث كان عجيبًا؛ خُيِّلَ له من ظلال أحد الأشياء في المطبخ الواقع على البرتقال أن شبحًا صغيرًا بحجم أصبع اليد يتراقص فوق إحدى البرتقالات... سمع صوتًا كصوتِ وقْعِ حذاءِ عجزاءَ، يحتكُّ بالأرض كثيرًا قبل تنقُّل خطواتها من أثقال عجيزتها، سمع ذاك الصوت كسماع الميت آخر خطواتٍ لآخر ذاهب عنه من أمام قبره.

سَمِعَ: (يا نهار أبيض).

فجزم يقينًا بأن هذا الشبح يتراقص بإحدى أقدامه... يغرسها في البرتقال... يُفسد سطحه الذي ما جرحَه سكينُ الوالدة أبدًا... (يا نهار أبيض)... ويغرس بقدمه... (يا نهار أبيض)... ويغرس...

يا له من شبحٍ ذي غيظٍ... وظن الدمعات الهادرات من عين الأم على يده، ظنَّ أنها تلك (الفقعات) المتطايرة من تفعيص البرتقال بقدم الشبح. فنظرَ بعينٍ اسْتهْولَها الشبحُ إلى أمِّه سريعًا بنظرةٍ تقول: (أترين ما أرى يا أُمي؟).

ثم رجع ينظر إلى الشبح، وأسخنَ الدمعَ في عينِ الأمِّ نظرةُ الابن المُتَروِّعةُ أثناء الرُّقية، ولكن كلمات أخرى كادت تشقّ فمه: (أُمِّي... أُمِّي... سيُفْسدُ برتقالكِ يا أُمِّي)... في هذه اللحظات شعر أنه من الضعف والهوان على نفسه أن تراه

أمه ووالده بهذا الانهيار بعدما كان يقرأ عليهما مقتطفات بطولية من (سير أعلام النبلاء).

وأثناء خروجه لم يزح الستارة الزرقاء على جانبي باب المطبخ، بل غاصَ بوجهه فيها بدلًا من أن يرفعها بيده؛ تفاديًا لنظرةِ أبيه، لو أنه رفعها بيده فسيتيح ذلك الرؤية لأبيه مباشرة وسريعًا.

أما ما فعله بالغوص فيها، فقد أكسبه بعض الثواني؛ لينتبه الوالد إلى أنها إشارة إلى خروج الابن المنهار الذي قد تقضي عليه نظرة واحدة، ولكنه كان من الحنكة أن لحظة خروجه كانت موافقة تمامًا لضربة جزاء.

فحشَرَ عقبَ الباب بالجلباب، وراح إلى سريره ينهار في حضنه؛ كفتاةٍ رأتْ ابن الجيران يطرق بابهم، فطارتْ بها الآمال أنه: شَارٍ يَبْغي مقابلة والدها، وهو يريد فلوس مسح السلم (الواطي).

